أثر القرآن

في سلوك المجتمع المسلم

هذا الكتاب مُحَكَّم علمياً

التدقيق اللغوي

سيد المهدي أحمد

شروق محمد سلمان

إخراج فني





الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

ISBN 978-9948-8592-9-1

دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي
إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١+ فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١+

الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبي

mail@iacad.gov.ae www.iacad.gov.ae



دائـــــرة الشــــؤون الإســـــلامية والعمـــــل الخيـــــري
Islamic Affairs & Charitable Activities Department



أثر القرآن
في سلوك المجتمع المسلم

بقلم

الدكتور عبد القدُّوس بن أسامة السَّامرائي

إدارة البحوث


بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فيسر « **دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي - إدارة البحوث** » أن تقدِّم إصدارَها الجديد « **أثر القرآن في سلوك المجتمع المسلم** » لجمهور القراء من السادة الباحثين والمثقفين والمتطلعين إلى المعرفة.

وهو كتاب جمع صفحات مشرقة في تعامل الأمة المسلمة مع القرآن الكريم، وأظهر في جوانب عديدة أثر فهمها الصحيح لتعاليمه، ولاسيما على سلوك الفرد والأُسرة اللَّذين بهما يتكوّن المجتمع المسلم.

وهو مساهمة نافعة في سلسلة ما حرّره السّلف يرحمهم الله، وإسهام في إحياء جذوة التمسّك بكتاب الله تعالى، والتعريف بمنهج الأوائل، وكيف كانت حياتهم السَّابقة حياة قرآنية، تشهد ذوقاً وجدانياً، ومعرفة بمعاني القرآن الكريم، وتأثراً سلوكياً في التعامل الحسّي والمعنوي معه.

وهو نافع لأبناء الجيل المسلم، لاسيما في بعثهم على فهم مراد الله تعالى، وتربية الرّوح، وتنقية البَدَن،وانتقاء المنهج الحق في السلوك، والتعرّف على بعض آثار أبناء المجتمع المسلم من السَّابقين، وكيف كان أثر القرآن في سلوك أفراد الأمّة وقادتها وأعيانها ، من حيث انتفاعهم بتوجيهاته التربوية، وتعاملهم

معه على أســاس الفهم العميق لآياته، وصحيح ســنّة رســول الله ﷺ، وإمضاء أحكامهــما على النّفس والمجتمع؛ ليكون لهما الــدور الفاعل في إصلاح المنظومة الإنسانية، وسائر الشؤون الحياتية.

وهذه الصفحات المشــرقة تُعد طاقة إيمانيــة وفكرية؛ تبعث أجيال الأمّة على مواصلة المســيرة على المنهج الحق الذي عليه أهل القرآن، وتدعو إلى تحكيمه في حياتهم، وسائر شؤونهم؛ لتظهر بركته فيهم، ويتجلّى أثره عليهم، وتفيد الأرواح والأبدان والأسر والمجتمعات من نوره.

وهذا الإنجاز العلمي يجعلنا نقــدم عظيم الشكر والدعاء لأسرة آل مكتوم حفظها الله تعالى التي تحب العلم وأهله، وتؤازر قضايا الإسلام والعروبة بكل ســخاء، وفي مقدمتها **صاحب الســمو الشــيخ محمد بن راشــد بن سعيد آل مكتــوم**، نائــب رئيس الدولــة، رئيس مجلس الــوزراء، حاكم دبي الذي يشــيد مجتمع المعرفة، ويرعى البحث العلمي ويشجع أصحابه وينهض بطُلابه.

راجــين من العلي القديــر أن ينفع الأمة بهــذا العمــل، وأن يرزقنا التوفيق والسداد، وأن يوفق إلى مزيد من العطــاء من أجل خدمة الإسلام وأهله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصَلَّى الله على النَّبيِّ الأميِّ الخاتم سيدنا محمَّــد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدكتور سيف بن راشد الجابري

مدير إدارة البحوث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمـد لله ، وسـلام على عبـاده الذين اصطفـى، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ما لمع نورٌ واختفى، وأشهد أنّ سيّدنا محمداً عبده ورسوله، سيّد الشُّرَفا ، وحسبي الله الملك القُدُّوس وكفى.

أما بعــــد:

فالقرآن الكريم دسـتور لحياة الأمة الإسـلامية كلّهـا، والمصدر الأول للهدايـة في توجيـه هذه الأمّة إلى حياة أساسـها العدل وحـبّ الخير وفعله، وكـما قال ابـن مسـعود رضي الله عنـه (ت٣٢هـ): « **إنّ هذا القـرآن مأدبة الله، فتعلمـوا مـن مأدبة الله ما اسـتطعتم، وهو النور النيّر، والشـفاء النافع، والعصمة لمن تمسّك به، والنجاة لمن تبعه، لا يعوجّ فيقوّم، ولا يزيغ فيُسْتعتب، ولا تنقضي عجائبه** » [(١)] .

وبالهـدي القـرآني بنـى المسـلمون حضارتهـم الشـامخة، التي امتـدَّ نفعُها إلى البشريـة قاطبة، وبه تجسّـد كيانهم بين الأمم؛ فهو سَـداد حياتهم، وشـهود حضارتهم، وقوّة شوكتهم، وإليه مفزعُهم في الُملِمّات كلّها. ومن المعلوم أنَّ أولى

(١) رواه سـعيد بـن منصـور في سـننه: ١/ ٤٣، برقـم (٧)، وجـاء في مصنـف ابن أبي شـيبة ٦/ ١٢٥، برقم (٣٠٠٠٨)، والدارمي في سُـننه: ٢/ ٥٢٣، برقم (٣٣١٥)، وفي المستدرك على الصحيحين ١/ ٧٤١، برقم (٢٠٤٠)، وفي السنن الصغرى ١/ ٥٤١، برقم (٩٨٣).

ما صُرفت فيه نفائس الأيام، وأعلى ما خُصّ بمزيد الاهتمام: الاشتغال بالعلوم الشرعيـة المتلقّاة عن خـير البريّة، ولا يرتاب عاقلٌ في أنّ مدارَها على كتاب الله المقتفى وسُـنَّةِ رسـوله المصطفى ﷺ، وأنّ باقي العلوم إمَّا آلات لفهمهما وهي الضّالة المطلوبة، أو أجنبية عنها وهي الضارّة المغلوبة كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله.

ولمّا كان القرآن العزيز أشرفَ العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم .

وعليـه: فإنَّ العلـم بكتاب الله عزَّ وجلَّ، والعمـل في خدمته من أرفع الأعـمال، وإنّ الله عزَّ وجلَّ لا يمنح هـذا الفضل - أعني فضل فهم كتـابه وتفهيـمـه- إلا مَـنْ أراده لذلـك كـما قـال مجاهد رحمـة الله عليـه: « **أَحَبُّ الخلـق إلى الله أعلمُهم بما أنـزل** » ؛ لما عليه مآل عالمِهِ من الإيمان، واليقين بموعـود الله تعالى، وما يتذوّقه من مواطنة الجنَّات، وهو يتفيأ ظلال آيـات كتـاب الله الوارفات، ولما فيه من الالتحاق بزمرة سـيد السـادات ومنهجه وسلوكه ﷺ.

ولما تقدّم وغيره جاءت صفحات هذا الكتاب مشرقة بشُـعُعٍ تُظهر فهم السَّـابقين في الأمّـة رحمهم الله تعالى للقرآن الكريـم، وتعاملهم معه ومع أهله، وكيف حوّلوا الفهم والتعامل إلى منظومة متكاملة في العلم والأخلاق والعمل، وشـملت هذه الصفحات إشراقات مهمة في بابها، ونافعة لـمَنْ وعاها، وتدبّر آثارها، وأحسن الإفادة منها، ولاسيما في التعامل مع القرآن الكريم، وما يلحق

به من المعارف ، وحثّ السلف على تعلم القرآن، وإكرامهم لأهله، وإفاضتهم بجملة من الفوائد ، والتجارب التي وقفوا عليها أثناء العناية والرعاية والعيش في ظلال كتاب الله تعالى .

والـذي ينفعنـا في مثـل هذه الصفحات هـو تذكير أنفسـنا والأمة بعظيم المسـؤولية تجـاه القرآن الكريم، ومحاولـة بعث الهمّة في أجيـال الأمة المتلاحقة المتجـددة التـي هـي بأمس الحاجـة إلى النظـر في صفحـات آبائهـا وصنائعهم الخالدة، وإلى كل عبارة وإشـارة ترشـدهم إلى خيري الدنيا والآخرة، وتبعثهم عـلى حثّ الخطى بيقـين وقناعة وثبات، وتنطلق بهم بلا ريب في طريق الدعوة إلى الله تعالى ودينه الحق، وتصبرهم على مشاق نشره، والدفاع عنه وعن رموزه ومقدّسـاته ، ولتمـضي الأمة اليـوم في تقديم كل غالٍ ونفيس في سـبيل ذلك ، ولتقـف على مناهج السَّـابقين في التعامل مع القرآن العظيـم، وتطّلع على نتاج فهمهـم لآياته الكريمـة، وتتعرّف على الكيفيّة التي اسـتطاعوا بها ومن خلالها الوصـول إلى مـا وصلـوا إليه ؛ مـن الصّدق في عهـد الله ورسـوله، والمصالحة والصَّـلاح والإصـلاح في ضوء هـدى القرآن الكريـم قراءة، وفهـماً، وتفهيماً، وعمـلاً بالأحكام، وأثراً في الأرواح والقلوب والأجسـاد، والفرد والمجتمع، والبناء والحضارة.

وقُسّمت صفحات هذا الكتاب إلى **ثلاثة محاور**:

الأول: إشراقات في تعامل الأمة مع القرآن الكريم.

والثاني : أثر الفهم الصحيح لتعاليم القرآن الكريم في السّلوك العام.

والثالث: شعع في أثر تعاليم القرآن في سلوك الفرد والأُسرة والمجتمع.

وكل واحـد من هذه المحاور اندرجت تحته عدة فقرات تعالج موضوعه، وقـد تعـزّز هذا الجهـد كلّه بناءً عـلى النَّظر والتأمـل في الفكـرة ، والرجوع إلى المصـادر المهمَّـة التـي تتعلّق بالقـرآن الكريم، تفسـيراً ولغة، وما جاء في سِـيَر رجال الأمة السَّـابقين، وصفحات تاريخهم المشرق في ظلال تمسّـكهم بالمنهج الحق يرحمهم الله تعالى .

والأمـل أن تكـون هذه الصفحات مسـاهمة نافعة في سلسـلة ما كُتب في هـذا الموضـوع، وعسـى أن تُسهم في إحياء الجذوة، والتعريف بمنهج الأولين رحمة الله عليهم، وكيف كانت مراحلهم السَّـابقة مراحل حياة قرآنية، وتذوق وجـداني لمعـاني القرآن الكريـم، وجمال بديعـي في التعامل الـحسّي والمعنوي معـه، وأن تَنْفَع أشـعتها الجيل فهـماً ، وتربية ، ومنهجـاً ، ويُنْتَفع من خلالها في التعـرف عـلى بعض آثارهـم ولطائفهم مـع القـرآن، ولتحفظ وتُذكّـر بمكانة السَّـابقين الأولين من أهـل القرآن، وكيف كان تعامل قـادة الأمة وأعيانها مع القرآن وأهله، وكيف كان أثر القرآن فيهم وفي سلوكهم ؛ لنكون معاً في طريق معرفـة الله تعالى، والوصول إلى مرضاته جلّ جلاله.

هـذا .. وإنّ كلّ شـعاع من أشـعّة أولئك الصّادقين ليسـتحق أن يُستضاء بـه، ويسـتفيد منه جيل اليـوم ، وأن تُتتبّع أقوالهم ، وحِكَمهـم ، ومناهجهم في التعامـل مع القـرآن، وتُجمع وتُدرس لتظهـر آلية فهمهم لكتـاب الله وما جاء بـه، وتنتفـع الأُمـة بتوجيهاتهـم التربويـة القائمـة على أسـاسي الفهـم العميق

لكتاب الله تعالى، وصحيح سنّة رسوله ﷺ؛ والاتباع الحقيقي بتفعيل أحكامهما على النّفس والمجتمع، وليتعرّف الجيل على حقائق معانيهما، وإرشاداتهما الشاملة لسائر الخليقة ، وتُقعّد على الواقع ، ويكون لها دورها الفاعل في إصلاح المنظومة الإنسانية والاجتماعية والفكرية وسائر الشؤون الحياتية ، وبهذا كلّه تتضح معالم الأثر القرآني في سلوك الأمة.

ولا شك أنّ من غايات تحرير هذه الصفحات تعريف الأمة وأجيالها بالفهم الوسطي المعتدل للدِّين من خلال تزكية الرّوح، وتنقية البدن، والجمع بين العلم والعمل، والسَّعي في تحقيق التوازن بين عيش الدنيا وطلب عيش الآخرة ، لاسيما والأمّة اليوم تعيش مرحلة من مراحل الجفاف الرّوحي ، وتعاني من تفشّي ظاهرة ضعف الارتباط الإيماني بين أبنائها ، وداخل منظومتها، والذي انعكس سلباً على سلوكها الحياتي .

وأخيراً أُذكِّر نفسي والقراء والسَّائرين في طريق معرفة الله تعالى من طلاب العلم والدعاة والكتّاب والمعلّمين والمربّين بما قاله الإمام الفقيه أبو صالح حمدون بن أحمد القصّار النَّيْسَابُوري (ت٢٧١هـ) رحمة الله عليه، لّما قيل له: مَا بَالُ كلامِ السّلَف أَنْفَع من كلامنا ؟! ، فقال: « **لأَنَّهُم تكلَّموا لعزِّ الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن؛ ونحن نتكلَّمُ لِعِزِّ النَّفْسِ، وطَلَبِ الدنيا، وقبُول الخَلْق** »؛ فهذه تذكرة تجعلنا بحق إذا تكلَّمنا نذكر أنّ الله تعالى معنا يسمع ويرى وهو السميع العليم، وإذا نظرنا إلى الغاية

العظمى من الخلق والإيجاد نذكر نعمة مَنْ له الخلق والأمر، فتبارك الله ربّ العالمين سبحانه، وأنّه لم يخلقنا إلا للعبادة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[(١)]، ثمّ تكرّم علينا فاستعمرنا في الأرض: ﴿.. هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[(٢)]، واستخلفنا عليها، وهو سبحانه ذو الفضل العظيم: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾[(٣)].

فلنطلب النجاة منه به وإليه تعالى، والرّضا منه وعنه بفضله سبحانه، والعزّ لديننا العظيم الذي هو صلتنا به جلَّ جلاله. ولنحرص على تجديد الإخلاص مع السَّعي الدؤوب في أن تُشرق صفحات سلوكنا في ضوء المنهج القرآني في سفر أبناء الجيل القادم، وأن نتفاعل مع القرآن في الفكر والأخلاق والسلوك.

وفي سلاف مداد هذا التقديم: أبتهل إلى الله تعالى أن يحفظ قلوبنا وأرواحنا وأبداننا وجوارحنا، وأن يمتعنا بها، ويجعلها الوارث منا. وأن يلهمنا الصواب والسداد في أمورنا كلها. ويكتب لنا الإخلاص والقبول. وأن يبعثنا على تجديد التوكل عليه سبحانه تعالى في جميع أمورنا، ونبرأ فيها إليه من حولنا وقوَّتنا،

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

(٢) سورة هود، الآية ٦١.

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٦٥.

ونسأله أن يعيننا عليها، وعلى كلّ خير، ويوفّقنا لصالح الأعمال، ويتفضّل علينا بقبولها، ويجعلنا ممن سمت أخلاقهم فكانت تُنْسب للقرآن وأهله وخاصّته، وممن ظهر أثره فيهم وفي مجتمعاتهم.

وصلى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الأكرمين، ومَنْ تبعه بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

د. عبد القُدُّوس بن أسامة الحُسَيْنيّ السَّامرائي الكليدار

دبي / الإمارات العربية المتحدة



المحـور الأول

إشراقات في تعامل الأمة مع القرآن الكريم

المحـور الأول

إشراقات في تعامل الأمة مع القرآن الكريـم

من حيث:

أ) التمسك بكتاب الله تعالى والتزامه قراءة وتعهّداً .

ب) انبثاق المدارس لتعليم القرآن الكريم ، وحُسن تفهيمه .

ت) تنوّع المناهج في فهم القرآن والتعامل معه .

ث) تهيئة الأجيال وتأهيلها للتعامل مع القرآن الكريم .

***

لا شك أن من أعظم نعم الله تعالى علينا هي نعمة الإسلام، ونعمة القرآن ، ونعمة سيدنا محمد ﷺ ؛ فالإسلام أخرجنا الله تعالى به من الظلمات إلى النور؛ والقرآن الكريم علّمنا الله تعالى به كيف نوحّده، وكيف نفهم عنه تعاليمه السامية، وكيف نجمع بين عزّي الدنيا والآخرة، وهو المصدر المقروء؛ وسيدنا محمد ﷺ رسول الله ونبيّه الخاتم هو الذات المجسّدة لصلاحية التعاليم الواردة في القرآن الكريم، وهو القرآن العملي؛ فهو ﷺ الجامع بين المنظور والمحسوس، وهو واسطة الهداية الموحى إليه من الله عزّ وجلّ، والمجسّد لنور القرآن الكريم بسلوكه وهديه ﷺ ، ومرجع الشفاء لما في الصدور وبركته [1]،

(١) وقد جاءت الآثار تبيّن بركة ذاته ﷺ كنبي ورسول، حتى على جسده الشريف؛ منها ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٠٤ ، برقم(٢٤٧٧٢) ، بسنده إلى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها : « أن النبي ﷺ كان يقرأ على نفسه المعوذات وينفث، قالت أم المؤمنين عائشة: فلما اشتكى ﷺ جعلت أقرأ عليه وأمسحه بكفه رجاء بركة يده ».

وهو نور القرآن الساعي بـه، ومشكاته في الخلائق بأمر الله عزَّ وجلَّ ، وباعتبار جمعـه بين المنظور والمحسـوس في شـخصه ﷺ، وكونه الشـمس المنيرة في بث روح الوحـي ولفظـه في الأمة، وبعثها عـلى النهوض بالحـسّ والمعنى ؛ نلحظ انتشـار شعع شمسه في سـائر العصور وتأثيرها على الأجيال منذ مبعثه ﷺ إلى أن يـرث الله الأرض ومَـنْ عليها ؛ كما نلحظ أن ثلّـة الصادقين في الأمة تحتفظ ببركات إرثه، وتقتبس لنفسـها وللأجيال اللاحقة بركبها شيئاً من شعع نوره، ويظهـر أثر ذلك من خلال سـلوك الأمة وعلمائها وصالحيهـا في التعامل العام مـع غيرها أو الخاص فيما بين أبنائها ، ويمكننا أن نتعرّف على ذلك من خلال: **حثِّ السـابقين على تعلّم القرآن، وإكرامهم لأهلـه، وتدبّرهم لآياته، والعيش في ظِلالـه، ومباشرتهـم الدعـوة إلى الله تعـالى عـلى ضوئه، وعملهـم بأحكامه، وإظهارهم لقيمه الإيمانية والتربوية والعلمية الحضارية.**

فـكان ﷺ كـما حـدَّث الإمـام الجـدّ عـلي بـن أبي طالـب رضي الله عنـه: « **لا يحجزه عن قراءة القرآن إلا الجنابة** » [١].

وكان السّـابقون رحمـة الله عليهـم عـلى أثـره ، ومـن أشـدّ الناس تمسّـكاً بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ ، وفي الوقت نفسه من أشدّهم على المُدَّعين، وكان فهمهم ينبع من عظمة هذا الدين، واختيار الله تعالى لهم في حمل رسـالته إلى النّاس كافة، وتحمّل أعباء تأسـيس دولة الإسـلام الخاتم؛ فرسـول الله ﷺ إنّما أُرسـل إلى الناس كافة بشـيراً ونذيـراً وداعياً إلى الله بإذنـه وسراجاً منيراً ،

---

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده ١/ ٤٣٦ ، برقم (٥٩٧). وهذا ما عليه جمهور العلماء. ينظر شرح الزرقاني ١/ ٣٥٦ .

ولا شك أن الصّالحين من أمته، والرّاسخين بما جاء به عن الله تعالى من تعاليم وقيم إيمانية وخُلُقيّة إنّما هم شُعع عنه ﷺ إلى سائر الخليقة، ويمكنك أن تلحظ هـذا المعنى من خلال قوله تعـالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ..﴾ [1]، وبهـذا الفضـل لأُمّة الرّسـول الخاتم ﷺ، وكونها الحكم على الناس، ولا سيما في إرساله تعالى للرّسـل، وإنزالـه الكتب وما فيها من الهداية والنور والحكمة ، والشـهادة على سـائر الأمـم الأخـرى في إقامة حجج الله تعـالى عليهم إلى يـوم القيامة ؛ تظهر مكانتها الحقيقية بين الأُمم، وهو فضل سارٍ فيها إلى يوم الدين.

ولا شـك أنّ تحكيم أمة الرسـالة الخاتمة ، وجَرأتهـا في البلاغ والمراقبة هـو سـيرٌ في قضـاء الله، وتمكـينٌ لسـنته، وأنَّ إقامـة مـا أراده الله تعالى من الحجـج والبراهـين على غيرها إنما سـيكونُ من خلالهـا ، وأنّ معرفة ذلك كلّه ، يرجع إلى فهم صحيح وعميق للقرآن الكريم – رسالة الله الخالدة –، ووضـوح قواعده ؛ فهو الميثاق الذي أضاء للبشرية طريقها ، والحَكَم على سائر أقوالها وأفعالها، والقاضي بما لها وما عليها .

ولا شـك أنّ أعـرف النـاس بالله تعـالى أعرفهم بمضامـين كلامه، وأهل المعرفـة بالله سـبحانه هم أهـل القـرآن، وهم أهل لمحبـة الله تعـالى، والتقرّب إليـه، والقرب منه، بما فهموه من كلام الله تعالى، وأيقنته قلوبهم من الحق؛ فقد جـاء عن عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه، أنّـه كان يقول: « **مَنْ كان يحبّ أن يعلـم أنَّه يُحِبُّ الله عزَّ وجلَّ فليعرِض نَفْسَـه على القـرآن، فإنَّما القرآن كلام الله**

---

(١) سورة البقرة ، من الآية ١٤٣ .

عزَّ وجلَّ، فمَنْ أحبَّ القرآن فهو يُحِبّ الله عزَّ وجلَّ... لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله ﷺ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله »[1]، وبهذا يبيّن رضي الله عنه أن أهم شيء في منهج الحياة أن تعرض عملك على شرع الله تعالى، وتجعل القرآن حَكَماً على أقوالك وأفعالك وأحوالك وميزاناً في الحق والخير؛ ليسلم لك دينك، وتسلم نفسك، ويسلم منك الناس، وتنجو وأهلك من عذاب الله تعالى وعقابه ووعيده.

وقد جاء في الأثر عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أنّه قال: إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكَرهاً [2]. وسُئل رويم بن أحمد (ت٣٠٣هـ) رحمه الله تعالى عن أوّل فرض فرضه الله عزّ وجلّ على خلقه، فقال:« المعرفة، لقوله جلَّ ذِكْرُه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [3].

وأهل القرآن – أهل المعرفة – هم أولى الناس بالتسليم لله تعالى، والرّضا

---

(١) أخرجه ابن سمعون في أماليه ١/ ٣٨، برقم(١٧١).

(٢) ينظر تفسير الطبري ٢٢/ ٤٤٤. وفي روح المعاني للآلوسي ١٥/ ٥٠ : أنّ ابن عباس رضي الله عنهما قال: إلا ليعرفون .وفي الأسباب والمسببات، ووسائل الإعانة على الطاعات جاء في طبقات السلمي، ص ٧٠: « أنّ أبا يزيد البسطامي يرحمه الله سُئل: بماذا يُستعان على العبادة ؟ قال: بالله ! إن كنتَ تَعرِفُه ».

(٣) سورة الذاريات، الآية ٥٦. والظاهر أنّه قد أفاد من ابن عباس رضي الله عنهما هذه المقولة، وقال رويم أيضاً: ما نجا مَنْ نجا إلا بصدق التقى، قال الله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ سورة الزمر، الآية ٦١.

عنـه، يقول الفضيل بـن عياض رحمة الله عليه: « أحق النـاس بالرضا عن الله، أهل المعرفة بالله عزّ وجل »[١].

ويقـول أبو بكر الحسـين بن علي ابن يزدانيار يرحمـه الله في بيانه لمعنى هذه المعرفـة: « المعرفةُ صحَّة العلـم بالله، واليقينُ بالنظر بعين القلب إلى ما عند الله تعالى، مما وعده وادَّخره.. المعرفةُ تحققُ القلب بوحدانية الله تعالى »[٢].

ويقـول أبو الحسـين محمد بن سـعد الورّاق النيسـابوري رحمـة الله عليه: « أنفـعُ العلـم العلمُ بأمـر الله ونهْيه، ووعـده ووعيده، وثوابـه وعقابه. وأعلى العلوم العلمُ بالله وصفاته وأسـمائه »، ولا شـك أنّ كتاب الله تعالى فيه جوامع هذه العلوم، وأنّ الوقوف على معانيه وفهم حكمته من الأعمال التي تنتهي إلى أرقى الفهوم، وأن كلّ علم متعلق به من حيث التوضيح والبيان، وكان مرجع ثمرته القرآن، وكذلك تراث المسـلمين ونتاجهم المنضبط وما يُعدّ ثمرة لمعرفة القرآن وما فيه؛ فإنّ نتيجته المعرفة التي بها تتحقق السعادة والنجاح والفلاح.

وعـلى المسـلم أن يخضع للحـق، وينقاد له، ويقبَله مـن كل طريق صحيح وصل به إليه، وكذلك ممّن سمعه منه إذا كان فيه ما يوصل إلى معرفة الله تعالى. وكان وفق شروط النقل والسماع المعتبرة عند أمّة الإسلام الخاتمة.

---

(١) طبقات السلمي، ص ١٠.

(٢) المصدر السـابق، ص ٤٠٩. وقد جاء في الأثر - كما في الرسـالة، ص ٢٦٧ - : أن الإمام الجـد جعفر الصادق رحمة الله عليه سُـئل: مـا بالنا ندعو فلا يُسـتجاب لنا ؟! فقال: « لأنّكـم تدعـون مَنْ لا تعرفونه »؛ وهو بذلك يحثّهم عـلى معرفة الله تعالى، وتحقيق وحدانيته وحُسن التوكل عليه في القلب، وظهور آثار ذلك في السلوك والعمل.

والملاحـظ مـن سِـير الأوّلـين رضي الله عنهـم أنهـم جعلـوا انطلاقتهـم في طريـق معرفـة الله تعـالى قائمة على المعرفـة بأصـول الدين المعتمـدة، المبيِّنة لأحكام الله تعالى، والمبنيّة على رسالته الخالدة - القرآن الكريم- ؛ فتعاملوا مع القرآن منهجاً للحياة؛ منه العلم، وإليه المحتكم في القول والعمل، وبه السمو، وفيه الرّقي إلى الدرجات العليا التي استحثّ الله تعالى عباده على الرغبة فيها، وطلبهـا والتسـابق في نيلهـا ، ومن ذلك ما جاء في سـيرة أبي الـدرداء، عويمر الأنصـاري (ت٣٢هـ) رضي الله عنـه[1]، وحرصه على إتقـان التعليم لآيات القـرآن الكريم، والتزامه التدقيق، وتقسـيمه المعلمـين إلى مجموعات منتظمة، وحلْقات منظّمة في التلقي؛ فكان رضي الله عنه إذا صلى الغداة في جامع دمشق - إذ كان قاضياً فيها - اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كلّ عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء يسـأله عن ذلك. وقد أوعز إلى أحد طلابه وهو مسلم بن مِشكَم ، بأن يعدّ له مَنْ يقرأ عنده القرآن في حلْقاته، يقول مسلم : « فعددتهم ألفاً وست مئة ونيفاً، وكان لكل عشرة منهم مقرئ، فإذا أحكم الرجل منهم تحوّل إلى أبي الدرداء رضي الله عنه ».

وفي طبيعـة مـا كانـوا عليـه من مناهـج التلقي للقـرآن ، والتفقـه في آياته، والتعامل مع ألفاظه ومعانيه وأحكامه ولطائفه، يقول أبو عبد الرحمن السُّـلمي (ت٧٤ هـ) رحمـة الله عليـه: « إنّـا أخذنـا القـرآن عـن قـوم - كعثـمان وعلي

---

(١) تنظر طبقات ابن سـعد ٣/ ٣٩١-٣٩٣ ، وسـير أعلام النبلاء ٢/ ٣٣٥-٣٥٣ ، ومعرفة القراء الكبار للذهبي ١/ ٤٠-٤٢، برقم (٧) ، والاستيعاب ٣/ ١٥-١٨ .

وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين- أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يُجاوزوهنّ إلى العشر الأُخر ، حتى يعلموا ما فيهنّ ، فكنّا نتعلّم القرآن والعمل بـه، وإنّه سـيرث القـرآن بعدنا قوم يشربونـه شرب الماء لا يُجـاوز تراقيهم، بل لا يُجاوز هاهنا ، ووضع يده على حلقه » .

وكان أبو عبد الرحمن رحمه الله في عهده قد فضّل تعليم النّاس القرآن خمس آيـات خمس آيـات ؛ فانظر يا رعاك الله إلى الفارق في الكمّ والنوع والأسـلوب والمنهج، وتغيّره مع اختلاف الزّمان ، واتساع الأمصار ، وقلّة الإدراك الشائعة في الناس، وإلى دقّة التحري في الأساتذة، وعظيم حرصهم على إتقان تلامذتهم فهم النّص الكريم ، وتمكّنهم من تطبيقه، والعمل بمقتضاه، وإن طالت مرحلة تعلّمه وتعليمه، فالمهم عندهم أن لا يكون الجيل ممن يشرب لفظ القرآن كشرب الماء وليس لهم منه إلا اللفظ وضبطه، دون المعنى والعمل والأثر والسلوك.

وكذلك يظهر سلوك السَّابقين في التعامل مع القرآن وأثره فيهم من خلال تكـرار مراجعته، ومعاودة قراءته على المختصّـين بالإقراء ومعرفة المعاني ، وأنّ ذلـك من سـنّة الأوّلين في الأمة ؛ فمنذ عهد نزول القـرآن الكريم ابتدأ جبريل عليه السلام بعرضه على رسول الله الخاتم سيدنا محمد ﷺ، حتى تبادلا عرضه عـلى بعضهما بعضاً أكثر من مرّة في سـنة وفاته ﷺ ، ودرجـت آلية التعامل مع القرآن بمثل هذا الأسـلوب سنّة في الأمة لإتقانه وتثبيت معانيه، ودرج الناس عـلى ذلـك منذ عهـد الصحابة إلى يومنا ، وسـتبقى هذه السُّـنَّة إلى أن يرث الله الأرض ومَـن عليها، تصديقاً لما قاله الحق تعالى في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [1] .

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

ومـن الإشراقـات التاريخية في تعامـل الأمة مع القرآن، وسـعي رجالها في طلب أثره، ومعايشـة آثاره، والاسـتنارة بأنواره ما جاء في سـيرة الإمام المقرئ المفـسِّر مجاهـد بن جـبر (ت١٠٣هـ) رحمـة الله عليه ، أنّـه قرأ القـرآن على ابن عبـاس رضي الله عنـه ثلاثـين مـرّة. ومما صحّ عنـه أنّه قال : « عرضـت القرآن على ابن عباس ، ثلاث عرضات، أقِفه عند كل آية، أسـألـه فيم نزلت؟ وكيف كانـت ؟ »[1]، ولّمـا صَدَق ابـن جبر في تلقيه القرآن وعلومه، وصبر على شـدّة ذلـك؛ شـهدت الأمّة له بأنـه رحمـة الله عليـه كان ممن يـريـد بعلمه وجه الله تعالى ، فليُتنبّه إلى الغاية من القراءة التي نبّه إليها السَّـلف في سـلوكهم، إذ لابد من معرفة أسـباب نـزول الآية ، والأحـكام المتعلّقة بها، مع تعلّـم كيفية قراءة آيـات القـرآن الكريـم وضبطها، واختيار مَـنْ يؤخذ ذلك عنه مـن أهل العلم والخبرة ، دون أهـل الادعـاء والمنّ والغلّ والشهرة.

ولا شـكّ أن أهـل القـرآن هـم أهـل الإخـلاص لله تعـالى، والمعرفـة بالضرورات وعلاجات المراحل الحياتية والإيمانية التي يعيشونها، ويعيشها أبنـاء الأمـة، وهـم أصحـاب الإقدام عـلى نفع أنفسـهم والنـاس بخيرات

(١) وقد وفّق بين الروايتين الشيخ الزرقاني في كتابه مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٤٨٨، (المفـسرون مـن التابعين) ، حيث قـال: « ولا تعارض بين هاتـين الروايتين ، فالإخبار بالقليـل لا ينـافي الإخبـار بالكثير، ويُحتمـل أنّ عرضه القرآن على ابـن عباس ثلاثين مرّة كان طلباً لضبطه، وتجويده وحُسن أدائه. وأمّا عرضه إيّاه ثلاث مرّات فكان طلباً لتفسيره، ومعرفة أسراره، وحِكَمِه وأحكامه، كما يدّل عليه قوله: أقف عند كل آية منه أسأله عنها: فيم أُنزلت؟ وكيف أُنزلت؟ ».

القرآن ومعارفه ، والانتفاع ممن تظهر عليهم بركات العلم وأنواره في سائر الأمصار ، يقول الحسن البصري (ت ١١٠هـ) رحمة الله عليه: « إن مَنْ كان قبلكم رآها – أي آيات القرآن الكريم – رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار »(١).

وكذلك فإنّهم جعلوا هدي الرّسول الخاتم ﷺ منار هديهم، فهو الذي يصحّح مسار فهمهم لأوامر الله جلّ شأنه، ويوضّح متطلبات طاعته عزّ وجل؛ ممتثلين لقول الحق جلّ جلاله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾(٢)، وموقنين بآثار قوله تبارك اسمه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٣).

يقول أبو عمرو محمد بن إبراهيم الزجاجيّ (ت٣٤٨هـ) يرحمه الله تعالى: « كان النّاس – في الجاهلية – يتّبعون ما تستحسنه عقولُهم وطبائعهم، فجاء النبي ﷺ فردَّهم إلى الشريعة والاتباع؛ فالعقل الصحيح، هو الذي يستحسِن محاسن الشريعة، ويستقبح ما تستقبحه »(٤). واعتمد السّلف

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ١/ ٣٨ ، (تحقيق: عبد السلام عبد الشافي).
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.
(٣) سورة النساء، الآية ١٧٠ .
(٤) طبقات السّلمي، ص ٤٣٣، وتنظر حلية الأولياء ١٠/ ٣٧٦ .

رحمهـم الله تعالى على هذين الأصليْن - الكتاب والسـنة- مع التعقل والتفكّر في خـوض غـمار الحياة، والحرص عـلى تخطّي صعابها، وعبـور اختبارها بكل نجاح، واسـتنبطوا ما يليق بفهم الكتاب والسـنة ليؤسسوا القواعد التي تبيّن للناس على اختلاف مداركهم، وتنوّع ألوانهم ورسـومهم وانتماءاتهم ما المراد بشريعـة الله تعالى، وكيف يصل العبد إلى ربـه، وصول المتقرّب المتبتّل المنيب، وكان الإمام الحسين ابن عبد الله بن بكر الصُّبَيْحِيّ يرحمه الله تعالى، يُسأل عن أصول الدين، فيجيب: « إثبـات صِدْق الافتقار إلى الله تعالى، وحُسْن الاقتداء برسـول الله ﷺ. أمّـا فروعه فأربعة أشـياء: الوفاء بالعهـود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبـر على المفقود »[1].

واتسـعت دائرة الفهم لكتـاب الله تعالى ومضامينه لتشـمل علوماً كثيرة، ومعـارف عديـدة، كلّها لو أمعـن الناظـر فيها والمتأمـل بأُسُسِـها لأعادها إلى كتـاب الله تعالى وهدي رسـوله ﷺ، ونتاج فهمهما مما تناقلـه العلماء، وتوصل إلى فهمـه الإدراك السـليم، وهذه السّـعة، وهذا التيسـير مبني على أسـاس ما رخّصـه الله تعالى للأمة الخاتمة؛ فهو سـبحانه الذي يسّر القرآن للفهم والتلاوة والاسـتنباط، وبهـذا الفتح والتيسـير اسـتطاع عقلاء الأمـة أن يفقهوا دروس الوحـي المتلاحقـة في بنـاء مجتمعهـم الحضـاري، وكما قـال مقاتل بن سـليمان (ت١٥٠هـ) رحمة الله عليـه: « لـولا أنّ اللهَ تـعالى يـسَّـره ما اسـتـطاع أحدٌ

---

(١) طبقات السّلمي، ص ٣٣٠، وطبقات ابن الملقن ١/ ٥٦، (فصل في طبقات أخرى).

أن يتكلَّم بكلام الرحمن »[1]، وهذا التيسير يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[2]، وقوله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[3]، وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[4].

ولو تأمل المتأمل بأحوال السَّابقين الأولين رضي الله عنهم في ضوء هذا الفهم لوقف على حقيقة ما وقفوا عليه: السعي من أجل معرفة الله تعالى والاكتفاء به ؛ يقول محمد بن الفضل البلخي (ت ٣١٩ هـ) رحمه الله ؛ بعد قول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[5]: « مَنْ عرَفَ الله اكتفى به »[6].

وتتضح إشراقات تعامل الأمة مع القرآن من خلال:

---

(١) مقدمة فضائل القرآن وتلاوته، للرازي ، ص ٤٥ ، وأشار محققه الدكتور عامر حسن صبري أنّه رواه ابن أبي حاتم في التفسير عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٦٧٦ ، وذكره البيهقي في الأسماء والصفات ١/ ٣٩٩ . هذا.. وباعتبار أن مقاتل أبدى في ذلك رأياً فرأيه هنا صحيح، لاسيما وأنّه لم يرفعه كحديث مروي ؛ لما لأهل العلم من ملاحظات على رواياته.ينظر سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠٢ ، والتهذيب ١٠/ ٢٧٩ .

(٢) سورة القمر، الآية ١٧ .

(٣) سورة مريم، الآية ٩٧ .

(٤) سورة الدخان، الآية ٥٨ .

(٥) سورة فصّلت، الآية ٥٣ .

(٦) طبقات السلمي، ٢١٥ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٢-٢٣٣ ، وصفة الصفوة ٤/ ١٣٨ ، وشذرات الذهب ٢/ ٢٨٢ ، ومرآة الجنان ٢/ ٢٧٨ ، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٢٥-٥٢٤ .

أ) التمسك بكتاب الله تعالى ، والتزامه قراءة وتعهّداً، مع استحضار كامل هيبته، واستثارة الخشوع في كوامن الذات المتعاملة مع ألفاظه ومعانيه:

كان قِوام منهج السّابقين في صدر هذه الأُمّة الالتزام بكتاب الله تعالى، والحثّ على التمسّك به، والرَّاحة مع الله تعالى؛ يقول أبو الحسين علي ابن هند، يرحمه الله: « المُتَمَسِّكُ بكتاب الله عز وجل هو الملاحظ للحق على دوام الأوقات، والمتمسِّكُ بكتاب الله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ من أمور دينه ودنياه، بل يجري – في أوقاته – على المشاهدة، لا على الغفلة؛ يأخذ الأشياء من معدنها، ويضعها في معدنها.. ». وقال: « استَرِحْ مع الله، ولا تستَرِحْ عن الله ؛ فإنَّ مَنْ استراح مع الله نجا، ومَنْ استراح عن الله هلكَ، والاستراحة مع الله تُروِّح القلب بذكره، والاستراحة عن الله مُداومةُ الغفلة » [١].

والأئمة السابقون يرحمهم الله تعالى إنما هم على أثر النبي الخاتم ﷺ في تلاوة وفهم ما أنزله الله تعالى عليه ﷺ، وتزكية أنفسهم والناس في ضوء منهجه ﷺ، وتعليمهم آيات الله تعالى وحُكمها وحكمتها في ضوء هديه ﷺ،

---

(١) طبقات السلمي ، ص ٣٩٩. وحلية الأولياء ١٠/ ٣٦٢ . وقد بينّ الإمام السيوطي (ت ٩١١ هـ) رحمة الله عليه في كتابه الإتقان، كيفية التعامل مع آيات القرآن الكريم بالتدبّر، والتفكر في المبنى والمعنى، ووسائل تحصيل ذلك أثناء التلاوة، فقال: « وتسنّ القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، به تنشرح الصدور وتستنير القلوب..، وصفة ذلك أن يشغل- القارئ – قلبه بالتفكير في معنى ما يتلفظ به فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوَّذ، أو تنزيه نزَّه وعظَّم، أو دعاء تضرَّع وطلب ».

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾[1]، ولا شك أن فضل الله تعالى ونعمه لا تعدّ ولا تحصى، يمنح مَنْ شاء ما يشاء متى شاء؛ فسبحان الله رب العرش العظيم ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾[2]، وتتضح عظمة وسعة مكارمه تبارك اسمه فيقول: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3]، ويقول: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[4]، وفي تحقيق عفوه عزّ وجلّ المدبّج برحمته وابتغاء فضله، يقول الحق تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥١.

(٢) سورة النور، الآية ١٠.

(٣) سورة النور، الآية ١٤.

(٤) سورة النور، الآية ٢١.

(٥) سورة المزّمل، الآية ٢٠.

وجـاء في الأثر عن أبي موسـى الأشـعري (ت٥٠ هــ، وقيل بعدها) رضي الله عنه، أنّه كان يعامل نفسه بهذا الميزان، فيقول في رعايته للصلة بينه وبين الله تعالى من خلال النظر والتدبّر في القرآن الكريم: « إني لأستحي ألّا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة »[1]، وهو بلا شك يعني النظر في القرآن، نظر القراءة والتدبّر والتفكّر، ومحاسـبة النفس على ضوء ما جاء فيه؛ مع أنّ الله تعالى قد أكرمه بدعاء النبي ﷺ له بالمغفرة وعلو الدرجة والمكانة في الأمة، وأن يُدخله مدخلاً كريماً، وثنائه ﷺ عليه، وإعجابه بما سمع من قراءته .

ومما جـاء عـن ابـن مسـعود رضي الله عنه أنّـه قـال: « أديمـوا النـظر في المصحف » [2].

ومما سـجّلته صفحـات التاريـخ المـشرق لهـذه الأمـة في التعامـل مـع القـرآن الكريـم كثـرة المشـتغلين بالقـرآن تعلّـماً وتعليـماً، وتوضيحـاً لمعانيه، وإظهاراً لفضائلـه، وحِكَمِه ؛ فمن هؤلاء الإمام القارئ العابد يحيى بن وثّاب الأسدي (ت١٠٣هـ) رحمة الله عليه[3]، إذ كان يفهم كتاب الله تعالى حق فهمه، ويعيش في ظلال آياته ومعانيه وأحكامه، ويحوّل فهمه وإجادة استنطاقه لمعانيه إلى منظومة متكاملة في التعامل مع النَّفس والخَلْق؛ فمما جاء في الأثر في تعامله

---

(١) مقدمـة تفسـير القرطبـي ١/ ٢٨، ومـن حرمتـه ألا يخلي يومـاً من أيامه مـن النظر في المصحف مرة. وقد روى البخاري في الصحيح في المغازي برقم (٤٠٦٨) دعاء النبي ﷺ له بذلك كله .

(٢) رواه الفريابي في فضائل القرآن ، ص ٢٢٩، باب النظر في المصحف، برقم (١٥٠)، وابن أبي شيبة في فضائل القرآن ١٠/ ٥٣٠، برقم (١٠٢٢٥).

(٣) ينظـر طبقـات ابـن سـعد ٦/ ٢٩٩، ومعرفة القـراء الكبار ١/ ٦٢- ٦٥، وسـير أعلام النبلاء ٤/ ٣٧٩-٣٨٢، ومرآة الجنان ١/ ٢١٤، وغاية النهاية ٢/ ٣٨٠ .

مع نفســه، وإعماله لآثـار القرآن الكريم فيها ، وتصحيح قربـه من ربّه، أنّه من أحسن الناس قراءة لكتاب الله تعالى، وكان يتعلّم آية آية، وإذا قرأ في الصلاة لم يحسّ أحد في المسجد حركة ، كأن ليس بالمسجد أحد، وإذا قضى الصلاة مكث ما شـاء الله، تُعرف فيه آثار الصلاة والصلة بالله تعالى؛ إذ لا يمكنه أن يتخلّص من حال ما تلبّس به أثناء الصلاة من الخشوع والانفعال في مواقف ذكر العذاب وأسبابه ومظاهر نزوله، والعقاب واستحقاقه، والرهبة وأسبابها وآثارها، وقرب لقائه تعالى والشوق إليه، وخوف الخاتمة، وحُسن الظن بالله الرحمن الرحيم .

أمّـا سـلوكه العام فقد كان لا يقبل الذلّ لنفسـه ، لكونـه من حملة القرآن ورعـاة أهله، ومن أهـل الإيمان ودعاة الإسـلام، وهو ما يعلّمـه للأجيال من بعده؛ فما ينبغي للمؤمن أن يُذلّ نفْسه فيتحمّل من البلاء ما لا يُطيق، وقد جاء في الأثر: « أنّ الحجاج أمير العراق ، لمّا رأى انتشار غير العرب في بلاد العرب، وظهور الخطأ في ألفاظ العامّة ، أصدر أمراً : أن لا يؤم بالكوفة إلا عربي ، وكان ابن وثّاب مولى لبني سـعد مـع كونه تابعياً جليل القدر ثقـة، وليس في الكوفة أقرأ منه، فقال له قومه : اعتزل !، وباشر يحيى برفع مظلمته إلى الحجاج ، فقال الحجـاج : مَـنْ هــذا ؟، قالوا : يحيى بن وثّـاب، قال: مـا لَــهُ ؟، قالوا: أمرتَ أن لا يـؤم الناس إلا عـربي، فنحّاه قومه!، فقال : ليس عن مثل هذا نهيت – لما يعرف من فضله وعلمه وشـغله بالقرآن- ؛ فأعاده ، وصلى بالناس يحيى ليوم واحد ، ثمّ قال لقومه: اطلبوا إماماً غيري!، إنّما أردتُ أن لا تسـتذلوني ، فإذا صـار الأمر إليّ ، فأنا لا أؤمّكـم ! » وليس أبلغ من هذا الموقف، ولا أعظم من هـذه الصفحات عزاً يسـطّرها التاريخ لتبيّن سـلوكهم رحمـة الله عليهم، وهم

يحفظون العزّة لأهل القرآن، ويعلمونها للأجيال اللاحقة بركبهم ، وإن تعددت أعراقهم، واختلفت مراحلهم الزمنية، وتنوّعت مستوياتهم الاجتماعية؛ فإنما أعملوا ثقتهم بالله تعالى ، وعلموا أن الناس تحتاج إلى سياسة تناسب عقولهم وعصورهم ومكانتهم، ولا شك أن الرشيد من اقتفى أثر أولئك القادة ، وبادر ليكون على هديهم في العزّة والثقة بالنفس بعد الثقة بالله عزّ وجل وحُسن الاتباع لرسوله ﷺ، وأن يتعلّم أنّ القرآن وحملته لفظاً ومعنى فوق المقاييس مهما تنكّر الناس لهم أو اختلّ نظام التعامل معهم ، ولاشك أنّ السّعيد مَنْ حرص على ختم حياته بالحُسنى ، وضَبَط سلوكه العام والخاص على ما كانوا عليه من الهدى والالتزام بتعاليم الشريعة، وأن هذه السمات لازمت الأجيال المتفاعلة مع القرآن الكريم، وستبقى في هدير دائم وإن اختلفت طبقاتها، وتعددت مسمياتها، وتحوّلت بعض مفاهيم حياتها في عصرنا ، أو تنوّعت مناهجها في التعامل مع القرآن، وسبلها في الإفادة منه ومن أثره فيها، وآثارها الظاهرة على المجتمع والأمة، ولكنها من حيث العموم مثّلت سمة الجيل الملازم للأئمة ؛ المحيط بما كانوا عليه رحمة الله عليهم، وصفحاتهم ستبقى صفحات مشرقة في تاريخ الأمة.

ولشدّة حرص السابقين على الانتفاع والنفع كانوا لا يترددون في السؤال عن العلم، والسعي الحثيث في البحث عن المعرفة، وعن أسرع الطرق قربة لله عزّ وجلّ، وأوثقها صلة به تعالى؛ فقد سُئل أبو عمرو الزجاجيّ رحمه الله: كيف الطريق إلى الله تعالى؟، فقال للسائل المتشوّق : « أبْشِرْ!

فشـوقُك إليـه أزعجك لطلب دليل يدلُّك عليه »[1]، فهم بلا شك يعالجون الوجدان وتبعاته كعلاج السـلوك الظاهـر وآثاره على الأبدان ؛ لما معهم من فضل كرامة علم القرآن وفهمه ونوره.

وفي التمسـك بكتـاب الله تعـالى وسـنّة رسـوله ﷺ، والعلـم والعمل بهما، وحُسـن الأدب، والصبر على المحن والأثرة؛ اكتملت هوية السابقين يرحمهـم الله تعالى، وتزوّدوا بعُدّة مواجهة العالم النافر من الحق، وتمكّنوا من نـشر الدين، والظهور بأسـمى رتـب الفضيلة والقيـادة الناجحة للمنظومة البشرية على مدى عقود، وتغنّت الأجيال بهم، وتفاعلت مع آثارهم، وجعلتها مناهج نظرية وتجريبية، وقواعد تأصيلية لتحقيق الفلاح ، وسـبلاً قويمة في الوصول إلى مرضاة الله تعالى ونعيم قربه، ولا شك أنّ بها تتجدد الشخصية المسلمة في كل عصر ومصر، ويتنوّر سبيلها في الوصول إلى معرفة الله تعالى، يقـول محمد بن الفضل البلخي (ت٣١٩هـ) رحمة الله عليه: « العلوم ثلاثة: علـمٌ بـالله، وعلمٌ من الله، وعلمٌ مـع الله ؛ فالعلم بالله تعـالى، معرفة صفاته ونُعوتـه ؛ والعلـم من الله تعالى، علـم الظاهر والباطن، والحـلال والحرام، والأمـر والنهـي في الأحكام؛ والعلـم مع الله تعالى، علم الخـوف والرجاء، والمحبّة والشوق »[2].

---

(١) طبقـات السـلمي ، ص ٤٣٣، وتنظـر سـيرته في حليـة الأوليـاء ١٠/ ٣٧٦، والمنتظم ٦/ ٣٩١ .

(٢) طبقـات السـلمي ، ص ٢١٥، وينظـر المنتظـم ٦/ ٢٣٩، ونتائـج الأفـكار القدسـية ١/ ١٥٥-١٥٧ .

ب) انبثاق المدارس لتعليم القرآن الكريم ، وحُسن تفهيمه :

لاشك أنّ من آثار القرآن الكريم في تنظيم سلوك الأمة انبعاث هذه الإشراقات، وورودها في تاريخ تعامل الأمة مع رسالة الله الخاتمة - القرآن الكريم- إذ توسَّع نفوذ الأُمّة بعد عهد النبوة ميدانياً وحضارياً وفكرياً، وشملت هذه التوسعة أسلوبها في التعامل مع القرآن الكريم وفهمه ، بناءً على متطلّبات أبنائها، وتطور مراحل بنائها، ومستجدات واقعها في التعايش مع غيرها ؛ فسلكت مناهج عدّة في فهم النصوص القرآنية الكريمة لم تَحِدْ في أصلها عن المنهج النبوي في التعامل مع النصوص؛ من حيث الفهم والتقريب للمعنى، وجمع الآيات ذات الموضوع الواحد في دائرة فهم واحد، وكذا في التعامل معها في ضوء مناسبتها، وفتح الآفاق أمام تجدد حلّها لمشكلات تشابه ما عالجته في عصرها، وهذه الاجتهادات هي في غالبها مستندة على تلك المرحلة ؛ مرحلة التنزيل، وظهور التحليل لِما أشكل على بعض الأولين، كالذي تولاه رسول الإسلام الخاتم ﷺ بالشرح والتوضيح.

ودرجت الأمة على معرفة مناهج الفهم والتفسير، وبيان معاني آيات القرآن الكريم، من خلال فقهها بالمسيرة الحافلة في التقديم والإنجاز لعلمائها، ولا سيما علماء الشريعة ؛ وابتدأ ذلك منذ الفهم الأول للصحابة في عصر النبي ﷺ إلى أن استقرّت المفاهيم في انبثاق المناهج المحررة أو المقررة، وتأسيس المدارس، أو ظهور آثارهما في العالمين العربي والإسلامي[1]، **ومن هذه المدارس**

---

(١) ينظر الإتقان ، للسيوطي ٢/ ١٢٢٧-١٢٣٥، والتفسير والمفسرون، للذهبي ١/ ١٠١-١١٥ . وتعريف الدارسين بمناهج المفسرين، للخالدي، ص٣٥- ٤٧ .

ذات الفهم المتميّز:

- **مدرسة التفسير بمكة المكرّمة**، والتي تأسست على يد ابن عباس رضي الله عنهما، وتبعه تلاميذه: مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وطاووس ابن كيسان، وعطاء بن أبي رباح، وجابر الأزدي وغيرهم، رحمة الله عليهم أجمعين.

- **ومدرسة المدينة النبوية المنوَّرة**، وقد أَسَّسها الصحابي الجليل أُبي بن كعب الأنصاري رضي الله عنه، ولحقه فيها أبو العالية رفيع الرياحي، ومحمد القرظي، وسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم وغيرهم، رحمة الله عليهم أجمعين.

- **ومدرسة الكوفة**؛ وقد أسسها الصحابي المفسِّر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولحقه في إقامة دعائمها علقمة النخعي، ومسروق الأجدع، وابن حُبيش، وأبو عبد الرحمن ابن حبيب السلمي، والأسود النخعي، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة السدوسي، وعبيد السلماني وغيرهم، رحمة الله عليهم أجمعين[1].

---

(١) ينظر التفسير والمفسرون، للذهبي ١/ ١١٨-١٢٧. وتعريف الدارسين بمناهج المفسرين، للخالدي، ص٣٧.

ت) تنوّع المناهج في فهم القرآن والتعامل معه:

اتسمتْ مراحل التأسيس بالإيجاز في إبداء معاني الآيات أو تفسير بعض مفرداتها ، في ضوء الحاجة إلى ذلك، فنهج السّابقون أسلوب التفسير بالمأثور المُعتمِد على تفسير الصحابة المستمد من أقوال الرسول الخاتم ﷺ وأفعاله وأحواله في فهم النصوص، وتطبيقها عملياً، ثم ما جاء عن صحابته رضي الله عنهم وتلامذتهم من التابعين، ثم ما أُثر في لغة العرب وأشعارهم مما يشرح بعض الاستعمالات في تعبير النص القرآني الكريم، ثم بما يتوصّل إليه - بعد معرفة المأثور وبيان ما في لغة العرب - من استنباطات وتأويلات مقبولة وفق المعايير العامة لدى المفسرين، وعلى هذا تطوّرت المدارس في الفهم، والتعامل مع الآثار، ولم تترك سبيل المؤسسين السابقين في فهم القرآن واستظهاره، وتعليم معانيه؛ بل كان الهدي في العلاقة مع النص القرآني فهماً وتدبّراً وتطبيقاً: أن يرجع المفسِّر إلى القرآن الكريم في بيانه لمعنى الآية؛ فإن وجد بغيته بالآيات الأخرى من خلال موضوعها ومعناها استند واكتفى، وإلا عاد إلى السنّة النبوية الصحيحة فإنّها الشارحة للقرآن، والموضّحة له؛ فقد قال ﷺ: « **ألا إني أُوتيتُ الكتاب ومثلَه معه** »[1].

ثم يلجأ إلى أقوال الصحابة - إن لم يقف على حديث معتمد من السنة الشريفة ينفعه في بابه - ؛ فإنّهم أدرى بالمعاني لِمَا شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصّوا بها، ولِمَا لهم من الفهم التّام والعلم الصحيح بالمعاني

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (برقم ٤٦٠٤)، وغيره، وهو صحيح.

القرآنية، فيعتمد على ما صحّ منها وما كان موافقاً لظاهر القرآن؛ فإن لم يتمكّن من بُغيته تحوّل إلى صحيح ما جاء عن التابعين؛ لأنّهم تتلمذوا على كبار الصحابة في التفسير.

ويستند إلى اللغة العربية لمعرفة بلاغة النصوص، ومعاني الكلمات، والاشتقاقات والتصريفات ليُحْسِن فهم القرآن وتفسيره، وكما قال الإمام مالك (ت١٧٩هـ) رحمة الله عليه: « لا أُوتى برجل غيرِ عالمٍ بلغة العرب يُفَسِّر كتاب الله، إلا جعلْتُهُ نَكالاً »[١].

ومع العلم بما تقدّم، والتطبيق له، واستحضارهما يمكن للفرد أن يُعمِل عقله وفكره الاستنباطي في فهم النصوص، والوصول إلى أقرب معنى يراد بها، أو يتضح له منها، وهذا ما انتهجته الأُمّة في التعامل مع القرآن الكريم، وما جاء في هذا الكتاب من صفحات مشرقة، وكلمات منوّرة من أقوال رجالها وتعاملهم ومناهجهم، وإرشاداتهم، وحثّهم الأجيال المسلمة على التربية للأرواح، والتزكية للنفوس، والمراقبة للأعمال والأقوال والأحوال، وتوعيتهم بالمعرفة المبنيّة على الفهم والتطبيق الصحيح لكتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ؛ فيه من كل ما تقدّم التنبيه عليه من مناهجهم ومدارسهم في التعامل مع النص القرآني الكريم، قراءة وفهماً وعملاً[٢].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٤٢٥، برقم (٢٢٨٧)، فصل في ترك التفسير بالظن، وذكره السيوطي في الإتقان ٤/ ٢٠٩، برقم (٦٣٠٣)، فصل في أمهات مآخذ التفسير.

(٢) تنظر مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، تحقيق عدنان زرزور، ص ٩٣-٩٥. هذا.. ومما تجدر الإشارة إليه هنا: أن الإمام السيوطي في الإتقان ٢/ ١٢١٢ تحدّث =

وممّـا لا شـك فيه أن دين الإسـلام أتاح لجميع أهل العلم من المسـلمين وغيرهـم حرية الحركـة الذهنية، والتأملية، والاسـتنباطية، بناءً على توجيهات القـرآن الكريـم ودعواتـه إلى التفكّر والتدبّـر والنظر، وكذلك على مـا أُثر عنه ﷺ من الإقرار لمحاولات الأجيال الأولى من المسلمين في فهم مراد الله تعالى، واجتهاداتهم في تلك المرحلة، ثم على الذخيرة اللغوية، ثمّ على الآثار السلوكية الخُلُقيّة المسـتفادة من منهج سـيِّد البريّة ﷺ في التعامل مع الحق والخلق؛ وبهذا كلّـه تطـوّر البناء، وعَظُـم وتوسّـع معتمداً على الأصـول والثوابـت في العلم والأخلاق والتربية والسـلوك، والتي تستند في تأسيس بنيانها على هدي سيدنا محمد ﷺ، وبما حظيت به من العناية والرعاية والاسـتنباط من أئمة المسـلمين علمائهـم وقادتهم وأمرائهم من بعـده، واحتضنها جمهور الأمة من المسـلمين؛ والمؤمنـين بالقبـول والامتثال، وتنافسـت أجيـال الأمـة في تحقيـق مضامينها،

= عن صفات المفسر وآدابه ، وسمّاها علم الموهبة ، وعرّفه بأنّه علم يورثه الله لمن عملَ بما عَلِم، وقال: (لعلك تستشكل علمَ الموهبة ، وتقول: هذا شيء ليس في قدرة الإنسان! وليـس الأمـر كما ظننـتَ من الإشـكال، وطريقُ تحصيلـه ارتكاب الأسـباب الموجبة له، والعمـل والزهـد. قال في البرهان: اعلـم أنّه لا يحصُـل للناظر في فهـم معاني الوحي ، ولا تظهر له أسرارهُ، وفي قلبه بدعةٌ أو كِبْـرٌ أو هوى، أو حبّ الدنـيا، أو هو مُصرٌّ على ذنْب، أو غـير متحقـق بالإيـمان، أو ضعيف التحقيـق، أو يعتمد على قول مفسّر ليس عنده علم، أو راجعٌ إلى معقوله، وهذه كلّها حجبٌ وموانع بعضها آكد من بعض! ، وأضاف السـيوطي – بعـد نقلـه لمقولة الزركـشي في البرهان– قلـت: وفي هذا المعنـى قوله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (١٤٦) سـورة الأعـراف . قـال سفيان بن عيينة : المعنى: أنزع عنهم فَهْمَ القرآن) .

وتسارعت إلى إنجازها، والإفادة منها في شتى مراحل حياتهم، والتزود من معارفها لآخرتهم .

ث) تهيئة الأجيال وتأهيلها للتعامل مع القرآن الكريم :

نَهَجَ علماء الأُمّة رحمة الله عليهم في تهذيب النفوس، وتحقيق معرفة الله تعالى، منهجَ العلم اليقيني بكتاب الله سبحانه ومضامينه، وسنة رسوله ﷺ وشخصه، والفقه في الدين، وبكل ما يوصل إلى الكينونة من أهله، ثم حوّلوا هذا الفهم والعلم إلى تطبيق وعمل بمنهج واضح وسلوك قويم، قال رجل للإمام أبي جعفر القارئ ، يزيد بن القعقاع المدني (ت ١٢٧هـ) رحمة الله عليه، وكان الرجل فقيهاً في دينه: هنيئاً لك ما أتاك من القرآن ، فقال أبو جعفر: « ذاك إذا أحللتُ حلاله، وحرّمتُ حرامه، وعملتُ بما فيه »[١] .

فلينظر المسلم في هذه الكلمات المشرقة، كيف تُعلّم المنهج الحقّ في التعامل مع القرآن، وأنّ الإنسان، ولا سيما المسلم إنّما يهنأ بما يُرزق من العمل إذا وافق أوامر الله تعالى، وتجنّب في أسبابه وحيثياته وآثاره ما يغضب الله تعالى عليه، وكذلك إذا جعل مراقبة الله تعالى حاضرة في كل حركة من حركاته بل وحتى في سكونه ، وحوّل هذه المراقبة إلى منهج يلتزم به في سائر معاملاته وعباداته .

وممّا جاء في الأثر أن ابن القعقاع رحمه الله قد أُمر أن يقف خلف القراء في

---

(١) مشاهير علماء الأمصار ص ٧٦، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٧٢-٧٦، وغاية النهاية ٢/ ٣٨٢-٣٨٤، وشذرات الذهب ١/ ١٧٦ .

رمضان يُلقّنهم، وقد قال فيه مالك ابن أنس (ت ١٧٩ هـ) رحمة الله عليه : كان أبـو جعفر رجـلاً صالحاً يُفتي الناس بالمدينة، وإذا مرَّ سـائل وهو يصلي بالليل دعاه، فيسـتتر منـه، ثمّ يُلقي إليه إزاره. وهذه كلّها من آثار قول الحق سـبحانه وتعـالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ [١]، ولم يقف الأمر عند هذا السـلوك، بل كان من منهجه رحمـه الله تعليم الأجيـال اللذّة في مناجاة الله تعالى ، والاسـتلذاذ بخطابه، فقد كان يقرأ القرآن بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه يحزّنها شبَه الرّثاء [٢].

وظهـرت كرامـة القرآن والعيش في ظلال آياتـه ومعانيه في واقع حياة أبي جعفر القارئ رحمة الله عليه وفي وفاته؛ فقد قال شيبة – زوج ابنته – عند وفاته: ألا أُريكـم منه عجباً ، قالوا : بلى ، فكشـف عن صـدره، فإذا دوّارة بيضاء مثل اللبن؛ فقال أبو حازم وأصحابه: هذا والله نور القرآن . قال سليمان بن مسلم : فقالت لي أم ولده بعدما مات : صار ذلك البياض غرّة بين عينيه .

وروى نافـع المـدني، قال: لـمّا غُسّـل أبـو جعفر المدني القـارئ ، نظروا ما بـين نحره إلى فؤاده مثل ورقة المصحف، فما شـكَّ مَنْ حـضَرَهُ أنّه نور القرآن، رحمـة الله عليـه . وهذا من جلي أثر القرآن الكريـم على القلب والأبدان بعد أن تنعّمـت به الأرواح وفاضت أنواره على الملأ والأوطان، وتناقلته الأجيال على اختلاف المكان والزمان.

وفي ضرورة تعلّم العلم قبل الإقدام على العمل، وسـلوك سـبيل السّابقين

(١) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(٢) وهذا النوع من القراءة درج عليه أهل العراق إلى يومنا هذا .

في تعاملهـم مع القرآن وأصول الشريعة ؛ وحرصهم على التعلّم ، ثم انطلاقهم نحو تطبيق ما تعلموه، وبذل الجهد في الأداء والأداء المتميّز على بصيرة ؛ ليكون ذلـك أصدق في حالهم، وأنفع في واقعهم ومَنْ حولهم، ولتتفتق الأذهان بمعاني ما كانوا عليه من الحقائق والطرائق في فهم القرآن وخدمة الإسلام، وليُنتفع بما سـجّله التاريخ من صفحات مضيئة في سـيرة أولئك الرّجال ، والسَّادة القادة الدعـاة ؛ يقول الـسّريّ (ت٢٥٣هـ) رحمة الله عليه، واصفاً السـبيل الصحيح في الوصول إلى النجاة والنجاح في ذلك: « إذا ابتدأ الإنسـان بالنُّسُـك ثم كتب الحديث فَتَرَ، وإذا ابتدأ بكَتْبِ الحديث، ثم تنسَّكَ نَفَذَ »[1].

وقد قال أبو إسـحاق إبراهيم بن شـيبان القرميسـيني(ت٣٣٧هـ)، لابنه إسـحاق رحمهـما الله تعـالى: « يابنـي ! تعلَّـم العلـمَ لآداب الظاهر، واسـتعمل الورعَ لآداب الباطن، وإيَّاك أن يشـغلك عن الله شاغل، فقَلَّ مَنْ أعرض عنه، فأقبلَ عليه! »[2].

ثـم إن فهمهـم لمـراد الله تعـالى، والتزامهم منهـج رسـوله ﷺ في إنفاذ ما

(١) طبقـات السّـلمي، ص ٥٥. وانظـر حليـة الأوليـاء ١٠/ ١١٦-١٢٦، وتاريـخ بغـداد ٩/ ١٨٧-١٨٩، برقم (٤٧٦٩)، وسيـر أعلام النـبلاء ١٢/ ١٨٥، برقـم(٦٥)، وشذرات الذهـب ٢/ ١٢٧. وروى البيهقي في شُـعب الإيمان ٢/ ٣٠٣، برقم(١٨٧٣) أن السّري رحمه الله قال: (من تعبّد و كتب خشيتُ عليه و مَنْ كتبَ ثمّ تعبّد رجوتُ له) .

(٢) طبقـات السّـلمي، ص ٤٠٢- ٤٠٥. وانظـر حليـة الأوليـاء ١٠/ ٣٦١، الانسـاب : ١٠/ ١١٠، المنتظم: ٦/ ٣٩٠ - ٣٩١، وسـيـر أعلام النـبـلاء١٥/ ٣٩٢، برقم (٢١٦)، العبر: ٢/ ٢٤٤ - ٢٤٥، الوافي بالوفيات: ٦/ ٢٠، مرآة الجنان: ٢/ ٣٢٥، البداية والنهاية: ١١/ ٢٣٤، طبقات الاولياء: ٢١ - ٢٣ ، وشذرات الذهب ٢/ ٣٤٤.

أراده الرَّب سبحانه ؛ لَيُعطي الأجيال تبريراً وتنويراً لحالة الصلاح التي كانت سائدة في مجتمعات الأوائل، وبياناً لأسباب النهوض الحضاري العام في تلك المراحل، الذي شمل منظومة الأمة وأبناءها وأمصارها، وهو في الوقت نفسه يمنح الجيل الحاضر واللاحق الثقة في الاعتماد على منهجهم، لاسيما في عبور الأزمات النفسية، والأُسرية، والمجتمعية، والأمية، والقِيميّة، والحضارية التنافسية، ويقرّب تحقيق الازدهار، أو السّير في طريق تحقيقه، على أن كثيراً من المنظّرين والمربِّيْن يرون تحقيق هذا بعيد المنال بالنسبة لمجتمعاتنا وأبنائنا، بل يراه بعضهم مستحيلاً، لا يمكن تحصّله في أيامنا، بالمقارنة بيننا وبين السابقين، وأحوالهم وأفعالهم مع الله والخلْق، وما كانوا عليه من صدق الظاهر وسلامة الباطن، وما نحن عليه من حال التأخّر الروحي، والانشغال المعيشي، لاسيما بما تكفّل الله تعالى به للمسلمين وأمة العرب، من الرّزق والتيسير والتدبير !، أو من خلال المقارنة بالأمم الأخرى وما توصّلت إليه؛ من الحضارة والرُّقي، والتقدّم في نواحي الحياة العلمية والعملية، وتمكّنها من سبل استخدام الطاقات البشرية والطبيعية من أجل الإنسانية، أو من أجل المصالح الذاتية والمؤسساتية والدولية والإقليمية، فلم يبق أمام أبناء هذا الجيل من خلال التدقيق في المعادلات الكونية، ودورة الأيام، وتداول السنن من سبيل لتصحيح مسارهم، والوصول إلى غلبة كفّتهم ، ومواجهة عوالم التخلّف والضياع؛ إلا العمل على رجاحة الجوانب الإيمانية، والعودة إلى منهج المؤمنين السّابقين، الذين نهض بهم الإيمان إلى العلم والعمل؛ فوصلوا إلى قمة الدنيا، ولذة مباركة الله تعالى لهم ورعايته، وعنايته، ومعيّته، وتأييده، ورضوانه، وتحقيق مكاسب الآخرة والثواب على سعيها ، وذلك هو الفوز المبين.

والأمـة وأجيالها اليـوم بحاجـة عظيمـة إلى مَنْ يأخـذ بيدهـا إلى الطريق الصحيح؛ طريق العلم والعمل والأخلاق والإخلاص؛ طريق الأمل والعمل المبني على اليقين بموعود الله تعالى، بعد أن تفرّعت الطرق، وكثُرت العناوين، وأُثقلـت الأمـة بالدعـاوى العريضـة، والأضاليـل والأباطيـل، التـي منها ما هـو منحـرف السـلوك، وما هو أعمى الفـؤاد؛ بين تفريط ولـين يصل إلى حد السيلان، وإفراط في النفور والتنفير يصل بأهله إلى ما هو جاف بلقع ، وكلّها من مظاهر اقتراب الزمان،وزيادتها بزيادة الهرج والمرج، وكثرة البدع، وتحكيم الآراء والأهواء، وتحكّمها بمصير الأمة ومستقبل أبنائها، وتفشي ثقافة البدع، والتهاون بكل ما هو عظيم في الرّتبة والحكم أو الوقوع بما أسماه أهل الضلال بالفـوضى الخلاقـة، وقد سئـل أبـو حفص النيسـابوري رحمـه الله تـعالى: ما البِـدْعَـةُ ؟، فقـال: « التعـدي في الأحـكام، والتهاون بالسُّـنَن، واتبـاع الآراء والأهـواء، وتـرك الاقتداء والاتِّـبـاع » ، وهو القائل : « المعـاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت » [1].

***

---

(١) طبقـات السّـلمي، ص ١١٥-١٢٢ . وانظـر حليـة الأوليـاء ١٠/ ٢٢٩-٢٣٠، وصفـة الصفـوة ٤/ ٩٨-٩٩، وسيـر أعلام النـبـلاء ١٢/ ٥١٠ ، برقـم (١٩٠)، ومرآة الجنان ٢/ ١٧٩، وشذرات الذهب ٢/ ١٥٠.



المحور الثاني

أثر الفهم الصحيح لتعاليم القرآن الكريم في السّلوك العام

المحور الثاني

أثر الفهم الصحيح لتعاليم القرآن الكريم

في السّلوك العام

من حيث:

أ- الالتزام بما جاء عن النبي ﷺ، واعتبار الكتاب والسُّنّة المرجع الرئيس في الحياة.

ب- تقديم النصيحة لأهل القرآن الكريم وعموم المسلمين .

ت- الاستقامة، وموافقة الظاهر للباطن، وحفظ الأدب مع الخَلْق .

ث- ملازمة الأُسس الصحيحة التي عليها قِوام العبادات والمعاملات.

ج- الاستعانة بالصبر على طريق المعرفة وفهم القرآن الكريم.

***

يتضح من خلال سِير السَّلف الصالح رحمة الله عليهم، ووعيهم في فهم دين الله تعالى، وتعاملهم مع روح عصرهم، وتوجيهم الأجيال على أساس الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى، والمنهج السليم في التعامل مع آياته؛ أن التاريخ سجّل دروساً كثيرة في سِيَرهم، وعِبَراً عظيمة تجسِّد واقع حال السّابقين المهديين في التعامل مع النّفس والخلق وعبادة الله تعالى، وصولاً إلى

اليقين بدينه عزّ وجلّ ، وهدي رسـوله ﷺ، وبلـوغ المعرفة بالله عزَّ وجلَّ التي تجعل الإنســان في رقابة دائمة، ولا سـيما في توجهاته الفكرية، وسـلوكه القلبي والذهني والعملي.

ولا شـك أن تزكية الأرواح والأبدان واسـتقامتهما تحتاج إلى فهم صحيح لمراد الله تعالى وسلوك رسوله ﷺ،وأن التعمّق في دراسة أحوال وسلوك النبي الكريم تمنح المسـلم طاقات إيمانية ، وتبعثه على الاتباع ، والتأسي بمنهجه ﷺ في التعامـل مع الروح أو البـدن ، ولِـما للتزكية من أثر إيجابي وعظيم على الفرد والمجتمع؛ فقد كانت من أهم واجبات النبي الكريـم ﷺ تجاه أمّته، وهي تتقدّم عـلى تعليمه إياها الكتاب والحكمة، قـال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1] .

وهـي في الوقـت نفسـه من عظيـم المنن الإلهية عـلى المؤمنـين ؛ إذ هيأ لهم سـبحانه مَنْ يسـمو بأرواحهم وينقّي أبدانهم، لتظهر آثار بركة اسمه القدوس جـلّ جلالـه عليهم، قـال تعـالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

ولا شك أن ذلك تحقيق لرغبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ودعائهما

(١) سورة الجمعة، الآية ٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

وقولهـا: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[١] .

وظهـر في السّـلف والأمـة أثـر هـذه التزكية ؛ فمـن ذلك ما جـاء في ذِكر التابعي الكبير عاصم بن أبي النجود الكوفي (ت ١٢٨هـ) رحمة الله عليه[٢]؛ إذ كان صاحب سـنّة وقراءة، ورأسـاً في القرآن، نحوياً فصيحاً إذا تكلّم . قال فيه الإمـام أحمـد بن حنبل : « رجل صالح خيّر ثقـة ». وكان إذا صلّى ينتصِب كأنه عود، ويلازم المسـجد يوم الجمعة إلى العصر، عابداً خيّراً أبداً يصلي، وربما أتى حاجـة، فإذا رأى مسـجداً، قال لـمَنْ معه: مِلْ بنا، فـإن حاجتنا لا تفوت ، ثم يدخل فيُصلي.

وكان لفضل ما جمعه من علم القرآن والعمل به ؛ أنّه على سجيّة رسول الله ﷺ وسـنته في التعامل مع الناس، ولاسيما في ضبط النَّفس، والصّفح الجميل، وتحمّل الأذى؛ فقد حدّث أبو بكر بن عياش رحمه الله : « أنّ إمام القراء عاصم ابـن أبي النجود قد ابتلاه الله تعالى بفقد بصره فصبر، وقد جاء رجل يوماً يقود عاصماً ، فوقع وقعة شديدة ، فما كَهَرَهُ – أي انتهره – ولا قال شيئاً ». ولاشك

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٩ . هذا وقد ألمح إلى مثل هذه الفضائل سماحة الدكتور عيادة بن أيوب الكبيسي حفظه الله في كتابه (دعائم السلوك الأمثل من الكتاب والسُّنّة)، ومنها قضية الجمع بين التزكية والعلم (ص ٦٦–٦٧) ، وضرورة العناية بهما من خلال اختيار الأسـاتذة المراعين لهذه الطريقة في التدريس، الجامعين بين الكفاءة والخُلُق والاستقامة، ونبّـه إلى ضرورة حذو القائمين على شـؤون التربيـة والتعليم ذلك في اختياراتهم؛ لما له من أثر ملموس في حياة التلاميذ وسلوكهم العام والخاص،فانظره.

(٢) ينظـر مشـاهير علماء الأمصـار ، ص ١٦٥ ، ومعرفة القرآء الكبـار ١/ ٨٨، برقم(٣٥)، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٢٥٦–٢٦١ ، وشذرات الذهب ١/ ١٧٥ .

أنّ هذا السلوك ، وهذه الأخلاق العالية إنما تنبع من فهم صحيح لآلية التعامل مع الناس، وكيفية التلطف بهم، والتسليم لما قدّره الله تعالى وقضاه في النفس، وكله مما جاء الحثّ عليه في القرآن الكريم، والترغيب بدرجاته عند الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] .

ومن هذه الدروس المبنيّة على الفهم الصحيح لتعاليم القرآن وما جاء عليه مدار أغلب آياته؛ ما جاء عن سهل بن عبد الله التستري (ت٢٨٣هـ) يرحمه الله[2]، أنه قال: « التوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنّته، فمَنْ بقي على حاله فلا يتركنّ سنَّته، ومَنْ طَعَن في الحركة فقد طعن في السّنَّة، ومَنْ طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان »[3].

وهذا الفهم متواتر بين السّابقين ، وهو منهج حياة عندهم؛ يعيشون في كنفه، ويستظلون في ظلاله الوارفة، وينعمون ببركاته.

وعلى المسلم الباحث عن المنهج الحق، وهو منهج أولئك الصّادقين السابقين في التوكل على الله تعالى: أن لا يظهَر فيه انزعاج لما يُقدّره الله عليه، أو رغبة جامحة إلى الأسباب مع شدّة فاقته إليها، ولا يزول عن حقيقة السكون إلى الحق تعالى مع وقوفه على الأسباب.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٤ .

(٢) تنظر سيرته وأخباره وأقواله في حلية العلماء ١٠/ ١٨٩ ، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٠- ٣٣٣ ، برقم (١٥٣).

(٣) الرسالة القشيرية، ص ١٦٦-١٦٧ .

إنّ هـذا الـدَّرس – وغـيره كثير – يُعلّم الأمـة وخَلْفَ أولئـك الأئمة: أن الفهم لرسالات الله تعالى إنما يتأتى باليقين بما جاء فيها، واليقين بمآل من التزم فيها، وكذلك بمصير مَنْ خالفها أو حيّدها ، ويستحضر نجاح مَنْ فعّل دورها في الحياة، وفلاح من حكّمها في الظاهر والباطن، وبأسباب سلب هذا النجاح أو الفلاح ممن أصرّ على مخالفتها، ومات على ذلك.

كـما إن الفهم الصحيح للقرآن الكريم، وما جاء فيه من البرهان والحكمة هو الذي يبعث صاحبه على استثمار الدنيا والآخرة معاً ؛ فلا يضيّع العاقل الدنيا بدعوى طلب الآخرة، ولا الآخرة لانشغاله بالدنيا؛ بل يكون من الخِيار الذين يجمعون بين سـعادتي الدنيا والآخرة؛ ولا شـك أنّ خيار هذه الأمّة هم الذيـن لا تَـشْـغَلُهُم آخرتـهـم عن دنيـاهـم، ولا دُنـيَـاهُمْ عـن آخرَتـهِم ؛ بل حققوا الموازنـة بين عمـلي الدنيا والآخرة ، وحرثوا الدنيا بالقربات والمبّرات وحُسـن الاسـتخلاف والعمارة المستقيمة التي على المحجّة البيضاء؛ تمهيداً لقطف الثمار الحميـدة في الآخـرة بتحقيـق عفو الله ورضوانـه، ورفعة الدرجـات والأمن ، وحُسن النُّزل بالغُرفات في رتب أهل الجنة والنعيم المقيم، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾[1] .

وعاشـت أجيـال أمتنا الصالحة رحمـة الله تعالى عليهم مع القـرآن الكريم غالـب حياتهـم، وصحبـوه في الحـضر والسـفر، وحكّمـوه عـلى الأفـكار والأقـوال والأفعال والأحوال، وتنعّمـوا ببركاته، وانتهلوا من فيوض أنواره،

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٥٨.

وتذوقـوا لـذة معارفه، وفهموا حِكَـمَ علومه؛ روى أبو عبد الرحمن السـلمي، بسـنده إلى شـقيق البلخي رحمة الله عليهما، أنه قال: « عملتُ في القرآن عشرين سـنة، حتى ميَّزتُ الدنيا مـن الآخرة؛ فأصَبْتُهُ في حرفين، وهـو قولُ الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1]»[2].

وقـد ورد نـص آخـر في القرآن الكريـم، يوضِّح أن الخـير الممنوح من الله تعـالى، والبقاء الأبدي، إنما هما للمؤمنـين المتوكلين على الله عزّ وجلّ؛ إذ يقول سـبحانه: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[3].

ولـكل مـا تقـدّم وغـيره تتضـح ضرورة أن يبـدأ المربـون والموجّهون بإصلاح منظومة السـلوك الذاتي، وتهذيـب الأرواح والأبدان، ثم الانتقال بعدهـا إلى مرحلـة التعليم؛ فالابتـداء بالتخليـة من الأكـدار والأوزار، ثم الانتقـال إلى التحليـة بما في الكتاب والسُّـنة من المعـاني والمفاهيم والحكمة، كل ذلـك مما يثمر أسسـاً صحيحـة، ويبني بناء قوياً لـه تأثيره الإيجابي على الأمة ومسيرتها الحضارية .

ويتضح أثر الفهم الصحيح لتعاليم القرآن في السلوك العام من خلال:

---

(١) سورة القصص، الآية ٦٠.

(٢) طبقـات السـلمي، ص٦٤، وتنظـر حلية الأوليـاء ٨/ ٥٨، وصفـة الصفوة ٤/ ١٣٣، ووفيات الأعيان ١/ ٢٨٣، ومرآة الجنان ١/ ٤٤٥ ، وشذرات الذهب ١/ ٣٤١ .

(٣) سورة الشورى، الآية ٣٦.

أ) الالتزام بما جاء عن النبي ﷺ ، واعتبار الكتاب والسُّـنّـة المرجع الرئيس في الحياة :

امتلأت أسـفار تاريخ أمتينا العربية والإسلامية بصفحات منوّرة، تدل على عظيم التزام الأولين رحمة الله عليهم أجمعين بما جاء عن الرّسـول الخاتم ﷺ، ومتـابعتـهـم لسـنَّته؛ مـن ذلك مـا يُـحَـدِّث بـه أبو يزيـد طيفور ابن عيسـى البسـطامي (ت٢٦١هـ) رحمه الله عن نفْسِـهِ فيقول: « لقد هممت أن أسـأل الله تـعالى أن يكفيـنـــي مؤونـة الأكل، ومؤونـة النـسـاء، ثم قلت- أي مُحدِّثـاً نـفسَـه -: كيــف يجوز لي أن أســأل الله تعالى هذا ، ولم يـسـأله رسول الله ﷺ ؟! فلم أسأله »[1].

فتنبّه يا رعاك الله إلى ضرورة أن تُقدّم النيّة الحسـنة في الحركة والسـكون، ويكـون سـلوكك في القـول والفعل وتزكية الروح والجسـد كـما أُثر عنه ﷺ ، وأن تحرص في متابعته العامّة والخاصّة على تحقيق غاية عظمى، ومنزلة أسـمى ألا وهـي تحقيـق حبّ الله الملك القدّوس جلّ جلاله ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

وكذلك فقد ظهر واستفاض في تاريخ الأمة المسلمة المشرق ؛ كون الكتاب والسُّـنّـة المرجع الرئيس في الحياة في سائر عهودها، وهذا ما نلحظه في عصرنا أيضـاً في بعـض أمصارها، وفي حيـاة أبنائها المخلصين، لا سـيما وهم يحرصون عـلى مرجعية الكتاب والسـنة، في الحُكْم عـلى الأقوال والأفعـال والأحوال ؛

---

(١) الرسالة القشيرية، ص ٣٩٦ .

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣١.

يقول أبو سـليمان الداراني(ت٢١٥هـ) يرحمه الله: « ربما تَقَعُ في قلبي النّكْتَةُ من نكت القوم – أي أهل العلم والعمل، أهل التربية والتزكية وتهذيب النفوس، السـائرين في طريق معرفة الله تعالى– أيـاماً، فلا أقْـبَلُ شيئاً منـها إلا بشاهدين عدلين: الكتـاب والسُّنّـَة »[1].

ويقـول الإمـام، المُحـدِّثُ، أَبُو عُثْـمَانَ سَـعِيْدُ بنُ إِسْـمَاعِيْلَ النَّيْسَـابُوْرِيُّ، الحِيْرِيُّ : « مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلاً وَفِعْلاً، نَطَقَ بِالحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَّرَ الهَوَى عَلَى نَفْسِهِ، نَطَقَ بِالبِدْعَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾[2] »[3].

وفي الإرشـاد إلى أنّ مَنْ التزم هدي النبي ﷺ فقد سـلك طريق الخيرات، وأنّ التمسك بسلوكه ﷺ يعود على صاحبه بالبركات؛ يقول أبو القاسم الجنيد البغدادي (ت ٢٩٧هـ)رحمة الله عليه : « الطُّرُقُ كُلُّها مسـدودةٌ على الخَلْقِ، إلا مَنْ اقتَفَى أَثَرَ الرسول ﷺ، واتَّبَعَ سُنَّتَهُ، ولَزِمَ طَرِيْقَتَهُ؛ فإنَّ طُرُقَ الخيْرات كلّها مفتوحـةٌ عليْـه ، كما قـال تعـالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[4] »[5].

---

(١) طبقـات السـلمي، ص ٧٨. وانظـر حليـة الأوليـاء ٩/ ٢٥٤–٢٨٠، تاريـخ بغـداد ١٠/ ٢٤٨–٢٥٠، وصفـة الصفـوة ٤/ ٢٢٩، وسـير أعـلام النبـلاء ١٠/ ١٨٢–١٨٦، برقـم(٣٤)، والبدايـة والنهايـة ١٠/ ٢٥٥، وبصائر ذوي التمييـز في لطائف الكتاب العزيز ، (بصيرة في علم) ١/ ١١٣٥ ، ومفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنة ١/ ٧١ .

(٢) سورة النور، من الآية ٥٤.

(٣) سـير أعلام النبـلاء ١٤/ ٦٤ . وأعقبها صاحب السِّـير بقوله: قُلْتُ: وَقَـالَ تَعَالَى:(وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ) سورة ص، من الآية ٢٦.

(٤) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

(٥) طبقـات السـلمي، ص ١٥٩. وانظـر حليـة الأوليـاء ١٠/ ٢٥٥–٢٨٧، والفقيـه =

وفي الفهـم المنضبـط الواعي بفحوى الأصـول من النصـوص الكريمة، ونتائج محاورها، وارتباط أهدافها، يقول أبو يزيد البسطامي (ت٢٦١هـ)رحمه الله تعـالى: « السُّــنّة تـركُ الدنيـا - أي نـزع حبها مـن القلب، وتـرك التعلّق بزخارفهـا -، والفريضـة الصحبـة مع المـولى؛ لأنّ السُّـنّة كلّها تـدلُّ على تركِ الدنيـا، والكتاب كلّه يـدلُ على صحبة المولى. فمَنْ تعلَّمَ السـنَّةَ والفريضةَ فقد كَمُل »[1]، أي فَـمَنْ ترك الدنيا إلا لحاجته، وصحب المولى مسـتحضراً شهوده وعظمتـه ومراقبتـه، وتهيأ للقائـه ، فقد كملت عدّته، وكمـل في اتباعه، وكمل تقديمـه لظاهر واجب العبودية ؛ فكان مع الله تعالى في الحركات والسّـكنات، يعالجهـا وفـق هدي رسـول الله ﷺ، ولا يحيد بذلك عن الإحسـان أبـداً ، بما نـال مـن وصفه، فـإن لم يحقق السّـاعي إلى ربّـه ، الزاهد في الدنيـا، المصاحب

= والمتفقـه ١/ ٢١٩، برقـم (٤٠١) ، تاريـخ بغـداد ٧/ ٢٤١، برقم (٣٧٣٩)، والرسـالة القشـيرية ، ص ٤٣٠-٤٣١، وتلبيـس إبليـس (في البدعـة) ، وسـير أعـلام النبـلاء ١٤/ ٦٧-٧٠، برقم(٣٤)، والأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع، ص ٥٣ ، (ما جاء عن السلف في الأمر بالاتباع).

وجاء في حلية الأولياء ١٠/ ٢٥٥ أنّه رحمة الله عليه حثّ على ضرورة اعتماد المعتقد على الكتاب والسنّة، فقال : (كل توحيد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو زندقة) .

وفي جامـع المسـائل لابـن تيميـة ٤/ ٥٧ : (وقال الجنيد بـن محمد : عِلْمُنـا هذا مقيّد بالكتـاب والسُّـنّة، فمـن لم يقرأ القـرآن ويكتب الحديـث، لا يصلحُ لـه أن يتكلّم في عِلْمِنا).

وفي سـير أعـلام النبـلاء ١٤/ ٦٨ أنّه رحمـة الله عليه قـال: (عِلْمُنَا مَضْبُـوطٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَنْ لَمْ يَحْفَظِ الكِتَابَ وَيَكْتُبِ الحَدِيْثَ وَلَمْ يَتَفَقَّهْ، لاَ يُقْتَدَى بِهِ).

(١) طبقـات السّـلمي ، ص ٧٤، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٣، وسـير أعـلام النبلاء ١٣/ ٨٦ ، برقم(٤٩) ، وشذرات الذهب ٢/ ١٤٣ .

لتعاليم الله ورسـوله شـعور المراقبة في نفسه، أو لم يصل إلى نعمة رؤية الله تعالى رقيباً عليه في أداء ما أراده منه ، فليعلم أنه عزّ وجلّ يراه ويعلم سرّه وما خفي منـه فيه ، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[1] وقال عزّ وجـلّ : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2] ، وهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[3] .

***

ب) تقديم النصيحة لأهل القرآن الكريم وعموم المسلمين:

لقـد أشرقـت نصائـح أهل القـرآن على الأمّـة من خـلال تعاملهم معه، ووقوفهم المتأمّل لآياته، وحثّهم لأهله وسائر أبناء الأمة على العيش والتعايش في ظلال آياته الوارفة، وتذوّق معانيه ، والانضواء في كنف منهجه، والانطلاق في طلب العلياء، وعلى وفق ما جاء فيه من الإرشاد والحِكَم.

وتحرّوا في ذلك كلّه أن يكون الجميع على قدم الاتباع في الأقوال والأفعال والأحوال والأخلاق، يقول أبو الحسن أحمد بن ميمون الدمشقي (ت ٢٣٠هـ) رحمـة الله عليـه: « إنّي لأقرأ القـرآن، فأنظر في آية، فيحَارُ عقـلي فيها، وأعجب مِنْ حفّاظ القرآن!! كيف يَهنيْهُم النومُ، ويَسَـعُهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا،

(١) سورة طه ، الآية ٧ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٦ .

(٣) سورة غافر ، الآية ١٩ .

وهم يتلون كلام الرحمن؟!! أمَا لو فَهِموا ما يتْلون، وعَرَفوا حقَّهُ، وتلذَّذوا به، واسْتَحْلَوا المناجاةَ بـه، لذهبَ عنهم النَّوْمُ، فَرَحَاً بما رُزِقُـوا وَوُفِّقُوا »[1]، وهو القائل: « مَنْ عَمِلَ بلا اتباع السُّنَّة فباطلٌ عملُه ».

* وفي تقديـم النصيحـة لعموم المسـلمين ، سـجّل التاريـخ أن النّصيحة والتناصـح سـمة بين أبنـاء هذه الأمّـة ؛ فـ « **الديـن النصيحة** » كـما أخبر ﷺ، وأُثـر تقديمهـا ، والإقـدام على إبدائهـا بين عموم الأمـة وخواصّهـا في الرّتبة

(١) جـاء في طبقـات الأوليـاء ، ص ٣١ : « مـات سـنة ثلاثـين ومائتين، كما قال السـلمي والقشـيري وغيرهمـا. و الصواب سـنة أربعـين، كما نبّه عليه ابن عسـاكر عـن اثنتين وثمانين سنة » . وانظر طبقات السلمي، ص ٩٨، وحلية الأولياء ١٠/ ٥، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٨٥ ، برقم (٢٦).
وقـد جاء في كتاب إحياء علـوم الدين ١/ ٢٨٥ تعليم القارىء كيفية التشرّب بمعاني القرآن الكريم، لتفيض أنواره في الوجدان، وتظهر على الجوارح، من ذلك: « فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوّة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكـر الله وصفاته وأسـمائه يتطأطـأ خضوعاً لجلاله، واستشـعاراً لعظمتـه، وعند ذكر الكفـار ما يسـتحيل عـلى الله عز وجل كذكرهـم لله عز وجل ولـداً وصاحبة، يغض صوتـه ، وينكسر في باطنه حياء من قبـح مقالتهم، وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شـوقاً إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها » . وقد أشـار الإمام النووي رحمـة الله عليـه في كتابه التبيان في آداب حملة القرآن، إلى أن المسـلم عليه التزام منهج السـابقين الصّادقـين الأوّلين رضـوان الله تعالى عليهم في كيفية الخشـوع والتخشّـع، واسـتحضار مرجعية القرآن وهيبته، وما فيه من وعد ووعيد، وأن تظهر عليه مظاهر القارئ الحقيقي للقرآن الكريم، ومنها البكاء عند تلاوته ؛ فيقول: « وطريقه في تحصيله – أي البـكاء – أن يحـضر قلبـه الحـزن بأن يتأمل ما فيـه – أي القـرآن – من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في ذلك فإنه من المصائب ».

والمنزلة، من ذلك ما جاء في تتمة قوله ﷺ السابق ، عندما أرادت الأُمّة معرفة مَنْ يستحقّ النصيحة، ولِمَنْ تكون ، وإجابته ﷺ: أنّها تكون « لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامّتهم »[١] .

ومما جاء في الصفحات المشرقة لأبناء هذه الأمّة من النّصائح والوصايا، وأنواعها وفوائدها، وآثارها، ومنافع الأخذ بها، وتدارك وقتها على سائر المستويات :

* ما نصح به الإمام المقرئ النحوي أبو عمرو بن العلاء التميمي البصري (ت١٥٤هـ) رحمة الله عليه[٢]، الأمّة من خلال قوله لبعض طلابه: « خذ الخير من أهله، ودع الشّر لأهله »[٣]، فلا شك أنّه يرشد إلى تحري الخير لذاته، ثم تحري أهل الخير، والحرص على ورود منازلهم، والإفادة مما أفاضه الله تعالى عليهم، من النّعم الظاهرة والباطنة، وأنّ مَنْ شاع خيره، وظهرت آثار هذا الخير في سلوكه، وكان مضمون المصدر ؛ فهو بلا شك قبلة للعقلاء في الإقدام والانتفاع منه، ولا يُغفل عن مثله أبداً، وفي الوقت نفسه يُذكِّر الإمام البصري رحمة الله عليه بضرورة هجران الشرّ وأهله، والالتفات عن سبيله، والانقطاع عن كل ما يوصل إليه ، لأنه مما يقود إلى سوء المنقلب والعاقبة والعياذ بالله تعالى .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٣٠ ، برقم (٥٦) ، ومسلم في صحيحه ١/ ٧٤، برقم (٥٥).

(٢) تنظر سيرته في مشاهير علماء الأمصار ١٥٣ ، ونزهة الألباء ٣٠-٣٥، وإنباه الرواة ٤/ ١٢٥-١٣٣ ، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٦٦ - ٤٧٠ ، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٤٠٧ - ٤١٠ ، وشذرات الذهب ١/ ٢٣٧-٢٣٨ .

(٣) معرفة القراء الكبار ١/ ١٠٢ ، برقم (٣٩).

* وقد يفتح الله تعالى بالنصيحة على لسان صاحبها في ساعة احتضاره، ويقدّمها وصيّة ، عند توقع دنوّ الأجل ؛ من هذا ما حدّث به محمد بن إسحاق عن أبيه، قال: حضرت الوفاة نافع بن عبد الرحمن الليثي (ت١٦٩هـ) رحمه الله تعالى، وهو إمام أهل القرآن ، العَلَم المعروف، وطلب منه أبناؤه وصيّة، فقال: « ﴿.. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] »[2].

فتنبّه يا حماك الله إلى عظيم النّصيحة، ورفيع الوصية ، وكيف أنّه رحمه الله وهو في ساعة الموت يُذكّر أبناءه والأُمّة بالمنهج القويم؛ بتقوى الله تعالى ، وإصلاح ذات البَيْن، والطاعة المطلقة لما أمر به الله ورسوله ﷺ، وأن يحققوا إيمانهم بالتزام الثوابت من الأوامر، واجتناب النواهي.

* ومن الصفحات المضيئة في تاريخ الأُمة، ولاسيما في تقديم النصيحة لعموم المسلمين لإصلاح السلوك العام في الأمّة بناءً على المعرفة والتجربة، يقول حكيم الزمان الإمام الواعظ الزاهد يحيى بن معاذ الرازي (ت ٢٥٨هـ) رحمة الله عليه: « اجتَنِبْ صحبةَ ثلاثةِ أصنافٍ من النّاس: العلماء الغافلين، والقـرَّاء المُداهنين، والعُبّاد الجاهلين »[3]. وقال:« ليكن حظ المؤمن منك

---

(١) سورة الأنفال، من الآية ١.

(٢)ومعرفة القراء الكبار ١/ ١١١، برقم(٤١)، وغاية النهاية ٢/ ٢٣٠-٣٣٤.

(٣) تنظر سيرته وأقواله في طبقات السلمي ، ص ١٠٧ - ١١٤، وحلية الأولياء ١٠/ ٥١-٧٠، والرسالة القشيرية ، ص ٤١٤، برقم (٤٠)، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ١٥، برقم (٨).

ثـلاث خصـال: إن لم تنفعـه فلا تـضرّه، وإن لم تـسرّه فلا تغمّـه، وإن لم تمدحه فلا تذمّه »[1].

ولاشـك أنّه رحمه الله يعلّم في هذه النصائح الجامعة مجانبة إيذاء المؤمنين، وقبلهـا الحذر من العلماء الذين انشـغلوا بالعلم عن الله تعـالى، وكذلك الذين اسـتعملوه في غير موضعه، وشـغلهم الطريق عن الوصـول إلى الحق، والذين أصابتهم غفلة الوقت، فشـغلتهم أنفسهم عن أداء دورهم في المجتمع، وبقيت عقولهم حبيسة الأوراق والنظريات والكتب، فلم يغادروها إلى ميدان التفاعل والعمل، ميدان الدعوة إلى الله تعالى ودينه الحق، ولم تظهر عليهم آثار العلم من الرحمة بالخلق، والسعي إلى هدايتهم ، وتذليل العقبات أمامهم .

وبالجمـلـة: فهي نصيحة ملؤهـا التحذير من الذين لم يعملوا بما علموا ، وغفلـوا عن دورهم الريادي في النّاس، ومسـؤوليتهم أمام الله تعالى ورسـوله ﷺ، وكـما قـال الإمـام الزاهـد المعلّـم أبـو عبـد الله الأنطاكـي (٢٣٩هـ) رحمة الله عليه: « أنفع العلم ما عرّفك نِعَم الله عليك، وأعانك على شُـكْرِها، وقام بخلاف الهوى،..العاقل مَنْ عَقَل عن الله تعالى مواعِظَه، وعرف ما يضرُّه مما ينفَعُه »[2] .

وجـاء في واقع حياة رجال الأمة السّـالفين من علمائهـا الصّالحين، نماذج كثيرة، يظهر من خلالها فرقان المعرفة بين العالم الغافل ، والعالم العاقل المتنسّك

(١) الرسالة القشيرية ، ص ١٥٨ .

(٢) طبقات السّلمي، ص، ١٣٨ ، وحلية الأولياء ٩/ ٢٨٠ ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٣٦٨ ، برقم (٤٣٤١) بتحقيق عبد العلي عبد الحميد .

العابد، الذي عرف قيمة العلم كوسيلة للوصول إلى رضا الله تعالى ومعرفته، ومن أولئك العقلاء العبّاد ما جاء في سيرة أعلم النّاس في عصره بالقرآن والعربية وأيام العرب، والشِّعر وأيّام الناس، الإمام أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) رحمه الله، يقول أبو عبيدة: « كانت دفاتر أبي عمرو بن العلاء ملء بيت السَّقف، ثمّ تنسّك فأحرقها، وكان من أشرف العرب ووجوههم »[١].

فانظر يا أعانك الله إلى حرصهم على الغايات، والحذر من الاشتغال بالطريق عن الحق تعالى، الذي هو الغاية العظمى، أو بالسبب عن المسبِّب الذي هو الله جلّ جلاله.

وسُئل الإمام الواعظ الزاهد أبو صالح حمدون القصّار النيسابوري (ت٢٧١هـ)، رحمة الله عليه: متى يجوز للرجل أن يتكلّم على الناس - أي بالموعظة والنصيحة ؟-، فقال: « إذا تعيّن عليه أداء فرض من فرائض الله تعالى في علمه، أو خاف هلاك إنسان في بدعة، وهو يرجو أن ينجيه الله تعالى منها »[٢].

وبهذا يوضّح رحمة الله عليه ضرورة ألا يكتم العلم عن الناس مَنْ حمل شيئاً منه، وفي الوقت نفسه ألا يتصدّر لتعليم شرع الله تعالى، وتذكيرهم بموعظته، وترهيبهم من عذابه، وترغيبهم بسعة رحمته، إلا مَنْ امتلك علماً في أصول شرعة الإسلام الحنيف، يؤهّله إلى فهم المعاني، ويصون صاحبه

(١) معرفة القراء الكبار ١/ ١٠٤، برقم (٣٩).

(٢) طبقات السلمي، ص١٢٥، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٣١، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٠، برقم (٣٧)، وطبقات الأولياء ٣٥٩.

مـن الضلال والإضلال، وأن الضرورة الشرعية في تصدّره متحققة، وأن عدم مبادرته في بثّ العلم، أو قعوده عن أداء دوره المنشود في الأُمّة هو كتمان للعلم، وحجب للنور عن أهله، ومساهمة فاعلة في اتساع الجهل بين أبناء المجتمع ، وإفساد لمقوماتهم، وتشجيع على انتشار الفساد في الأرض، أو أنّ المتصدّر يرى الناس – ولاسيما في زماننا – تسوقهم الأهواء، والخرافة، والبدع، والخلافات، أو التشدد في الدين إلى الابتعاد عن الهدى الإلهي، والانحراف عمّا جاء به القرآن الكريم من النور المبين، والحكمة، والموعظة الحسنة ، وما كان عليه رسول الله ﷺ من التيسير والعقلانية، والفهم لمقتضيات المرحلة، وضرورات العصر؛ فيقدِم على النصيحة وإبداء الصواب بنيّة إنقاذ مَنْ يستطيع إنقاذه من المسلمين، وعلى أمل أن يوفّقه الله تعالى فيكتب على يديه نجاتهم من البدع وآثارها وعقوباتها.

* وفي إبداء النصح لإصلاح عموم سلوك الأمّة ، وحثّها على ملازمة الشريعة والكينونة مع الله تعالى، وتعاليم كتابه في الأقوال والأفعال والأحوال، وتحصيل أثرها ، يُقدِّم الإمام يحيى الرازي(ت٢٥٨هـ) رحمه الله تعالى ، نصيحته وحكمته إلى الأُمّة فيقول:« مَنْ سُرَّ بخدْمَةِ الله، سُرَّت الأشياءُ كلُّها بخِدْمَتِهِ؛ ومَنْ قرَّت عينُهُ بالله، قَرَّتْ عيون كلّ شيءٍ بالنظر إليه »[1].

* وفي الحُكْم على الآخرين، وإقامة هذا الحكم بناءً على الالتزام بحفظ الحدود وأداء الشريعة، يقول أبو يزيد البسطامي (ت٢٦١هـ) يرحمه الله تعالى:

---

(١) هو الإمام الحكيم يحيى بن معاذ ، تنظر طبقات السلمي ، ص ١١٣ ، ورواه البيهقي في الزهد الكبير ١/ ٢٨٢ ، برقم(٧٢٦) .

« لـو نظرتـم إلى رجلٍ أُعطي مـن الكرامات حتى يرتقي في الهـواء، فلا تغترُّوا بـه، حتى تنـظـروا كيف تجدونه عنـد الأمر والنـهـي، وحفظ الحـدود، وأداء الشـريعة »(١).

ومـن جميـل النّصائـح في ضوء الكتـاب الكريـم ، والحثّ عـلى التزامه مـا حكاه الحسـن بن صالح العبـاداني رحمه الله عن الإمام سـهل بن عبد الله التسـتري(ت٢٨٣هـ) رحمـة الله عليـه ، قال: دخلت على سـهل بن عبد الله التسـتري فقلت له: أوصني أيها الشـيخ يرحمك الله فإني أريد الحج، فقال لي: أوصيـك؟ وواعظك معك! فقلت: ومَنْ واعظي يرحمك الله؟ قال: الكتاب المنزّل-القـرآن الكريـم-، فقلـت له: الكتـاب كبير وفيه مواعـظ وتخويف، فعظني يرحمك الله ، قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿.. **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا**

---

(١) حليـة الأوليـاء١٠/ ٤٠ ، وانظـر الاعتصـام للشـاطبي (١/ ٩٤) ، ووفيـات الأعيان ٢/ ٥٣١، برقـم (٣١٢) . وأشـار ابن تيمية رحمه الله في « الفرْقان ، بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَن وَأَوْلِيَـاءِ الشَّـيْطان » (ص١٦٨-١٦٩) إلى مثـل هذا المعنى بقولـه : « وتجد كثيراً من هؤلاء، عمدتهم في اعتقاد كوْنِهِ وليّاً لله : أَنه قد صدر عنه مُكاشَفةٌ في بعض الأمور أو بعض التصَرُّفاتِ الخارقة للعادة ، مثل أَنْ يُشِيْرَ إلى شخص فيموت، أَوْ يَطِيْرَ في الهـوَاءِ إلى مكـة أو غيرها، أَوْ يَمْشي على الماء أَحْيَاناً ، أَوْ يَمْلأَ إبرِيقاً من الهواء ، أو أن يختفي أَحْيَاناً عن أَعْيُن النّاس ، أو أن بعض النّاسِ اسْتَغاثَ بِهِ وهو غائِبٌ أَوْ مَيِّتٌ فرآه قد جاءهُ فقضَى حَاجَتَهُ ، أَو يخبر النّاسَ بمَا سُـرِقَ لهم ، أَوْ بحَالِ غائِبٍ لهم أو مَرِيْض أو نحو ذلك من الأمـور .

وليـس في شيء مـن هـذه الأمـور مـا يـدلّ عَـلى أَنَّ صاحبهـا وَلِيٌّ لله ، بـل قـد اتـفقَ أولياء الله تعالى على : أَنَّ الرجلَ لو طارَ في الهواء ، أَوْ مَشَـى على الماء ، لمْ يُغترَّ بِهِ حتى يُنْظرَ مُتَابعَتهُ لرسول الله ﷺ وَمُوَافقتهُ لأَمْرِهِ ونهيه ».

﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾[1]، قـال: ثم قال: استمسـك بها سـمعت ترشـد، قال الحسن: فوالله لقد دلتني هذه الآية على كل خير[2].

ويظهر للقارىء مما تقدّم أن العابد الكبير الإمام التستري يرحمه الله حثّ طالـب الوصيّة على التمسّـك بكتاب الله تعالى، وأصرّ عـلى أنّه خير واعظ ، ولا ينبغـي العـدول عنه إلى غـيره، وأنّ كل مَنْ طلب علماً ينتفـع به في دينه، يجب أن يرشـد ويشـجّع على التمسـك بكتاب الله والانتهال منه، ولا ينبغي للوعاظ والعلماء والمشـايخ ، والمؤسسـات الإعلامية بأنواعها تزهيد الناس في العلـم بكتـاب الله تعالى ، أو تصعيبه أمامهـم، أو صرفهم عنه؛ بل عليهم الإفادة من منهج السَّـلف يرحمهم الله تعالى في تيسـير فهمه، وترغيب الصِّلة به، والاندماج بمعانيه وحِكَمِه وفيوضاته روحاً وجسـداً، وحثّ الخلق على التـماس الحـق والهـدى والعقيدة السـليمة فيه لا في غيره، بـل ومن الواجب ترغيب الناس في التمسـك بكتاب الله المنزّل مشروحاً بالسنة النبويّة المطهرة التي لا يسـتغني عنهـا كل مفسِّر لكتاب الله لأنها صنـو القرآن، ووحي مثله في بـاب التشريع ووجوب الاتباع . ثمّ يتبيّن حسـن اختيار الإمام سـهل بن عبـد الله التسـتري يرحمه الله للآيـة المتقدّمة كوصية يقدِّمها لسـائل؛ ليشـعر السـائل عنـد تلاوتهـا أن الله تعالى معـه بعلمه، وأنّـه جلّ وعـزّ مطّلع عليه، ومحيط به، ولا يخفى عليه شيء من أمر عبده وسـلوكياته حيثما كان في السّـفر أوالحضر الظاهر والباطن، وهو سبحانه على كل شيء قدير[3].

---

(١) سورة المجادلة، من الآية ٧.

(٢) ينظـر المعارضة والرّد ، لسـهل بن عبد الله التسـتري ، (تحقيق ونقـد وتعليق الدكتور محمد كمال جعفر)، ص: ٧٥.

(٣) ينظـر الصفات الإلهية في الكتاب والسـنة النبوية في ضـوء الإثبات والتنزيه، للدكتور محمد أمان الجامي ١/ ٢٥-٢٦ .

ولا شـك أنّ الصفحـات المشرقـة في تاريـخ الأمة وفيرة، وأثـر القرآن في سـلوكها ومجتمعاتها كبير ، وأن جيل اليـوم والغد بحاجة إلى إظهارها، وتثوير مـا فيها من كنوز وعِـبَر ، وربطها بواقع احتياجات الأمـة لتتفاعل مع نتاجها، وتتعلّم أسـاليب صناعتهـا، وتقتفي أثر أولئك الرجال الذيـن صدقوا العهد، وبلّغـوا الأمانة، وتضيء بأنوارها عقول وقلـوب الأجيال الواعدة، وتبعث في ذواتهم ومجتمعاتهم وغيرها إشراقات جديدة تفيض من حكمة أولئك الصالحين وسيرهم العطرة ؛ وتعمل على تخفيف وتقليل ما ظهر بين أبناء الأمة من البطالين والمخادعـين والمتسربلين بهيئة رموزها، ودعاتها، وعُبّادها، وزهّادها، وعلمائها الأصفياء، وقد حقق أولئك بعض غاياتهم في صرف الناس عن الحق وصدهم عـن الله تعالى وذكره، والمبالغة في إرشـادهم إلى أنفسـهم، وأباطيلهم، والعياذ بالله تعالى . وهم يحاولون تضليل الأجيال بتلبيس مفاهيم الاستدراج بالكرامة والتلبس بها، ولاشـك أنّ الكرامات الممنوحة لأولياء الله تعالى ثابتة، ودلالتها فيهـم واضحـة ؛ بما ثبـت للناس مـن تمسّـكهم بالشريعة، وعيشـهم في ظلال كتاب الله تعالى وسـنّة رسوله ﷺ، وهو أمر ثابت في صفحات السابقين، وغير ممتنـع في حق اللاحقـين ، وبالجملة فإنما يتفضّل الله تعالى بهـذه الكرامات على عبـاده المؤمنـين، وينفح بها مَنْ شـاء منهم، متى شـاء ، قال سـبحانــه وتعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[1].

(١) سورة يونس، الآيات ٦٢ – ٦٤ .

ت) التزام الاستقامة، وموافقة الظاهر للباطن،وحفظ الأدب مع الخَلْق:

كان من منهج الصّدر الأوّل لهذه الأُمّة رحمة الله عليهم التزام الاستقامة، المبنيّ على فهم صحيح لأمر الله تعالى رسولَه ﷺ وأتباعه بالاستقامة في القرآن الكريم، بقوله:﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1]، وإنّ أساس هذه الاستقامة إصلاح المسلم باطنه مع الله تعالى، وعدم مخالفته له في الظاهر، وأنجزها السّابقون في أنفسهم، وحثّوا عليها أبناء جيلهم واللاحقين بركبهم، وأكّدوا عليها من خلال الجمع بين العلم والعمل، وإصلاح السرّ والعلن، والثبات على قاعدة : أن البواطن لا بد أن توافق الظواهر، أمّا إذا اختلت هذه المعادلة فإن العبد يحتاج إلى إصلاح ذاته، والوقوف على خطر ما هو عليه ؛ إذ تخرجه هذه المخالفة عن الحق، وترديه في الباطل ؛ يقول الإمام أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز البغدادي (ت٢٧٩هـ) رحمة الله عليه:« كلُّ باطن يُخالفُ ظاهراً فهو باطلٌ »[2].وهذا سلوك عام تستقيم به الحياة ، وتسمو بظلاله الأرواح والأبدان ، ويرقى بآثاره المجتمع المسلم ، وتنشط به همّة الطالبين للوصول إلى درجات المتقين.

وكان الوقوف على الأدب في التعامل مع الخَلْق، والمراعاة لمنازل الناس،

---

(١) سورة هود، الآية ١١٢ . وينظر الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ١/ ٢٤، (التمييز بين الحقيقة والشريعة).

(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٦، وتاريخ بغداد ٤/ ٢٧٦، برقم (٢٠٢٥). والأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع، للسيوطي ، في (التمييز بين الحقيقة والشريعة).

وملاحظة ما منّ الله تعالى به على البعض من فروق الدنيا أو الآخرة في الفضل والدرجـات مع المحافظة على أخوّة الدِّين من واضح منهج المتقدّمين في صدر هـذه الأمة، وجاء ذلـك جلياً في عباراتهم وسـير حياتهم، وهـم ينظّمونها على منهج التعاليم السّامية في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله وهديه ﷺ، ومن خلال فهمهم السـليم لخطابـات الله الخالدة - القرآن الكريم- ، وسـعيهم إلى تحقيق السلوك السويّ من خلال التعرّف على حِكْمَته سبحانه، ومرامي آياته، وسائر ما جاءت به من إرشاد وموعظة.

وانتفعـوا مـن هـدي رسـوله ﷺ الـذي كان قـوام بناء شـخصه ﷺ على كتـاب الله، وتغـذت أرواحهـم وزكـت بمتابعته، وعلـت هممهـم بالاقتداء، والتسـليم لإرادته، ولا شك أن الله تعالى هو سـبحانه مَنْ أدّب رسوله الكريم الخاتم ﷺ، وتفضّل عليه بالعلوم الكسـبية والوهبية بما لم يقع نظيره لأحد من البـشر، و علّمـه تعالى رياضـة النفس، ومحاسـن الأخلاق الظاهـرة والباطنة، ومنحـه حقيقـة الأدب - أي ما يحصـل للنفس من الأخلاق الحسـنة والعلوم المكتسـبة، ومـا يدعوا الناس إلى المحامـد - وجعله مرجعاً للبشريـة فيه، فأدّبه سـبحانه بآداب العبوديـة، وهذبه بمكارم الأخلاق التـي تحفظ لله جلّ جلاله سـلطان الربوبية؛ فمن صغره تولى تأديبه ورعايته بنفســه ولم يكله في شيء من ذلك لغيره، ولم يزل الله عزّ وجلّ يفعل ذلك به حتى كرّه إليه أحوال الجاهلية، وحمـاه منهـا فلم يجـر عليه شيء منهـا، كل ذلـك لطف به وعطـف عليه وجمع للمحاسـن لديه؛ فبالأدب يُفهم العلم، وبالعلم يصلح العمل، وبالعمل تنال

الحكمـة. وكل الآداب متلقيات عن المصطفـى ﷺ فإنه مجمعها ظاهراً وباطناً. ولاشـك أنّ التزكية كـلّـها آدابٌ، ولـكل وقتٍ أدبٌ، ولكل مقام أدبٌ؛ فمَنْ لَـزِمَ آداب الأوقاتِ، بَلَغَ مبْلَـغَ الرِّجال، ومَنْ ضيَّــع الآدابَ، فهو بـعيـدٌ من حيــث يـظـنُّ القرب، ومـردودٌ من حيث يرجـو القبـول. وأنّ أصل كلِّ خير ملازمةُ الأدب في جميع الأحوال والأفعال .

وشهدت صفحات الأمة أن منظومة الأدب في الإسلام جاءت متـكاملة، جامعة بـيـن العلم والعمل، والغيب والشـهادة، وفي هذا تعظيم لشأن الأدب وإظهار لمكانته بما لا يخفى على أحد من العقلاء ؛ فالأدب صورة العقل، فصوِّر عقلك كيف شـئت، والفضل بالعقل والأدب فمن أضافهما للأصل والنّسـب فقد جمع المحامد ، ومَنْ تخلى عن الأدب فقد سلك درب الأسافل؛ لأن مَنْ ساء أدبه ضاع نسـبه، ومَنْ ضلّ عقله ضلّ أصله، ولا شـك أن حُسن الأدب يستر معايب الرجال .

وممـا جـاء في الأثـر أن أبا حفص النيسـابوري رحمة الله عليـه ورد العراق فقـال لـه الإمام الجنيـد البغدادي رحمه الله، لمـا رأى أصحابَه وقوفاً على رأسـه يأتمـرون بأمـره، متأهبـين لخدمتـه: أدّبت أصحابـك أدب السـلاطين! ، فقال أبو حفص: « حُسْن الأدب في الظاهر عنوان حُسْن الأدب في الباطن » [1] .

(١) الرسالة القشيرية، ص ٢٨٦، (٤٠ الأدب).

ث) ملازمة الأُسس الصحيحة التي عليها قِوام العبادات والمعاملات:

لمّا سطعت أنوار الهدى الإلهي على البشرية بالإسلام، وأشرقت شمس المعارف والمِنَح على الأمة بالقرآن والنبي الخاتِم ﷺ ؛ تنوّرت العقول والقلوب، وأفاض الله عليها بمحامد أسمائه، وبسط فيها فتوح مننه، وتحوّلت كلمات الوحي على مدى قرون من الزمن إلى مناهج نورانية مؤصلة تنطق من نور مشكاته، وأخذ الرعيل الأول نصيبهم من هذه الأنوار ببركة الصحبة لرسول الله ﷺ، وتربيته لهم، وتزكيته لأرواحهم، وإعانتهم على أداء أوامر الله تعالى ، وتهيئة أعمالهم وأحوالهم وأخلاقهم ليقاربوا الكمال في العبودية ؛ وليصلوا إلى رتبة القبول، وقد تحوّلوا بذلك إلى منظومة متكاملة يرعاها الله تعالى، ويؤيّدها برسوله ﷺ ، ويباهي بهم ملائكته، وكما جاء في الحديث المبيِّن لحال حنظلة رضي الله عنه ، والذي تتبيّن فيه بعض الإشراقات التي لها الأثر في سلوك الأمة التعبدي، لما فيها من كثرة الإقدام والاستباق على الخيرات، وسرعة الإقبال على الله تعالى، وما صاحبها من سمو الأحوال، والتشوف إلى رفيع الدرجات، وشدّة المحاسبة لأنْفسهم، وما أمضوا عليه حياتهم الإيمانية من النظام والانتظام والمنهجية السليمة، فقد جاء بيان رسول الله ﷺ لواقع حالهم؛ بقوله : « .. **والذي نفسي بيده إنكم لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم..** »[1]، وفي رواية لمسلم في صحيحه أيضاً: « **..ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلّم عليكم في الطرق** »[2]، وفي رواية

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢١٠٦ - ٢١٠٧، برقم (٢٧٥٠) .

(٢) ٨/ ٩٥، برقم (٧١٤٣)، (باب فضل دوام الذكر والفكر)، طبعة دار الجيل والآفاق.

لابـن حبـان : « .. **فقـال رسـول الله ﷺ لو تدومـون على ما تـكونـون عنـدي في الحـال لصافحتـكـم الملائكـة حتـى تظلكـم بأجنحتـهـا..** »[1]، وفي روايته الأخـرى: « .. **لـو تكونـون عـلى كل حال عـلى الحال الـذي أنتم عليـه عندي لصافحتكم الملائـكة بأكفكم ولو أنكم في بـيـوتـكم..** »[2].

وسرى هذا النّور في الأمة، ولاشك أنّه متجدد في أبنائها وأجيالها، مع مراعاة فارق السّـبق في الانضمام إلى الإسـلام، وبناء دولته، وتأسيس بنيانه في القلوب وعلى الأرض، ورتبة الصحبة لرسـول الله ﷺ، فإنّ فضل ذلك عظيم كريم.

وسار ورثة النبي ﷺ من السّابقين واللاحقين من عباد الله الصالحين على هديه في إتمام المسيرة، وإبلاغ الرسالة، وإيصال الموعظة، والنّفع بالحكمة، حتى حفـظ الله بهـم الدين، وصانه عن ثلـب القادحين، وجعلهم عنـد التنازع أئمة الهدى، وفي النوازل مصابيح الدجى؛ فهم ورثة الأنبياء[3]، ومأنس الأصفياء،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢/ ٥٥، برقم (٣٤٤).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٦/ ٣٩٦، برقم (٧٣٨٧).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١/ ١٠١، وفي مسـند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٩٦، برقـم (٢١٧٦٣) و(٢١٨٥٣): أنّ رجـلاً قدم من المدينـة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه - وهو بدمشـق -، فقال أبو الدرداء: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحـدّث به عن رسـول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجـارة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجـة؟ قـال: لا، قـال: ما قدمـت إلا في طلب هذا الحديث؟، قـال: نعم، قال أبو الدرداء: فإني سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: « **من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سـلك الله بـه طريقاً إلى الجنـة، وإن الملائكة لتضـع أجنحتها رضـا لطالب العلم، وإنه ليسـتغفر للعالم مَنْ في السـموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم عـلى العابـد كفضل القمر على سـائر الكواكب. إن العلماء هـم ورثة الأنبياء**، =

وملجأ الأتقيـاء، ومركز الأولياء، فله الحمد تعالى على قَدَرِه وقضائه، وتفضله بعطائه، وبرّه ونعمائه، ومنّه بآلائه .

وظهـرت آثـار التمسّـك بهـدي الكتـاب والسُـنّة مشرقـة في الأُمّـة ، ولاسيما فيما درجـت عليـه مـن منهـج قويـم، ومسـتند عظيـم في العبادات والمعامـلات؛ وباتـت متمسّـكة بكتـاب الله تعـالى، ومقتديـة بسـنَّة رسـوله ﷺ، آكلـة الحـلال، وكافّـة الأذى عـن نفسـها وغيرهـا، عاملة عـلى اجتناب الآثـام، وحريصـة عـلى التوبـة وتجديدهـا، وأداء الحقـوق على أحسـن وجه؛ يقـول الإمام سَـهْل بن عبد الله التسـتري (ت٢٨٣هــ) يرحمـه الله: « لا مُعِينَ إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى[١]، ولا عمل إلا الصبر... الأعمـالُ بالتوفـيق، والتوفـيق مـن الله، ومفتاحـها الدعــاء والتضرّع »[٢].

= **لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما وَرَّثُوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر** » . فليُتنبّه إلى عظيـم همّتهـم رحمة الله عليهم في تعلّم العلم، ولاسـيما علم مَـنْ تخلّق بالقرآن قولاً وعملاً ، سـيدنا رسـول الله ﷺ ، وكيف كانوا يصرفون الأموال ، ويسـتثمرون الأعمار، ويُدققون في الأعمال من أجل تعلّم سـنـتــه وإحيائـها، وكيف يتنقّلون في أسـفار بعيـدة من أجل تصحيح فكرة ، أو تحصيل فائدة، أو تحرّي سُـنّة، ولا شك أنّ مثـل ذلـك كثير في تاريخ الأمة، وهذه إحدى صفحـات أبنائها المشرقة ، وهي في الوقـت نفسـه باعث منير لهممنـا في أن نكون على ما كانوا عليـه من الحرص على الدين ، والاستزادة من العلم ، وحفظ حقوق أهلهما في أي زمان ومكان .

(١) ومـما يوضّـح أصول هذا المنهج مـا روي في الأثر – كما في الرسـالة ١٠٨ – أن الإمام الجدّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: « سـادة النّاس في الدنيا الأسخياء، وسادة الناس في الآخرة الأتقياء » إشـارة منه إلى أن الجمع بين رتبتي الدنيا والآخرة إنّما يكون ببسط السّخاء بين الخلق، والتزام التقوى بالخوف من الحق جلّ جلاله .

(٢) طبقـات السـلمي ، ص ٢١١ ، وحليـة الأوليـاء ١٠/ ١٨٩–٢١٢، الرسـالة القشـيرية، ص ٤٠٠، برقم (١٨).

ج) الاستعانة بالصبر على طريق المعرفة وفهم القرآن الكريم:

استعان السابقون يرحمهم الله بالصبر، وساروا بالتوكل، وتنوّروا بالمعرفة، ووطنوا أنفسهم على المحن من أجل الوصول إلى الغاية في العبادات، والحكمة من الإيجاد ؛ فتجسد في سلوكهم ومناهجهم الأثر الحقيقي للقرآن الكريم، يقول أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري (ت٣٣٠هـ)، رحمة الله عليه: « في المِحَن ثلاثة أشياء: تطهير، وتكفير، وتذكير؛ فالتطهيرُ من الكبائر ؛ والتكفير من الصغائر؛ والتذكير لأهل الصفاء .. و التوكل ألا تعجز عن حُكم وقتك، والمعرفةُ ألا تُضيِّع حُكم وقتك »[1].

ولاشك أن بنزول البلاء تظهر حقائق الصَّبر، وعند مكاشفة المقدور تظهر حقائق الرضا، والمسلم يتعلّم من رجال الأمة السالفين رحمهم الله أن الرِّضا هو ما يُثاب عليه المرء، وهو المطلوب لاستقبال أقدار الله تعالى، كالصَّبر وثوابهِ بالنسبة إلى البلاء والمصائب، ولا شك أن أعرف الناس بالله تعالى وبكتابه أشدّهم مجاهدة في أوامره، وأتبعهم لسنّة نبيه ﷺ، وأصبرهم على الحق والفضيلة .

***

(١) طبقات السلمي ، ص ٣٩١ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٥١، الرسالة القشيرية، ص ٣٩٠، برقم (١).



المحور الثالث

أثر تعاليم القرآن في سلوك الفرد والأُسرة والمجتمع

المحـور الثالث
أثر تعاليم القرآن
في سلوك الفرد والأُسرة والمجتمع

من حيث :

أ- اتهام النفس وعدم الرّكون إليها ، وإعمال الحذر منها .

ب- معرفة علامات السعادة والشقاء، وما يُعد من أعظم الذنوب.

ت- المحافظـة عـلى تذكير قـرّاء القرآن بواجبهـم ، ومكانة السّـابقين من أئمة المسلمين.

ث- تحقـق السـلوك السَّـويّ بنـاءً عـلى تعاليـم كتـاب الله تعـالى وسُــنَّـة رسوله ﷺ.

ج- الحرص على الدعاء وحُسن الظّنّ بإجابته ، والاستغفار للنفس والولد .

ح- تحقيق العزّ ، ولاسيما لحملة القرآن ، والشهادة بفيض نُبلِهم .

خ- المحافظة على العقل وأفضلية الإيمان ببركة القرآن الكريم .

د- ثبوت أجر المتمسك بالحق إذا اتُبعت الأهواء وآثر النّاس الدنيا .

ذ- تحريك النّفس والهمّة في أن نلقى الله تعالى بأحبّ الصحف المرفوعة إليه.

ر- تحصيل بشارة مَنْ قرأ القرآن الكريم وحافظ على قراءته .

ز- استحقاق مَنْ يُؤخَذ عنه القرآن المدح والتشجيع، وكذلك المتصدّر به.

س- تعلّم التعامل مع أشدّ الأعمال .

ش- ظهور البَرَكة على مَنْ عاش في ظلال القرآن وتعاليمه في حياته .

ص- شفاعة القرآن وعودة بركته على المشتغل به بعد مماته .

ض- إصلاح منظومة الأُسرة حضارياً .

ط- رغبة المجتمع المسلم وسعيه إلى الكسب الحلال، والزهد بما سواه .

ظ- تنمية ثقافة فهم القرآن بلغة القرآن؛ للتأثر بمناهجه التربوية والحضارية والسلوكية.

ع- ظهور تفاعل أبناء المجتمع من الأعيان مع القرآن وأهله، وتعزز مكانتهما عندهم.

غ- مكانة أهل القرآن عند الملوك والأمراء والوزراء والدولة.

ف- الأمل المتجدد بهذه الأُمَّة وأجيالها ومقدّراتها .

* * *

أ) اتهام النفس ، وعدم الركون إليها ، وإعمال الحذر منها:

إن من آثار القرآن على هذه الأمة، ولا سيما في تربية الأرواح وتزكية النفوس في ضوء المعرفة بالله والفهم الصحيح للقرآن الكريم، - رغم القيام بالواجبات وأداء الحقوق - اتهام النفس، وعدم الركون إليها، والحرص على الحذر منها والتحذير من شرورها، وشدّة الخوف من المكر، ومحاولة اتقاء خاتمة السوء، والعمل على دفع الشقاء، والأخذ بأسباب النجاة، وسؤال الخاتمة الحسنة السعيدة ؛ وهو منهج عريض في الأمة تساءلت عنه أمّ المؤمنين عائشة رضي الله

عنها؛ فقد أخرج الترمذي رحمة الله عليه في السنن، أنّها قالت: قلت يا رسول الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾[1] أنهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال ﷺ: « لا يا بنت الصِّديق، ولكن هم الذين يصومون ويصلّون ويتصدقون، ويخافون أن لا تُقبل منهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[2] »[3].

ولا شك أن ذلك الوجل بأسبابه وآثاره، والمسارعة في الخيرات بالأقوال والأفعال، والحرص على عدم التغافل عن القرآن، والإيمان بكونه المنهج الحق للبشرية جمعاء، وإقامته في النفوس والمجتمعات، ونفي نقيض ذلك عن الأمة وعن سلوك أبنائها في الحياة؛ مما شهدت به صفحات التاريخ وأسفار الأمة المشرقة، ووعته قلوب وعقول أجيالها، وبقي بعض معالمه ظاهراً على أرض أمصارها إلى يومنا هذا.

ب) معرفة علامات السّعادة والشقاء، وما يُعد من أعظم الذنوب:

سجّل رجال الأمة الأثبات في صفحات تاريخها المشرق مواقف بناءة تجسّد عظيم فهمهم لكتاب الله تعالى، وأثره في سلوكهم وضرورة المرحلة التي كانوا يعيشونها؛ فقد أسهر القرآن عيونهم، وأعمل عقولهم، وحرّك قلوبهم،

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٦٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٦١.

(٣) أخرجه الترمذي في السنن، برقم (٣١٧٥)، وجاء في تخريج الأحاديث والآثار ٢/ ٤٠٣: « ورواه الحاكم في المستدرك كذلك وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ».

وهيمـن على كيانهم ومشـاعرهم ، وأصلـح أرواحهـم وخواطرهم، وروّض أبدانهم، وقدّسـهم ظاهراً وباطناً ، ومنحهم أسـلوباً مميّزاً في الحياة والسـلوك، وبعثهم على المحافظة على تعاليمه، والاهتمام به في الليل والنهار، علماً وعملاً، وتعلّـماً وتعليـماً ، وقـراءة وتطبيقـاً وتدبّراً ، ولا شـك أن الإشراقـات في ذلك واسعة، والشعع كثيرة ، منها :

* مـا حـدّث بـه إبراهيـم النخعـي رحمـه الله ، أنّ خالـه علقمـة بن قيس (ت٦٢هــ) رحمة الله عليه، كان يقرأ القـرآن في خمس ليالٍ، وقد قام بالقرآن في ليلة عند البيت الحرام[1] .

* ومنها: ما جاء في سيرة عمران بن تيم العطاردي البصري (ت١٠٥هـ) رحمـة الله عليه، أنّـه أخذ القرآن عرضاً على ابن عبـاس رضي الله عنهما، وتلقّنه مـن أبي موسـى الأشـعري رضي الله عنه خمـس آيات خمس آيـات، وكان يختم القرآن في عشر ليالٍ، وقد مات وله مئة وسـبع وعشرون سنة حافلة مع القرآن الكريم في ليله ونهاره[2] .

* ومـن هـذه الصفحـات المشرقـة صفحـات ذُكر فيهـا حمزة بـن حبيب (ت١٥٦هــ) رحمـة الله عليـه ، وهـو يحـدّث عـن نفسـه فيقـول : « نظرتُ في المصحـف حتى خشـيت أن يذهب بصري » . وكان عبيد بن موسـى رحمه الله

---

(١) تنظر طبقات ابن سعد ٦/ ٨، وحلية العلماء ٢/ ٩٨، وتاريخ بغداد ١٢/ ٢٩٦، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٥٢، برقم(١٤) .

(٢) ينظـر مشـاهير علماء الأمصـار، ص ٨٧، وحلية الأولياء ٢/ ٣٠٤، وسـير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥٣-٢٥٧، برقم(٩٣)، والنجوم الزاهرة ١/ ٢٤٣ .

يحـدّث عـن مآثر حمزة فيقـول: « كان حمزة يقرأ القرآن حتى يتفـرّق الناس، ثم ينهـض فيصلي أربع ركعات، ثم يصلي ما بـين الظهر والعصر، وما بين المغرب والعشـاء » . وحدّث جيران حمزة رحمة الله عليه بما كانوا يلحظونه من سلوكه: بأنه كان لا ينام الليل ، وأنهم كانوا يسمعون قراءته يرتل القرآن [1].

ولعظيم فضل حمزة الكوفي يرحمه الله، وكريم صحبته للقرآن يحادثه الإمام أبو حنيفة النعمان رحمة الله عليه، فيقول له: شيئان غلبتنا عليهما ، لسنا نُنازِعُك فيهما : القرآن والفرائض - أي علم تقسيم الإرث والتركات- [2].

ولهـذه الوقائع وغيرها كثير كان مَنْ مضى يسـتنكر حالـة الهجران للقرآن في الأُمـة ، ويسـتحضر هيبة وخطورة الخطاب الإلهي على لسـان رسـوله ﷺ، وقولـه: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا ﴾ [3]،

---

(١) ينظـر وفيـات الأعيان ٢/ ٢١٦، وسـير أعلام النبـلاء ٧/ ٩٠-٩٧، برقـم(٣٨)، وغاية النهاية ١/ ٢٦١-٢٦٣، وشذرات الذهب ١/ ٢٤٠، روضات الجنات ٣/ ٢٥٣.

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ١١٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٣٠. ينظر: فيض القدير ٤/ ٣١٣.

وقال ابن حجر العسقلاني يرحمه الله في فتح الباري ٩/ ٨٦ : «.. واختلف السَّلف في نسـيـان القـرآن فمنهم من جعل ذلـك من الكبـائـر وأخـرج أبو عبيـد من طريــق الضحاك بـن مزاحم موقوفاً ، قـال: « ما من أحد تعلم القرآن ثـم نسـيه إلا بذنـب أحدثـه ، لأن الله يقـول: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ... ﴾ سـورة الشورى، من الآية ٣٠، ونسـيان القرآن من أعظم المصائب»، واحتجوا أيضاً بما أخرجه أبو داود، والترمذي من حديث أنس مرفوعاً : « عرضت عليّ ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سـورة من القرآن أوتيها رجل ثم نسيها » في إسـناده ضعـف، وقد أخـرج ابن أبي داود من وجه آخر مرسـل نحـوه، ولفظه: « **أعظم من حامل القرآن وتاركه** » . =

= ومـن طريق ابن سـيرين بإسـناد صحيح في الذي ينسـى القرآن كانـوا يكرهونه ويقولون فيه قولاً شـديداً . ولأبي داود عن سـعد بن عبادة مرفوعاً: « **من قرأ القرآن ثم نسـيه لقي الله وهو أجذم** »، وفي إسـناده أيضاً مقال ، وقد قال به من الشـافعية أبو المكارم والروياني واحتج بأن الإعراض عن التلاوة يتسـبب عنه نسـيان القرآن ، ونسيانه يدل على عدم الاعتناء به والتهاون بأمره ، وأنّ الرجل إذا حفظ آيات القرآن الكريم ثم نسـيها إنما نشـأ عن تشـاغله عنها بلهو أو فضول، أو لاسـتخفافه بها وتهاونه بشأنها وعدم اكتراثه بأمرها فيعظم ذنبه عند الله لاستهانته العامة، وأخطرها إعراضه عن كلام الله جل جلاله .

واختلـف في معنـى (أجـذم) فقيل : مقطـوع اليد ، وقيـل: مقطوع الحجـة، وقيل: مقطـوع السـبب من الخـير، وقيل: خالي اليـد من الخير ، وهـي متقاربة، وقيل يحشر مجذوماً حقيقة.

وقـال القرطبـي: من حفظ القـرآن أو بعضه فقد علـت رتبته بالنسـبة إلى مَنْ لـم يحفظـه، فـإذا أخلّ بهـذه الرتبة الدينية حتـى تزحزح عنها ناسـب أن يعاقب على ذلـك، فـإنّ ترْك معاهدة القـرآن يـفضي إلى الرجوع إلى الجهـل، والرجوع إلى الجهل بعد العلـم شديـد .

وقال إسحاق بن راهويه : يكره للرجل أن يمرّ عليه أربعون يوماً لا يقرأ فيها القرآن، ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود : بئسما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت.

ثم إنّ نعمة القرآن وتعهّده نعمة عظيمة أتحف الله تعالى بها أحبابه من خلقه ليقوموا بحقها، ويشـكروه عليها ، فهو سـبحانه موليها فلا بد ألا يقابلوها بالكفر، ويتضح ممـا تقـدّم: أن نـسـيـان القرآن كبـيرة ولو بعضاً منـه، وهذا لا ينـاقضـه خبـر « رفع عـن أمتي الخطأ والنـسـيان » لأن المعدود هنـا ذنـبـاً؛ التـفريـط في محفوظه ، وهذا متـحقـق بعـدم تعاهده، وترك مدارسـته ، وتـرك التفكّر في معانيـه ، وهجران منهج السّـلف يرحمهـم الله تعـالى في تفكّرهـم ووقوفهـم على مواعظـه وحِكَمِـه؛ إذ جاء في تفسـير الثعالبي (٢/ ٣٦٩) في تفسـير قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (٩) سـورة الإسراء: =

وظهـر تجريم مَنْ يغفل عن القرآن بعد تعلّمه، يقول أبو العالية رُفَيْع بن مهران البصري (ت٩٣هـ) رحمة الله عليه – فيمَنْ مـنَّ الله تعالى عليه بالقرآن ومعرفة مـا فيـه، وهو ينام عنه ، أو يهجـره في ليلته دون قراءة لآياتـه أو تدبّر لمعانيه، أو أُنْسٍ بربه وكلامه-: « كنّـا نعدّ من أعظم الذَّنب أن يتعلّم الرجل القرآن ثم ينام لا يقرأ منه شيئاً – حتى ينساه – » [1].

وهـذا الوجـدان المتولد من التعلّم والحفظ يدفع إلى الشـعور بالسَّـعادة في حـال الطاعة، وإلى النهاية السـيئـة والشـقاء والشـقاوة في حـال التقصيـر وإن الإدمـان على تـرك القرآن والوقـوع في هجره يحقق الوقوع في المعصية [2]؛

= « أنّ ابـن وَهْـبٍ قال: سـمعتُ مالكاً يقول : إن اسـتطعت أن تجعل القـرآن إماماً ، فافعـلْ ، فهـو الإمـام الذي يهـدي إلى الجَنَّة . قال أبو سـليمان الداراني : ربَّـما أقَمْتُ في الآية الواحدةِ خَمْسَ ليالٍ، ولولا أني أدَعُ التفكُّر فيها ، ما جزتها ، وقال : إنما يُؤتَى على أحدكم من أنه إذا ابتدأ السورة ، أراد آخرها ..» .

(١) صفـة الصفـوة ٣/ ٢١١ ، برقـم (٤٨٥) . وهـو يرحمـه الله القائـل : « تعلّمـوا القرآن، فـإذا تعلمتـموه فلا تـرغبوا عنه، وإيـاكم والأهـواء فإنـها توقع العداوة والبـغضاء بيـنكـم » . تنظـر أقوالـه وأخبـاره في الثقـات لابن حبـان ٤/ ٢٣٩، وحليـة الأولياء ٢/ ٢١٧، وطبقات الفقهاء للشـيرازي ٨٨، وسيـر أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٧، برقم(٨٥)، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ١٧٢ .

(٢) وجـاءت في كتـاب أبرز أُسـس التعامل مع القـرآن الكريم ، للدكتور عيـادة بن أيوب الكبيـسي فوائـد مهمـة تتعلّـق بهـذه الموضوعـات ، ولاسـيما في (ص ٥٨) في بيان ما احتملتـه أحاديث ذم نسـيان القرآن عند بعض العلماء ، وأنّ مَـنْ ترك العمل بالقرآن التحق بزمرة المذمومين، فيقول: « حمل بعض العلماء الأحاديث الواردة في ذم النسـيان على ترك العمل بالقرآن ؛ لأنّ النسيان هو الترك، لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ..﴾ سـورة الأنعـام من الآيـة ٤٤ : أي تركـوا ، ولقوله تعـالى: ﴿.. نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ...﴾ سـورة الحـشر مـن الآيـة ١٩ : أي تركـوا طاعـة الله فـترك رحمتهـم. وممن =

وسئل الإمـام المُحدِّث الزاهـد أبو عثمان سـعيد النيسـابوري (ت ٢٩٨هـ) رحمـة الله عليـه: مـا علامة السَّـعادة والشـقاوة ؟ فقـال: « علامة السـعادة أن تُطيعَ الله تعالى، وتخافَ أن تكون مردوداً. وعلامة الشقاوة أن تعصي الله وترجو أن تكونَ مقبولاً »[١].

وهـذا الرَّصد لعلامات النجاح والسـعادة من قِبَل السّـابقين يرحمهم الله إنمـا جاء من خلال مسـيرتهم الحافلـة في تزكية الأرواح والعقـول والنفوس، والأقـوال والأفعـال وتنقيتها من الكـدورات، وتنزيهـا عن التعلّـق بالدنيا، وشـبهها، وشـهواتها، وهو بمثابة الهدية لأجيالهم المعـاصرة، وكذلك اللاحقة بركبهـم إلى يـوم القيامـة ؛ يـقول أبـو علي الحســن بـن عـلي الجوزجاني (ت: بعد ٣٠٠ هـ) رحمه الله تعالى: « من علامات السـعادة على العبد تيسـيرُ الطاعة عليـه، وموافقته للسُّـنّة في أفعاله، وصحبته لأهل الصلاح، وحسـن خُلُقه مع الإخوان، وبذل معروفه للخلق، واهتمامه للمسلمين، ومراعاتُه لأوقاته »[٢].

= ذهـب إلى هـذا سـفيان بن عُيينة، وقال: وليس من اشـتهر بحفـظ شيءٍ من القرآن وتفلّـت منه بناسٍ، إذا كان يُحلّ حلاله ويُحرّم حرامه. وأيّده القرطبي بقوله: هذا تأويل حسـن وفيـه توجيه، إلا أنّ الله تعالى أثنـى على من كان دأبه قراءة القـرآن، وتوعّد مَنْ أعرض عنه، ومَنْ تعلّمه ثم نسيه... » .

(١) وهو القائل : « سرُورك بالدنيا أذهبَ سرُورك بالله من قلبك، وخوفُك من غيره أذهب خوفَك منه عن قلبك، ورجاؤُك مَنْ دونه أذهب رجاءك إيّاه من قلبك » . تنظر أقواله وأخبـاره في طبقات السـلمي، ص ١٧٠ –١٧٥ ، و حلية الأوليـاء ١٠/ ٢٤٤ ، ووفيات الأعيان ١/ ٢٥٥، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٢ ، برقم (٣٣).

(٢) طبقات السلمي ، ص ٢٤٧، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٥٠ .

ت) المحافظة على تذكير قرّاء القرآن بواجبهم، ومكانة السّابقين من أئمة المسلمين:

يلحظ القارئ لصفحات الأمة المشرقة وسيرة السابقين فيها أنَّهم يرحمهم الله تعالى خرَّجوا أجيالاً من فتوّة الصالحين والعلماء العاملين، والفقراء إلى الله تعالى الصابرين المجاهدين الثابتين على الحق بدوام الفقر إليه جلّ جلاله، الذين عاشوا على حفظ السِّر مع الله تعالى على الموافقة، وحِفْظ الظاهر مع الخَلْقِ بحُسْنِ العِشْرة، واستعمال الخُلُقِ في سائر حالاتهم فحققوا الصورة الحضارية للأُمة، وظهر أثر القرآن في سلوكهم ومجتمعاتهم ؛ ومما يروى في ذلك أنّ أبا موسى الأشعري (ت ٤٤هـ) رحمة الله عليه جمع القرّاء، ليذكّرهم بقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾(١) فقال لأصحابه: « لا تُدخلوا عليّ إلا مَنْ جمع القرآن- أي حفظه - »، فدخلوا عليه زهاء ثلاثمائة رجل، فوعظهم، وقال: « أنتم قراء أهل البلد، فلا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب » (٢).

---

(١) سورة الحديد ، الآية ١٦ .

(٢) المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم ، للإمام أبي نعيم الأصبهاني ٣/ ١١٥، برقم (٤٢)، تحقيق محمد حسن الشافعي ، وحلية الأولياء ١/ ٢٥٧ .

وفي ذلك أيضاً إشارة إلى أنواع القلب حال تلبّسه بالقسوة ، والتي بيّنها الحقّ جلّ جلاله بقوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ سورة البقرة ، الآية ٧٤. =

وقـد جاءت كلمات صفحـات الأمة المشرقة وسـطورها وحروفها محررة بمـداد مـن نـور ، تبيّن كيـف كان رجالهـا الأمنـاء لا يدّخروا جهـداً في تخريج الأجيال، وتنمية قدراتهم ؛ ليصل نور القرآن إلى العالم كلّه ، وتنبثق في القلوب معاني الإيمان ، وتمتلئ أوعيتهم بفيض القرآن والحكمة.

* ومـن ذلـك أيضاً: مـا حدّث بـه ضِرار بـن صُرَد يـرحمه الله أنّـه سـمع سُـليـم بـن عيسـى (ت١٨٨هـ)رحمـة الله عليـه، وقد أتـاه رجل فقـال : يا أبا عيسـى، جئتـك لأقرأ عليـك بالتحقيـق- أي ضبط مخارج الحـروف وصفاتها والعناية بالألفاظ والرسـم - فقال له سُليم: (يا بن أخي شهدتُ حمزة الزيات وهـو إمـام القراء في الكوفة (ت١٥٦هــ) رحمة الله عليه، وأتــاه رجل في مثل هـذا فبكـى، وقـال : يـا بن أخـي إنما التحقيق صـون القرآن، فـإن صنته، فقد حققتـه، هـذا هو التحقيـق ، فمضى الرجـل ولم يقرأ عليـه)[1] . وهذا الموقف

= ومما يُسجّل هنا: أنّ العلماء أشاروا في كتبهم ونصائحهم إلى الطرق الصحيحة في فهم القرآن والوقوف على معانيه، وإلى استحضار وجدان تحريك القلوب وحمايتها من الغفلة، منها: ضرورة أن يُقرأ القرآن، و يُتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي، وأن يُتَدَبَّر على أنّه توجيهات حيّة، تتنزّل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنيرَ الطريق إلى المستقبل، لا على أنّه مجرد كلام جميل يُرتَّل، أو على أنّه سجلٌ لحقيقةٍ مضتْ ولن تعود، ولن تنتفع الأمّة اليوم بهذا القرآن حتى تقرأه لتلتمس عنده توجيهات حياتها الواقعة في يومنا وفي غدنا، كما كان مَنْ قبلنا يتلقاه، وحين تقرأ القرآن بهذا الوعي ستجدُ عنده ما تريد، وستجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حيّة، تنبض وتحرّك أبناء الإسلام نحو الرقي الحضاري الشامل؛ الروحي والبدني والعمراني الدنيوي والأخروي.. والله المستعان .

(١) معرفة القراء الكبار ١/ ١٣٩ – ١٤٠، برقم(٥١).

يُعلِّم طلاب الرّسـوم والألفاظ والألقاب والشـهادات والإجازات أنّ العبرة بالمعاني والمضامين والتطبيق ، ولاسيما فيما يتعلّق بكتاب الله تعالى وسنة رسوله وشريعتـه الخاتمـة ، فحري بنا أبناء اليوم والغد أن لا نضيع دمعات الإمام حمزة وهـو يعلّم بآثارهـنّ الأجيال اللاحقة بركب الأئمـة أنّ إعمال النوايا وتحريك الفهـوم، وضبـط مخـارج الحـروف وصفاتهـا، مع التحقيـق في صـون القرآن، والوقـوف عنـد الأوامر، والانتهـاء عن النواهي هو الغاية مـن آلات العلوم ؛ وتحقيق الفهم عن الله هو المبـتغى من تحقيق العلم بها .

* ومـن المواعـظ العظيمـة في صفحـات الأمـة مـا حـدّث بـه الكسـائي رحمـه الله، قـال: كنت أقرأ على حمزة الزيات فجاء سُـليم بن عيسـى، فتلكأتُ، فقـال لي حمزة: تهـاب سُـليماً ولا تهابني!، فقلتُ: « يا أسـتاذ أنـت إن أخطأتُ قوّمتني، وهذا إن أخطأت عَيّرني » [1] .

---

(١) ولا شـك أنّ هذه الواقعة ليسـت عـلى إطلاقها ؛ ومما يُنبّه عليه هنـا : أنّ الأُمّة درجت على ضرورة بـيان أحوال الرجال، ولاسيما مَنْ يـؤخذ عنهم العلم، ومَنْ يُـوثق بهم في الضبـط، ومَنْ يتوجّب حفظ مكانتهم بين الخلق، وإنّ بيان الشـمائل وأحوال الرجال جرحاً وتعديلاً مما تناقله علماء الأُمة بالسّند ، وإنّ النقد لحفظ الدِّين أصبح من الدِّين، وإنّ ما أصاب الزّيات هو من قبيل ما يصيب العلماء من الوجل وخوف العاقبة. من قبيـل ذلـك ما حصـل للإمام ابـن أبي حاتم الرازي عندمـا بلغه قول ابـن معين :(إنّا لنطعـن على أقـوام لعلّهم حطّـوا رحالهم في الجنّة منـذ أكثر من مائـتـي سـنة) من أحوال البكاء، والارتعاد ليديه حتى سقط كتاب الجرح والتعديل من يده، وكيف كان يسـتعيد الحكاية من محدّثها ليزداد بها وجلاً . وعلّق الإمام الذهبي على الزمن بقوله: لعلّهـا مـن مئة سـنة، فإنّ ذلـك لا يبلغ في أيام يحيـى هذا القدر ، وأضـاف الذهبي معلّقـاً على الحكاية: أصابه –أي ابن أبي حاتـم–على طريق الوجل وخوف العاقبة؛ وإلا فكلام الناقد الورع في الضعفاء من النّصح لدين الله تعالى والذبّ عن سنّة رسوله ﷺ. تنظر سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٨ ، وتذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣١ .

فتنبّـه يـا رعاك الله: فإنّ لـكل فاضل حقه، فلابد من حفظه له، ولا شـك أن هذه الواقعة تعلّمنا وتعلّم الأجيال اللاحقة ضرورة مراعاة الحالة النفسـية لـدى طـلاب العلم؛ فـإنّ البناء النفـسي السـليم ، والثقة بالأسـتاذ، والأمان لجانبـه من أهم مقومات النجاح، وعلى مَنْ حمّلهم الله تعالى مسـؤولية التعليم أن ينهضـوا بأنفسـهم لتنهـض بهم الأجيـال، وعلى من تصدّر عـلى الناس أن لا يحـطّ من أقدارهم ، ولا يشـذّ بنفسـه عن خلـق الله، وعليه أن يطهّر نفسـه مـن النظرة الدون لطلاب العلم وسـائر الخلـق، الذين ربما هم عند الله أفضل منـه ، وعـلى مَنْ يرى في نفسـه الصـدارة ويمنحها العالمية أن يسـتحضر مدى تقصـيره تجاه العـالَم الذي يزعم صدارته ؛ فلو أقام الله تعالى عليه ميزان العدل ونوقش فيما منحه لنفسـه سـيرى عندها فارق عالميته وحقيقة تعالمه ، ويتضح له نكت علمه أمام محيط جهله ، ثمّ إن سـائر العلوم المتعلّقة بالشريعة إنما هي منقولـة ، والذين يتصدّرون لتعليمها إنما هم نقلة ، فالعلماء قد مضوا إلى ربهم بعـد أن تركـوا للأمة إرثاً عظيـماً، وكلّ من جاء بعدهم إنما هـو ناقل لإرثهم، وتجديـده إنّما يكـون في طريقة تناوله للنصوص المنقولة، وفي وسـائل عرضها عـلى جمهـور الأمة، على أن الكثير من هـذه الطرق أصبح تقليديـاً متوارثاً، ثم إنّ العقـول والدماء المحرِّرة والناقلة لأفكار مَنْ سـبق إمّا مؤيّدة داعمة ، وإما ناقمة معارضة، والمعتدل الوسطي قليل في سائر الميادين .

والصحيـح : أن يـوازن الإنسـان في نقلـه، ويمنـح عقلـه فرصـة التأمـل لكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ ، ولا يحتقر شيئاً من تراث الأمة ، أو أبنائها،

ويحفظ لكل ذي حق حقه، وقد قال عبد الواحد بن أبي هاشم رحمه الله : سأل رجلٌ ابنَ مجاهد البغدادي رحمه الله (ت ٣٢٤ هـ): لم لا يختار الشيخ لنفسه حرفاً يُحمل عنه ؟!، فقال ابن مجاهد: « نحن أحوجُ إلى أن نعملَ أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا، أحوجُ منّا إلى اختيار حرف يقرأ به مَنْ بعدنا»[١]. وبهذا يعلّم رحمة الله عليه كلّ مَنْ جاء بعده ضرورة الحرص على الأصول الموروثة، ولا سيما المجمع عليها، مع استحضار التواضع ، ومعرفة قدر النَّفس فيما تسوق إليه أو تشط فيه، وكذلك الحرص على عبور الأُمة مرحلة معاناتها المتجددة لئلا يظهر في مستقبلها ما تعانيه أجيال اليوم ، ولاسيما في بعض متصدريها الذين يدعون إلى أنفسهم بدل الدعوة إلى الله تعالى، وإلى آرائهم بدل الحق والفضيلة، وإلى فهومهم بدل إعمال العقل في البحث عن الدليل ، وقد أشغلوا الذهن في تحصيل زخارف الدنيا وفُتاتها بدل الوقوف على مرامي النصوص الكريمة وآثارها في السلوك، وحكمتها في حفظ النفوس والمجتمعات وبنائها. عافانا الله من الادعاء ، وطهّر الأجيال القائمة، وسلّم اللاحقة من هذا البلاء .

ثمّ إننا لنقف وقفة إجلال وإكبار لأولئك الذين سطّروا في سفر تاريخ هذه الأمة صفحات مشرقة، وأورثوا أجيالها آثاراً عظيمة من العلوم والمعارف، والأقوال والأفعال والمواقف، وكان لسيرتهم، المدى الكبير في استنفاد مدادها، وهم بحق وإن اختلف زمانهم عن زمن النبّوة إلا أنّ معالمهم ومناهجهم وآثارهم، ترشد إلى امتداد تلك المرحلة، وبقاء جذوة مشكاة النبّوة الخاتمة

---

(١) ينظر المنتظم ٦/ ٢٨٣ ، (٣٤٢)، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٢٧١، برقم(١٨٦) .

وبركتهـا متوقّـدة متأصّلة فيهم وفي آثارهـم رضي الله عنهم، وسـارية بتوفيقه تعـالى فيمـن بعدهـم ؛ يقـول تعـالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾[1]، فكأنّ النص يتجدد تقعيده في كل مرحلة من مراحل تطوّر الأمّـة ؛ ليبقى ختام الأنبيـاء وخاتمهـم ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ومَنْ عـلى أثرهم في رفعة ذِكْر دائـم، ولتسـتمرّ نفحته الإيمانية نابضـة في أجيال الأمة مـن الصالحين، وباعثة هممهـم ليصلـوا إلى رتبـة المعيّة مع رسـول الله ﷺ وسـنته، ولا شـكّ أن هذه المناهـج والأفـكار والصفحـات المشرقـة، لتـزوّد أبنـاء الأُمة مـن المعاصرين واللاحقين بأنواع من الطاقات عظيمة، وتجعلهم يرتقون ويترقّون، ويتشوّقون إلى رتبة الذين كانوا معه ﷺ ؛ لتبقى الأمة في انطلاقتها الأولى والآخرة ناهضة نحو العلياء، ولتحفظ ثوابت الدين في كل زمان ومكان، وإن كنّا ندرك عظيم ما تعانيه الأُمة اليوم في سـائر مؤسسـاتها من تقصير ، وقصور في إظهار عظمة الإسلام، ومكانة رسوله الخاتم ﷺ، وإبراز الصورة الحضارية المشرقة لأولئك السـابقين الذين استقرّت لديهم مفاهيم الأصول بما فتح الله عليهم من عقول، وحُررت سائر استنباطات العلوم بمداد أقلامهم لما رزقوه من جليل الفهوم ؛ فكانوا صراط الوحي إلينا ، ونوره الحي في ضمائرنا وتأملاتنا، ولا أجلّ من قول

---

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

الإمام البصري أبي عمرو بن العلاء التيمي (ت١٥٤هـ) رحمه الله تعالى في مثل هذا المقام إذ يقول: « إنّما نحن فيمَنْ مضى كبَقْلٍ في أُصول نخْلٍ طوال »[1].

وعبارة الإمام حمدون القصّار (ت٢٧١هـ) رحمة الله عليه وهو يقول: « مَنْ نَظَرَ في سِيَرِ السَّلفِ عَرَفَ تقصيْرَهُ، وتَخَلُّفَهُ عن دَرَجاتِ الرِّجال »[2].

ث) تحقق السلوك السَّوي بناءً على تعاليم كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ :

لا شك أن المدرسة النبوية وما نتج عنها من مدارس في أمصار المسلمين إلى يومنا قد تنوّعت في معالجة العديد من القضايا التي طرأت على الأجيال منذ عصر النبوة وكذلك سائر ما يطرأ عليها إلى يومنا هذا، وأنّ هذه المدارس قد رسّخت قيم المنهج الأصيل في التعامل مع الحدث، قلّ أو عظم خطره، وأفاضت بالرؤية الشمولية الفاعلة المستندة على الوحي الإلهي في علاج قضايا الأُمّة ، والمجددة في أبنائها أمل عبور اختبار الدنيا بما كان عليه رسول الله ﷺ من الثبات واليقين، وسائر الأئمة السابقين من الصحابة والذين كانوا على المنهج رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ؛ من علم بكتاب الله تعالى وسنّة

(١) معرفة القراء الكبار ١/ ١٠٤، برقم (٣٩) .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص٤٢٦، وتنظر حلية الأولياء ١٠/ ٢٣١، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٠، برقم (٣٧)، ودائرة معارف البستاني ٧/ ١٧٣ .

رسـوله ﷺ، وبـما توارثوه من مناهج مسـتقيمة تقرّب إلى الله تعـالى، مبنيّة على العلـم والمعرفة، وتتمتع بأسـس متينـة رصينة، وفهم حصيـف؛ وهذا ما وجّه إليـه الإمـام الحافظ المحدّث أبو سـعيد أحمـد بن محمد البـصري (ت٣٤٠هـ) رحمة الله عليه، من خلال بيانه لمعاني المعرفة بالله تعالى ، وأنّها مبنيّة على الاعتراف بالجهـل أمـام علم الله تعـالى، وأنّ تزكية الروح والبدن، وتحصيـل وافر التربية مبنيّ على ترك الفضول، وأنّ الزّهد مبنيّ على أخذ ما لابدَّ منه، وإسقاط ما بقي من علائق الدنيا، وأنّ المعاملة كلّها استعمال الأولى فالأولى من العلم، والتوكُّل كلّه ترك الاعتماد على أحد إلا الله سبحانه، وأنّ الرّضا كلّه ترك الاعتراض على قَـدَر الله عزّ وجـلّ، وأنّ المحبَّة كلّها إيثـار المحبوب على الـكلِّ، والعافية كلّها إسـقاطُ التكلّف، والصبر كلّه تلقِّي البلاء بالرَّحْب، والتفويض كلّه الطمأنينة عند الموارد خيراً كانت أم شراً، واليقين كلّه ترك الشكوى عندما يُضادّ قضاؤه وقـدره مراد العبد، وأنّ الثـقة بالله تعالى علـمُ العبد أنّه به وبمصالحه أعلم من العبد بنفسـهِ (١).

(١) وهـو رحمـة الله عليـه القائـل : « أخسـر الخاسريـن مـن أبدى للنـاس صالـح أعماله ، ويـارز بالقبيـح مَـنْ هو أقرب إليه من حبل الوريد ». وإشـارة القرب هـذه يذكّر فيها بقـول الله تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ سورة ق ، الآية ١٦ . تنظر حلية الأولياء١٠/ ٣٧٥، والرسالة القشيرية ، ص٣٩٤، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٠٧، برقم (٢٢٩).

ج) الحرص على الدعاء وحُسن الظّنّ بإجابته ، والاستغفار للنفس والولد ؛ ليكون من أهل القرآن وتأويله وفهمه، وليرى أثره في سلوك الفرد والمجتمع :

لا شك أن في صفحات الأمة المشرقة عبارات براقة ذات مبنى ومعنى، استحقت أن تكتب بماء الزعفران المذهّب ، لاسيما وهي تخطّ دعوات النبي الكريم ﷺ لأبناء الأمة وأجيالها، بأن يرزقهم الله العلم في القرآن لفظاً وفهماً وتأملاً ، وهي نعمة باقية في الأمة ببركة ترداد دعواته ﷺ ، والأخذ بأسباب تحقيقها، وكذلك لما لهذه الدعوات من أثر ظاهر على سلوك الفرد والمجتمع. فمن هذه الأسطر المنوَّرة والمواقف والأدعية المأثورة المحبّرة التي تنهض بأرواح وهمم أبناء الأمة:

* استغفار النبي ﷺ لعموم المؤمنين والمؤمنات ، وهو من ضمن خصائصه ﷺ، يقول الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾(١) ، وكذلك بما ثبت في الأثر في معنى قوله تعالى: ﴿ .. وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢) .

* وكذا ثناؤه ﷺ عليهم ؛ فمن هذا الثناء ثناؤه على قراءة الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ، عبد الله بن قيس (ت٥٠ هـ ،و قيل بعدها) رضي الله

---

(١) سورة محمد، الآية ١٩.

(٢) سورة التوبة، من الآية ١٠٣.

عنه، وكان ممـن ولي زبيد و عدن للنبي ﷺ ، وممـن خصّه ﷺ بالدعاء ، كما في حديث أبي موسى الأشعري ، قال: قال النبي ﷺ: « اللهم اغفر لعبيد أبي عامر اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه » [(١)].

* وكذلك اسـتغفاره ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري السُّـلميّ رضي الله عنـه؛ إذ كان ممـن رَوَى عن النبـي ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَـلِيٍّ وآخرين، وروى عنـه أولادُهُ مُحَمَّـدٌ وعَقِيلٌ وعبد الرحمن ، وكذلك عطاء بن أبي رَبَاحٍ ومحمد بن الْمُنْكَدِرِ وَعَمْرُو بن دينار وغيرهم .

وكان ممـن شـهد العَقَبـة مـع أبيه ، وأراد شـهود بدر، فخلفـه أبوه على أخواته، وكنّ تسـعاً، وكذا خلفه يوم أحد، فاستشـهد أبـوه يومئذ ...وغَزَا مَعَ النبي ﷺ تِسْعَ عَشْرَةَ غَزْوَةً .

وَنال الخيرية رحمة الله عليه بشـهادة النبي ﷺ لأهل الْحُدَيْبِيَةِ وقوله لهم : « أَنْتُـمْ خَيْرُ أَهْـلِ الْأَرْضِ » [(٢)]، وكانوا ألفاً وأربعمائة وجابر بن عبد الله منهم، رضوان الله عليهم أجمعين.

وثبت اسـتغفار النبي ﷺ له لَيْلَةَ الْبَعِيرِ خَمْسًـاً وَعِشْرِيـنَ مَرَّةً ؛ فقد أخرج

---

(١) أخرجـه الإمـام البخـاري في صحيحه ٥/ ٢٣٣٢ ، بـاب (١٨) . وقد جاء في الصحيح أيضـاً ٤/ ١٥٧١ ، برقـم (٤٠٦٨)، بـاب (غـزوة أوطـاس)، ولفظـه: « فقلـت - القائل أبو موسى الأشعري -: ولي فاستغفر ، فقال - أي النبي ﷺ: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً .. ».

(٢) أخرجـه الإمـام البخاري في الصحيـح ٤/ ١٥٢٦ ، برقم(٣٩٢٣)، بـاب غزوة الحديبية. تحقيق : د. مصطفى ديب البغا.

الطيالسي في مسنده عن جابر رضي الله عنه أنّه قال: « استغفرَ لي رسول الله ﷺ ليلة البعير خمساً وعشرين مرة »[1].

قال هشام بن عروة واصفاً مسيرة جابر بن عبد الله في الدعوة إلى الله والتخلّق بأخلاق أهل القرآن والحديث: رَأَيْت لَهُ حَلْقَةً فِي الْمَسْجِدِ تَأْخُذُ عَنْهُ ، وتوفي بالمدينة سنة (٧٨هـ) وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان [2].

وقد كانت الأُمة تعمد إلى الاستغفار لعموم المؤمنين وخواصهم من أولي الأرحام في النَّسب والعلم والصحبة، وهو من الهدي الموروث في رجال الأمة السّابقين؛ فمن ذلك ما جاء في الأثر أن الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه كما حدَّث عن نفسه وسلوكه تجاه أصحاب الفضل على الأمة أنه ما بات منذ ثلاثين سنة إلا وهو يدعو للشافعي رحمه الله ويستغفر له[3]؛ حتى سأله ولده عبد الله: أي رجل كان محمد بن إدريس الشَّافعي؟! لما سمعه يختصه بالدعاء

---

(١) ٣/ ٢٩٧ ، برقم (١٨٤٠). وأخرجه الترمذي في سننه ٥/ ٦٩١ ، برقم (٣٨٥٢) ، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب .

ومعنى قوله : (ليلة البعير) ما روي عن جابر من غير وجه أنه كان مع النبي ﷺ في سفر فباع بعيره من النبي ﷺ واشترط ظهره إلى المدينة . يقول جابر: ليلة بعت من النبي ﷺ البعير استغفر لي خمساً وعشرين مرة . وكان جابر قد قُتل أبوه عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أحد وترك بنات فكان جابر يعولهنّ وينفق عليهنّ ، وكان النبي ﷺ يبرّ جابراً ويرحمه لسبب ذلك .وأخرجه ابن حبان في صحيحه، ١٦/ ٩١ برقم (٧١٤٢) ، قال محققه شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح .

(٢) ينظر الثقات لابن حبان ٣/ ٥١ ، برقم(١٧١). وطرح التثريب ١/ ٤٩ . والتحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للسخاوي ١/ ١٥٤ .

(٣) جاء في وفيات الأعيان ٤/ ١٦٤ ، بتحقيق إحسان عباس: « قال أحمد: ما بتّ منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له ».

ويكثر منه له، فأجابه الإمام أحمد: (كان الشّافعي كالشّمس للدنيا، والعافية للناس، فهل لهذين من خلف، أو لأحد عنهما من عوض)[1] .

ومنهم الإمام المقرئ العابد الصالح أبو حمدون الذُّهلي البغدادي (ت: بعد ٢٢٠هـ) رحمة الله عليه، الذي ذاع صيته في الإتقان والقناعة والعبادة والتقلل من الدنيا ؛ إذ جاء في سيرته أنّه اتخذ صحيفة كتب فيها أسماء ثلاث مئة نفس من أصحابه، يدعو لهم كلّ ليلة ، فنام عنهم ليلة ، فقيل له في النوم : لم تُسْرِج مصابيحك !، فقعد فأسرج وأخذ الصحيفة فدعا لواحد واحد حتى فرغ[2] .

* ومن صور حثه ﷺ المجتمع على الاهتمام بالقرآن: امتداحه ﷺ للأصوات الحسنة بالقرآن، ومنها أصوات الأشعريين عند قراءتهم القرآن بقوله: « **إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار ومنهم حكيم ..** »[3] .

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٦٦ (دار الكتب العلمية)، ووفيات الأعيان ٤/ ١٦٤، برقم(٥٥٨)، تحقيق إحسان عباس، وتاريخ دمشق ٥١/ ٣٤٨، ولوامع الأنوار البهية ٢/ ٤٦١ (ذكر أئمة المذاهب الأربعة).

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٣٦٠، برقم (٤٩٢٧)، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٢١١، برقم (١٠٦).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٤/ ١٥٤٧، برقم (٣٩٩١)، والإمام مسلم في صحيحه ٤/ ١٩٤٤ برقم (٢٤٩٩). قال الإمام ابن حجر العسقلاني في الإصابة في معرفة الصحابة : « حكيم الأشعري لا أعرف له خبراً سوى ما وقع في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: « **إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل** (أي إلى المسجد - أو منازلهم) **ومنهم حكيم إذا لقي الخيل..** » فذكر الحديث. استدركه أبو علي الغساني، وقد زعم ابن التين وغير واحد ممن شرح البخاري أن قوله: « ومنهم حكيم » صفة رجل منهم غير مسمى، وكذا حكاه عياض عن شيخه أبي علي الصدفي، والله أعلم ».

وفي هـذا نلحـظ تحفيزه ﷺ لأصحابه وعموم أبناء الإسـلام على تحسـين القراءة ، وعلى فضل منزلة صاحب الأداء المتقن في القرآن، ولاسـيما مَنْ جوّده وتميّز فيه، من ذلك قوله ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: « **يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود** »[1] .

وقولـه ﷺ: « **يقـال لصاحب القـرآن اقرأ وارتق ورتل كـما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها** »[2] .

ونلحظ أن أثر القرآن في سـلوك المجتمع المسـلم قد ظهر جلياً في سـلوك مجتمع الأشعريين الذين امتدحهم رسول الله ﷺ لمّا ظهرت شمائلهم وأحبّها الله ورسوله ﷺ فيهم؛ من ذلك ما حدّث به أبو بردة عن أبي موسى قال : قال رسـول الله ﷺ: « **إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعـوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسـموه بينهم في إناء واحد بالسـوية فهم مني وأنا منهم** »[3].

---

(١) أخرجـه الإمـام البخاري في صحيحـه ٤/ ١٩٢٥ ، باب (٣١) حسـن الصوت بالقراءة للقـرآن، برقـم (٤٧٦١). وأخرجـه الإمـام أحمـد في مسـنده٢/ ٣٥٤ ،برقـم: (٨٦٣١)، ولفظـه: « لقـد أُعطـي أبو موسـى مزامـير داود » . وأخرج الهيثمي في مجمـع الزوائـد ٩/ ٣٥٩ ، عـن سـلمة بـن قيس أن النبي ﷺ مرَّ على أبي موسـى وهـو يـقرأ ، فقال: « **لقد أوتي هذا من مزامير آل داود** » ، وقال عقبه : رواه الطبراني وإسناده جيد .

(٢) أخرجه الإمام النسـائي في فضائل القرآن ١/ ١١٤ ، برقم (٨١) ، والحاكم في المسـتدرك على الصحيحين ١/ ٧٣٩ ، برقم (٢٠٣٠)، والإمام البيهقي في شُعب الإيمان ٢/ ٣٩١، برقم (٢١٥٧) .

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٤/ ١٩٤٤ ، برقم (٢٥٠٠).

* وكذلك من السلوك المحفوظ في الأمة تأثرها بهدي النبوة والقرآن وتواتر دعائه ﷺ لِمَنْ يُذكِّر أهل الإسلام بالقرآن؛ لاسيما إذا أُنسي المسلم بعض آياته ، من ذلك ما جاء عن أمّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورة بالليل ، فقال: « **يرحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أُنسيتها من سورة كذا وكذا** »[(١)].

* ومن أدعيته ﷺ لعبد الله بن عباس (ت٦٨هـ)، رضي الله عنهما ، قوله: « **اللهم علّمه التأويل، وفقّهه في الدِّين** »[(٢)] ، وبهذا فإنّه ﷺ قد دعا لابن عباس أن يرزقه الله تعالى علم تأويل كتابه، ولا شك أن الفهم عن الله عزّ وجلّ هو فقه في الدين ، ووقوف على حِكَم تشريعه . وتحققت دعوته ﷺ، فلم يكن على وجه الأرض في زمانه أحد أعلم منه بكتاب الله تعالى وفقهه؛ فهو الحَبْر والبَحْر، وفي ذلك حدّث عكرمة عن فقه ابن عباس في سياسة الناس ، وكيفية موعظتهم، وتحديثهم عن الله عزّ وجلّ ، فقال: قال ابن عباس: « حدِّث الناس كل جمعة مرة ، فإن أبيت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاث مرار ، ولا تملّ الناس هذا القرآن ، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملّهم ، ولكن أنصت فإذا أمروك فحدِّثهم وهم يشتهونه، فانظر

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٤/ ١٩٢٢ ، برقم (٤٧٥١) . وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ١/ ٥٤٣ ، برقم (٧٨٨) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٢٦٦، والحاكم في مستدركه ٣/ ٥٣٤ ، وصححه ، ووافقه الذهبي على ذلك.

السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك »[1] يعني لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب .

ولمّا مات ابن عباس رضي الله عنهما سنة(٦٨ هـ)، صلّى عليه محمد بن الحنفية رحمه الله، وقال: « مات ربّانيّ هذه الأمّة »[2] .

* وفي تعليمه ﷺ الأمة - من خلال الدعاء - كيفية حفظ كتاب الله تعالى، والمحافظة على ما عندها منه ، وما به يُطرد النسيان؛ حدّث ابن عباس رضي الله عنهما : أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه الإمام الجدّ علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، تفلّت هذا القرآن من صدري فما أجدني أقدر عليه !، فقال له رسول الله ﷺ: « يا أبا الحسن ؛ أفلا أعلّمك كلمات ينفعك الله بهنّ، وينفع بهنّ مَنْ علّمته ، ويثبت ما علِمته في صدرك » ؟ قال : أجل يا رسول الله فعلمني ، قال:« **إذا كانت ليلة الجمعة ، فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر ، فإنها ساعة مشهودة، والدعاء فيها مستجاب، وهي قول أخي يعقوب لبنيه : ﴿.. سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3]، حتى تأتي ليلة الجمعة، فإن لم تستطع، فقم في وسطها ، فإن لم تستطع ، فقم في أوّلها فصل أربع ركعات تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وآلم تنزيل السّجدة، وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفي الركعة الرابعة**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ ٢٣٣٤ ، برقم (٥٩٧٨).
(٢) تاريخ بغداد ١/ ١٧٥ ، (ذكر بشارة النبي ﷺ أنّ الله يفتح المدائن على أمّته).
(٣) سورة يوسف، من الآية ٩٨.

بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل ، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله وأحسن الثناء على الله وصل عليّ وعلى سائر النبيين وأحسن، واستغفر لإخوانك الذين سبقوك بالإيمان، واستغفر للمؤمنين وللمؤمنات، ثم قل آخر ذلك: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وارحمني أن أتكلّف ما لا يعنيني، وارزقني حُسْن النَّظر فيما يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تُلزم قلبي حفظ كتابك كما علّمتني، وارزقني أن أتلوه على النَّحو الذي يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تنوّر بكتابك بصري، وأن تُطلق به لساني، وأن تفرّج به عن قلبي، وأن تشرح به صدري، وأن تشغل به بدني؛ فإنه لا يعينني على الحق غيرك، ولا يؤتيه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أبا الحسن ؛ تفعل ذلك ثلاث جُمَع أو خمساً أو سبعاً يجاب بإذن الله فو الذي بعثني بالحق ما أخطأ مؤمناً قط » . قال عبد الله بن عباس: فو الله ما لبث عليّ إلا خمساً أو سبعاً حتى جاء رسول الله ﷺ في مثل ذلك المجلس فقال: يا رسول الله ؛ إني كنت فيما خلا لا أتعلم أربع آيات أو نحوهن، فإذا قرأتهن على نفسي يتفلتن فأما اليوم فأتعلم الأربعين آية ونحوها ، فإذا قرأتهن على نفسي فكما كتاب الله نصب عيني، ولقد كنت أسمع الحديث فإذا أردته تفلّت، وأنا اليوم أسمع الأحاديث فإذا حدثت بها لم أخرم منها حرفاً . فقال له رسول الله ﷺ عند ذلك: « **مؤمن ورب الكعبة أبا الحسن** »[1].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ١/ ٤٦١ ، برقم (١١٩٠) . وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . =

* ومـن صفحات الأمة المشرقة في الدعـاء المجاب ببركة القرآن، وظهور آثار ذلك في الفرد والمجتمع ؛ ما جاء في حياة وسـيرة أهل القرآن ممن أحسـنوا تلاوتـه، وفهمـوا معانيـه، ونطقوا بحكمته، وسـاروا على هديه ونـوره، وبثوا تعاليمـه إلى البشريـة كلّهـا عـلى حسـب طاقتهـم، وظـروف عصورهـم، وبما هيأه الله تعالى لهم من وسائل تناسب عصرهم لنشر دعوة الحق في سائر الآفاق، ولاشـك أن نـور القرآن الكريم هو الجـلاء لظُلَم النَّفْـس، والتطهير للحواس والنَّفَـس؛ فالمؤمـن الحقّ مَـنْ تفاعل مـع القرآن الكريـم لفظاً ومعنـى، روحاً ومبنى، وأقام ما جاء فيه على حسـب ما يرتضيه رب العالمين جلّ جلاله، وأنّ

= وفي المعجـم الكبير للطبراني ١١ / ٣٦٧-٣٦٨، برقم(١٢٠٣٦): عن ابن عباس قال : قـال علي بن أبي طالب : يا رسـول الله ؛ القرآن ينفلت من صـدري ، فقال النبي ﷺ: « **أعلّمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع من علمته** »، قال : نعم بأبي أنت وأمي، قال: **صـل ليلة الجمعة أربع ركعات تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب ويس، وفي الثانية بفاتحـة الكتـاب وحم الدخـان، وفي الثالثـة بفاتحة الكتـاب وآلم تنزيل السـجدة، وفي الرابـعة بفاتحة الكتـاب وتـبـارك المفصل، فإذا فرغت من التـشهد فاحمد الله، واثـن عليه وصل على النبيين واستغفر للمؤمنين، ثم قل: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وارحمني من أن أتكلف ما لا يعنيني، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عنـي اللهـم بديع السـماوات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام أسـألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حبّ كتابك كما علمتني، وارزقني أن أتلـوه على النحو الذي يرضيك عني، وأسـألك أن تنـوّر بالكتاب بصري، وتطلق بـه لسـاني، وتفرّج به عن قلبي، وتشرح به صدري، وتسـتعمل بـه بدني، وتقوّني على ذلـك، وتعيننـي عليه فإنه لا يعينني عـلى الخير غيرك، ولا يوفق لـه إلا أنت. فافعل ذلـك ثـلاث جمـع أو خمسـاً أو سـبعاً تحفظه بـإذن الله ومـا أخطـأ مؤمناً قـط** » فأتى النبـي ﷺ بعـد ذلك بسـبع جمع فأخـبره بحفظه القـرآن والحديث فقـال النبي ﷺ: « **مؤمن ورب الكعبة ، علـم أبا حسن علم أبا حسن** ».

بركـة القـرآن عظيمة لا يمكن رصدها في أسـطر، أو اجتزاؤهـا في صفحات، لأنّ الأمّـة بمجموعهـا تعيش في ظلال بركتـه إلى يوم القيامـة، ولكن لا بأس بالإشارة إلى بعض الصفحات المشرقة في إجابة دعوات أبنائها.

ولاشـك أيضاً أنّ من بين مقدمات إجابـة الدعوات ببركة القرآن الكريم – بعـد أن ينـال الداعي نصيبه ممـا تقـدّمت الإشـارة إليه ممـا يهـذّب الرّوح والبدن – :

* أن يسـتحضر أنـه مـن أهل الله تعـالى وخاصّتـه؛ فعن أنـس رضي الله عنـه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: « **إن لله أهلين مـن النـاس** » قالوا: مَـنْ هُـم يا رسـول الله؟ قال: « **أهل القرآن هم أهل الله وخاصته** »[1].

* ثـم ينتقل المسـلم من حالتـه واستشـعاره بالكينونة من أهـل الله تعالى وخاصّتـه إلى تذكّـر ما هو فيه من عظيم فضل الله تعالى ونعمته، ليأنس بذلك، وتقـرّ عينـه به؛ فقد جـاء عن ابن عبـاس رضي الله عنهما في قولـه تعالى: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾[2] قال: ﴿ **بِفَضْلِ ٱللَّهِ** ﴾: القرآن، ﴿ **وَبِرَحْمَتِهِۦ** ﴾: حين جعلهم من أهل القرآن[3].

* ثـم يباشر بالدعاء والتضرّع والإنابة في ضـوء ما جاء في القرآن الكريم مـن دعوات على لسـان الأنبياء والمرسـلين، وعبـاد الله الصالحـين، والملائكة

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ١/ ٧٤٣، برقم (٢٠٤٦)، وقال: وقد روي هذا الحديث من ثلاثة أوجه عن أنس هذا أمثلها.

(٢) سورة يونس، الآية ٥٨.

(٣) تفسير الطبري ١١/ ١٢٥.

المقرّبين، وبما فيه ظاهر فيض لرحمة الله تعالى على أيّ من مخلوقاته، وبما ادّخره عزّ وجلّ لعباده من نعيم ، ويسأله سبحانه أن يدفع عنه أحوال ومآل من استحقوا الخزي والعذاب الأليم ؛ ممن قصّ قصصهم في القرآن الكريم، أو الذين أتى على ذكر بعض أحوالهم وسلوكياتهم التي كانوا لا يوافقون بها تعاليمه، أو يجاهرون في إتيانها مخالفين بذلك رسله عليهم الصلاة والسلام وما جاؤوا من أجل تحقيقه .

* ثم يحرص كل الحرص على التوجّه إلى الله تعالى بالثابت عن رسول الله ﷺ، من الأدعية والأذكار، على تعدد المناسبات في الحضر والسفر، والليل والنهار، والسِلم والحرب، والصّحة والسّقم، والخاص والعام .

* وكذلك بسائر ما جاء عن عباد الله الصالحين في تاريخ الأمة المشرق، ووثيق علاقتهم بالله تعالى .

* ثمّ بما يجتهد فيه من الدعاء ، على أن لا يعتقد وروده عن الرسول الكريم ﷺ إذا لم يكن ثابت النسبة إليه ؛ إذ اعتقاد ورود شيء عن رسول الله ﷺ من غير دليل ثابت صحيح هو تقوّل على رسول الله ﷺ، ونسبة شيء إليه لم يقله، وهو داخل في الكذب عليه، وقد جاء في الأثر عن ربعي بن حِراش رضي الله عنه ، أنّه قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: قال النبي ﷺ: « **لا تكذبوا عليّ فإنه من كذب عليّ فليلج النار** » [1] .

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ١/ ٥٢ ، باب (٣٨) إثم من كذب على النبي ﷺ، برقم (١٠٦) .

وجـاء عـن عامر بـن عبد الله بـن الزبير عن أبيه قـال : قلـت للزبير : إني لا أسـمعك تحدّث عن رسـول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان ! قال: أما إني لم أفارقه ، ولكن سمعته يقول : « **من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار** » [1] .

ثم عـلى الدّاعي ربّه، الراغـب في حفظ القرآن الكريـم وتعلّمه وتعليمه، والعمل بمقتضاه، لكسـب نوره وبركته وظهور آثاره عليه ؛ أن يلتمس المطعم الحـلال ، والملبـس والمأوى الحلال، ويتحرّى الحلال في كلّ شيء ما اسـتطاع ؛ لتتحقـق له إجابة الدعاء، ويجد آثار القرآن في سـلوكه، فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنـه أنّـه قال: قال رسـول الله ﷺ: « **أيها النـاس إنّ الله طيّب لا يقبل إلا طيبـاً، وإنّ الله أمـر المؤمنين بما أمر به المرسـلين، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾** [2]، وقـال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[3]، **ثم ذكر الرَّجل يطيل السَّفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يـا رب يا رب ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسـه حرام، وغذّي بالحرام فأنّى يُستجاب لذلك** » [4].

وجـاء في صفحـات التاريـخ أن الله تعـالى أكـرم أهـل القـرآن فحقق لهم

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ١/ ٥٢ ، باب (٣٨) إثم من كذب على النبي ﷺ، برقم (١٠٧) .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٥١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧٢ .

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٢/ ٧٠٣ ، باب (١٩) باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، برقم (١٠١٥) .

رجـاءات كثيرة، وأجاب لهم دعوات عريضة في حالات عامة وخاصّة ، تدلل عـلى أثر القرآن الكريم في يقينهم وسـلوكهم وحياتهم، رغـم البلاء الذي كان يُصيب بعضهم ؛ فإنما كان عزاؤهم أن يصبروا لله وفي الله وبالله، ويعلموا بحق أنّ الله تعالى إنما كتب البلاء على خلقه ليرصد مستوى يقينهم بموعوده، ويميّز بعضهـم على بعض على قدر التحمّل والتسـليم لإرادته جـلّ جلاله، وليكتب لهـم ثواب الصبر على البلاء بشـتى أنواعه ومظاهره، قال تعالى: ﴿ .. وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [1]، وقـال سـبحانه :﴿.. وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾[2] .

وظهـر أثـر القـرآن في سـلوك أبنـاء الأمّـة من حيـث الصّبر عـلى البلاء، واستعمال سـلاح الدعاء في الشدائد، وفي السرّاء والضرّاء، والانتفاع من قوّته الظاهـرة ، وسـطوته القاهرة، وسرعـة إجابته الباهرة، وحُسـن التوجّه إلى الله تعالى برغبة الإجابة المطلقة ؛ ومن ذلك ما جاء في سيـرة شيـخ الإقرّاء بالعراق الإمـام محمد بـن أحمد ابـن شَـنَبُوذ البغـدادي (ت ٣٢٨ هـ)، رحمـة الله عليه؛ الـذي قـال فيه أبو بكر الجلاء المقرئ: « كان ابن شـنبوذَ رجلاً صالحاً » ، وقال فيـه الذهبـي : « كان ثـقة في نفسـه، صالحاً ديّـناً، متبحّراً في هذا الشـأن – أي القراءات والقرآن – » [3].

وهو مع ما تقدّم من شهرة فضله ، وعلوّ مكانته وقع له في سنـة (٣٢٣هـ)

(١) سورة الأنبياء ، من الآية ٣٥ .

(٢) سورة الفرقان ، من الآية ٢٠ .

(٣) معرفة القراء الكبار ١/ ٢٧٧، برقم(١٩٢) .

واقعـة تطلّبــت منــه عظيم صبــر، وعريـض دعـاء ؛ إذ أُحضر ابـن شـنبوذ رحمـه الله إلى مجلـس الوزير أبي علي ابـن مقلة وزير الـراضي، وأُحضر عمر بن محمد بن يوسف القاضي ، وابن مجاهد ، وجماعة من القراء ، ونوظر ابن شنبوذَ في بعـض آرائـه المتعلّقة بكيفية قـراءة النص القرآني، وببعـض الآثار التي كان يقـرأ عليهـا ، فأغلظ ابن شـنبوذَ في الخطاب على الوزير ، والقاضي ، ونسـبهم إلى قلّة المعرفة ، وأنّهم لم يسافروا في طلب العلم كما سافر؛ فتعجّل الوزير وأمر بضربه[1]، وبينما هو يُضرب ويتألم كان رحمة الله عليه قد سلّم أمره لله عزّ وجلّ

(١) وقد جاء في العبر في خبر من غبر ٢/ ٢١٩، (تحقيق صلاح المنجد) : «.. وفيها أبو الحسن محمـد بن أحمد بن أيوب بن الصلت بن شـنبوذ المقرئ أحد أئمـة الأداء قرأ على محمد ابـن يحيى الكسـائي الصغير وإسـماعيل بـن عبد الله النحـاس وطائفة كثـيرة وعني بالقـراءات أتـم عنايـة، وروى الحديث عن عبـد الرحمن بن محمد بـن منصور الحارثي ومحمد بن الحسين الحنيني، وتصدر ببغداد،وقد امتحن في سنة ثلاث وعشرين كما مرّ وكان مجتهـداً فيما فعل رحمه الله) . وقال ابن الجزري في كتابه النشر في القراءات العشر ١/ ١٤٤ : (وكان إماماً شهيراً وأستاذاً كبيراً ثقة ضابطاً صالحاً، رحل إلى البلاد في طلب القـراءات واجتمـع عنده منها ما لم يجتمع عند غـيره، وكان يرى جواز القراءة بما صحّ سنده وإن خالف الرسم، وعقد له في ذلك مجلس .. وهي مسألة مختلف فيها ولم يعد أحد ذلك قادحاً في روايته، ولا وصمه في عدالته.. » .

هذا .. ولئلا يسـاء الظن بالعلماء والقراء كابن مجاهد رحمه الله وغيره ممن برتبته وفضله فيمكننـا أن نـؤّول لهـم موقفهم هذا مع ابن شـنبوذ : أنهم حرصوا على عدم اتسـاع الرواية بالقراءات الشـاذة أو الانشـغال بها عن الصحيحة الثابتة، أو انفراد أحد بشيء مـن أُمـور الدِّيـن لم يُنقل الإجماع فيـه؛ ونتج – فيـما بعد – عن الحرص نفسـه ذهاب العلماء إلى تأديب من أصرّ على القراءة بالشـاذّ من الروايات، وحبسـه حتى يرتدع عن فعلته . ينظر كتاب الأحرف السـبعة في القرآن الكريم ، للدكتور حسـن ضياء الدين عتر ، ص ٣٢١-٣٢٥ .

فيـما يحلّ به ، وتوجّه إلى ربـه وناصره أن يدافع عنه جلّ جلاله، ويخلّصه مما هو فيـه ببركـة كتابه، وكان يهوّن على نفسـه بعظيـم يقينه بموعود الله تعـالى ، وأنّه عزّ وجلّ سـينجز وعده في الدفاع عنه كما تعهّد بالدفاع عن الذين آمنوا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ..﴾ [1]، وكذلك بما عَلِمَه من فضل الله تعالى عليه، وسَعة كرمه وسرعة إكرامه ونجدته لعبيده ، وبما اطمأنّ له قلبه رحمة الله عليه من أن الله تعالى يؤيّد رسله ومَنْ كان على أثرهم في الصبر والثبات على الحق وسلوك سبيله ؛ الذين آمنوا به وبموعوده في الحياة الدنيا ويوم القيامة، بقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[2]، وابتـدأ ابـن شـنبوذ البغـدادي رحمـة الله عليه يجهـر بالدعـاء على الوزيـر؛ بأن يشـتت الله شـمله، ويقطع يده . قال أهل العلم والتاريخ : وقد اسـتجاب الله دعـاءه على الوزير ابن مقلة ؛ فذاق الذّل، وقطعت يده ، وهلك في السّـنة التي توفي فيها ابن شنبوذ رحمه الله[3].

ومثـل هذه الوقائـع الكثيرة في التاريـخ لتجعل المرء على تنوّع مسـمياته،

---

(١) سورة الحج ، من الآية ٣٨ .

(٢) سورة غافر ، من الآية ٥١ .

(٣) ومما جاء في العبر في خبر من غبر ٢/ ٢١٢ ، خبر موت الوزير ابن مقلة، قال: (..وأما ابن رائق فإنه وقع بينه وبين ابن مقلة وأخذ ابن مقلة يراوغ ويكاتب فقبض عليه الراضي بـالله وقطـع يده ثـم بعد أيام قطـع محمد بن رائق لسـانه لكونه كاتـب بجكم فأقبل بجكـم بجيوشـه من واسـط وضعف عنـه ابن رائـق فاختفى ببغـداد ودخل بجكم فأكرمـه الـراضي ولقبـه أمـير الأمـراء...) ، وفي ٢/ ٢١٧ : « ... وفيهـا الوزير أبـو علي محمد بن علي بن حسـن بن مقلة الكاتب صاحب الخط المنسـوب وقد وزر للخلفاء غير مرة ثم قطعت يده ولسانه وسجن حتى هلك وله ستون سنة » .

واختلاف ألقابه وانتهاءاته، وتعدد درجاته، واتساع سطوته، يراجع نفسَه قبل أن ينْصِب العداء لأهل القرآن، أو يحدِّث نفسه في إيذائهم، فإنّ عِبَر التاريخ عظيمة تدفع عقلاء الأمم والشعوب عن الوقوع في الظلم، وتحثهم على الفضيلة والاستنارة بها، والإفادة من تجاربها .

وامتلأت صفحات الأمة أيضاً بمواقف ترصد عظيم صلة أبنائها بالله تعالى، وسريع دفاع الله عزّ وجلّ عن عباده، ولا سيما أهل الإيمان منهم، وتبيّن آثار اشتغالهم بالقرآن وأثره في سلوكهم، وعوائده الإيجابية على الروح والجسد، وكيف كانت تطوف في الآفاق سمعة مكرمة الله تعالى لهم بإجابة الدعاء، وحرص الأجيال على تناقلها، ولا سيما في سير العلماء السّابقين من أهل القرآن، فجاءت العديد من الإشارات والعبارات والوقائع والدلالات التي تحرر كونهم من أصحاب الدعوات المجابة، وتُثبت ذلك في فضلهم، من ذلك :

* ما جاء في سيرة العبد الصالح الأستاذ أحمد بن الحسين ابن مهران المعروف بأبي بكر الأصبهاني (ت ٣٨١ هـ)، توفي وله ست وثمانون سنة، رحمة الله عليه؛ إذ روى عنه الإمام أبو عبد الله الحاكم النيسابوري صاحب المستدرك على الصحيحين، وقال في فضله: « كان إمام عصره في القراءات، وكان أعْبَدَ مَنْ رأينا من القرّاء، وكان مُجَاب الدعوة »[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٠٧، برقم (٢٩٤).

* ومنهم مَنْ شهدت له الأوراق، وخطَّ مآثره الوُرّاق، وطاف الناس بذكر فضائله في الآفاق؛ كالإمام العلامة المقرئ مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ) رحمة الله عليه[1]، إذ كان خيرّاً متديّناً مشهوراً بالصلاح وإجابة الدعوة، مع ما شهدت له به الخليقة من العلم والفضل وكثرة التأليف في علوم القرآن، وجودة العقل وحُسن الفهم والخُلُق؛ وقد جاء في سيرته: أنّه دعا على رجل كان يسخر منه وقت خُطبة الجمعة، فأُقعِد ذلك الرّجل[2].

ولا شك أن ذلك السّاخر قد وقع في المنهي عنه، وخالف توجيه الله تعالى للمؤمنين بأن لا يسخر بعضهم من بعض، لاحتمالية أن يكون مَنْ سُخر منه واستهزئ به خيراً من الساخر، وهذا في حال استواء رتبة الإيمان، والحال هنا فيه اختلاف بيّن؛ إذ نال ابن أبي طالب الخيرية على الرجل برتبة العلم فوق الإيمان، ولاشك أن اختلاف الرّتبة معتبر في الإسلام؛ فقد جاء عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس

---

(١) تنظر أخباره وسيرته في نزهة الألباء في طبقات الأدباء١/ ١٥٠، ووفيات الأعيان ٥/ ٢٧٤-٢٧٧، برقم (٧٣٧)، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٣٩٤-٣٩٦، برقم(٣٣٣).

(٢) ومما جاء في وفيات الأعيان ٥/ ٢٧٥: «.. ما حكاه أبو عبد الله الطرفي الكتاني القرطبي المقرئ (ت ٤٥٤هـ)، قال: كان عندنا بقرطبة رجل فيه بعض الحدّة، وكان له على الشيخ أبي محمد المذكور تسلّط، وكان يدنو منه إذا خطب فيغمزه ويحصي عليه سقطاته، وكان الشيخ كثيراً ما يتلعثم ويتوقف، فحضر ذلك الرجل في بعض الجمع، وجعل يحدّ النظر إلى الشيخ ويغمزه، فلمّا خرج معنا ونزل في الموضع الذي كان يقرأ فيه قال لنا: أمّنوا على دعائي، ثم رفع يديه وقال: اللهم اكفنيه، اللهم اكفنيه، اللهم اكفنيه، فأمّنّا، قال الطرفي: فأُقعد ذلك الرجل، وما دخل الجامع بعد ذلك اليوم».

منازلهم »[1] ، مع ما جاء في القرآن من قول الله تعالى: ﴿ .. نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾[2] ، وأن الإمام مكي رحمه الله من حيث الظاهر والرّتبة أفضل من الرجل السّاخر ، ولهذا نلحظ استحقاق السّاخر للعقوبة ، وسرعة نزول النصر من الله تعالى تأييداً لعبده المؤمن العالم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3].

ومما يلحظه القارىء أنّ الأمة عانت وستعاني أمثال هذا السّاخر، وإن ذلك لمن البلاء الذي حثّ الله تعالى رسوله ﷺ على الصبر عليه في صورة من صور تحمّل أعباء الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، ونشر تعاليمه، بقوله جلّ وعزّ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾[4].

ومما لا شك فيه أيضاً: أنّ فئة السَّخرة تتجدد بتجدد الأجيال الواعية، وكأنها من حيث الوجود قضية متلازمة، وقد يصل حال البعض منهم إلى التطور نحو البغض لأصحاب الفكر الوقاد، وفي أحايين كثيرة إلى وقائع تشابه في قصّتها واقع ذلك الرجل السّاخر بابن أبي طالب من حيث التسفيه

---

(١) المسند المستخرج على صحيح مسلم، لأبي نعيم الأصبهاني ١/ ٨٩، برقم (٥٧).

(٢) سورة يوسف ، من الآية ٧٦ .

(٣) سورة الحجرات ، الآية ١١ .

(٤) سورة االنحل ، الآية ١٢٧ .

والاستهزاء والاستصغار ومحاولة التبكيت، أو التعالم على الخلق، وقد ينصّب السّاخر نفسه قاضياً على خلق الله، وأنّه ومَنْ وافق هواه هم أهل العلم دون غيرهم، وما ذلك إلا تنطّع وتحكّم لرواسب ذهنية خاصة، وتظاهر يدل على قلّة معرفة بالنفس الأمارة بالسوء ومكائدها، وحط لأقدار أهل القرآن وطلبة العلم، وعيش في ظلال خوف عريض من أن تفوتهم الدنيا ، أو إدراك حقيقة ما هم عليه من الأهواء والأمراض والأغراض، وأنّهم أصبحوا جزءاً من مخلفات متراكمة خلطت سطورها الأمزجة النفسانية، ونفثت فيها الوساوس الشيطانية ؛ فظهرت سلوكياتهم السلبية تجاه أبناء الأمة المؤمنين، حتى أصبحت سجية يتعاملون بها مع كلّ مَن يعتقدونه أو يتوهمونه منافساً لهم عداك عمن شهد العقلاء بفضله وحفظوا مكانته، وليس بغريب أن نلحظ الكثير من أقوال السّاخرين وصنائعهم: كيف جاءت لتحقق بعض المآرب، ولا سيما المنافسة على الدنيا والتسابق على فُتاتها، وقضاء شهوة التسلّط على الخلق، وبعض المكاسب على المستوى الفردي.

وقد اتضح لنا وسيتضح للأجيال الواعية، اللاحقة بركب الصادقين ما أصاب العديد من أولئك ويصيبهم من عيّ عن إدراك آلية التعامل مع الآخرين وفق منظومة الوقت، وقصور في إدراك ضرورة المرحلة، وأنّ لكل زمان لغته وسمته وأَمَارته، وأنّ واقع الأمة اليوم يدفعنا لنجمع بين القديم والحديث ، ونذب آثار المظلم من القديم، ولا سيما الذي لا يعود على الأمة وأبنائها وأجيالها إلا بالإحباط، والتقهقر، والهروب من مجابهة الحدث، وعدم تحمّل المسؤوليات الدينية والتاريخية، أو الدّعة والكسل والتراخي والتسويف والاستهانة

بواجـب الوقت وضرورته، وعدم القيام بواجـب المرحلة، والتخلي عن توفير ما يسـدّ احتياجات الأمة في أزماتها؛ ولكي تنجـح الجهود في النهوض بالأمـة لا بـد أن يكون ذلك الإنجاز كلّـه بعيداً عن الترهات أو الأضاليل، ومتجاوزاً لسـائر العقبات والمثبطات التي تُفشـل جهود نشر دين الله تعالى أو الدعوة إليه جلّ جلاله.

وفي الوقـت نفسـه لم يصـل البعـض ممَنْ يسـخر برجال الأمـة، وإن كان يتسربل بزيّ علمائها ومفكريها و دعاتها أو يشـاركهم الأوطان والمسميات، إلى فهـم حقيقة أن الـدور المترتب على الأمّـة وأبنائها ؛ يتجسـد في عظيم حاجتها وأجيالها إلى تكاتف الجهود، ووحدة الهدف، وسرعة الانطلاق بشتى المسارات والوسـائل للوصـول بكافـة المجالات إلى الهدف المنشـود، وأن يسـدّ بعضهم خلل البعض من أجل بناء أسـس عريضة يترجّح بها دور الأمة الميداني في الغد القادم، ويُستجلب في ضوئها استحقاق تمكين السنن الإلهية، وأن يكون الدور للأمـة لا عليهـا ، وتحقيق هذه النوايـا وما له علاقة بها يحتـاج إلى كثرة دعاء لا إلى التـمادي في الادعاء ، وأن يحـرص المرء على تصحيحها، وهو ما يتطلّب همّة الرّجال الذين صدقوا العهد مع الله ورسوله ﷺ، ولله عاقبة الأمور.

* كذلـك من الذيـن اشـتهرت إجابة رغبتهم عنـد الدعاء الإمـام العَلَم عثـمان بن سـعيد ، المعروف بـأبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ) رحمـة الله عليه، إذ جـاء في سـيرته[1] أنّه أحـد الأئمة في علم القـرآن ورواياته وتفسـيره، ومعانيه

---

(١) تنظـر معرفـة القـراء ١/ ٤٠٦-٤٠٩، برقـم(٣٤٥)، ومرآة الجنـان ٣/ ٦٣، وغاية النهاية ١/ ٥٠٣-٥٠٥ .

وطرقه وإعرابه، وله معرفة بالحديث وطرقه، وأُشتهر بحسن الخط، والضبط الجيد، والحفظ والذكاء والتفنن، مع ما كان عليه من الدِّين والورع، وإجابة الدعوة، وقد مشى صاحب « دانية » أمام نَعْشِهِ، وشيّعه خلقٌ عظيم، لجلالة قدره بالقرآن، وظهور آثاره وأنواره عليه، وتوظيفه لهذه الآثار في إصلاح سلوك مجتمعه، وإتحافه لمنظومة أمته، وانتفاعهم ببركة دعائه وصدق توجهه، وسلامة منهجه.

* ومن الذين تنوّرت صفحات الأمة بذكرهم ، ولا سيما في إجابة الدعاء؛ شيخ القراء بقرطبة علي بن خلف الأندلسي (ت٤٩٨هـ) رحمة الله عليه ؛ إذ كان من جلّة المقرئين وعلمائهم، شُهِر بالخير والزهد، والتقلل والصلاح، والتواضع، وشُهرت إجابة دعوته، وعُلِمتْ في غير ما قصّة كما قال ابن بشكوال[١].

* ومن الذين أكرم الله تعالى الأمة بصفحتهم المشرقة وتغنّى بها تاريخ رجالها، الشيخ الصالح العابد محمد بن أبي محمد بن أبي المعالي(ت٥٩٧هـ) رحمة الله عليه؛ فقد جاء في سيرته أنّه تصدّر للإقراء والتلقين ستين سنة، حتى لقّن الآباء والأبناء والأحفاد احتساباً لله تعالى، وكان لا يأخذ من أحد شيئاً، ويأكل من كسب يده، كبير القدر، كثير الخير ، أمّاراً بالمعروف ، نَهّاءً عن المنكر، وكان وقوراً مستجاب الدعوة، حُملتْ جنازته على الرؤوس حملها خلق كثير، وما رُئي جمع أكثر من جمع جنازته في وقته، ودُفن بصفّة بشر الحافي رحمة الله عليهما [٢].

---

(١) تنظر الصلة ٢/ ٤٢٣-٤٢٤، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٤٦٠، برقم(٤٠١).

(٢) تنظر تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٤٧، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٥٦٩، برقم(٥٢٥).

ولا شـك أنّ سـيرة وحياة ابن أبي المعالي رحمه الله في اسـتثمار عمره ووقته في النافع المفيد، واستعماله بدنه وسائر حواسّه وروحه في خدمة القرآن الكريم وتـذوّق معانيه، وحرصه على إحراز الخيرية والفضل بتعلّمه وتعليمه القرآن ؛ إنمـا هـي من نـور ما رواه سـيّدنا عثمان رضي الله عنـه عن النبـي ﷺ أنّه قال: « **خيركم من تعلّم القرآن وعلمه** »[1] ، وفي رواية أخرى : أنّ النبي ﷺ ، قال: « **إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه** » [2].

ثم إنّ حَجْب النَّفس عن فُتات الناس، من الصدقات وغيرها، والاعتزاز بطلـب الحلال في كلّ شيء ، ومحاسـبة النَّفس عـلى كلّ شيء إنّما هي على قاعدة سـلف الأُمة من الصالحين ، والتي يجسّـدها ميمون بن مهـران رحمة الله عليه، بقوله: « لا يكون العبد تقيّاً حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه، أو أشدّ من محاسبته لشريكه؛ لينظر من أين مطعمه ومشربه ومكسبه » [3] .

ولا بـد مـن ترويـض النَّفـس للمسـابقة في الخـيرات، وتوجيههـا للأمر بالمعـروف والنهي عن المنكـر ؛ ليذوق صاحبها تحقيق إجابة الدعوات، ويقف على الحقيقة الحسنة والخاتمة بالحسنى التي اختُص بها أصحاب النوايا السليمة، والأعمال الصالحة، ولاشك أنّه سلوك الذين أغدق الله عليهم بالمغانم والمكارم

---

(١) أخرجـه الإمـام البخـاري في صحيحـه ٤/ ١٩١٩ ، بـاب (٢١) باب خيركـم من تعلم القرآن وعلمه، برقم (٤٧٣٩) .

(٢) أخرجـه الإمـام البخـاري في صحيحـه ٤/ ١٩١٩ ، بـاب (٢١) باب خيركـم من تعلم القرآن وعلمه، برقم (٤٧٤٠) .

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في سننه ٤/ ٦٣٨ ، برقم (٢٤٩٥) أنه روي عن ميمون ابن مهران. و في مصنف ابن أبي شيبة بسنده إلى ابن مهران ٧/ ١٩٥ ، برقم (٣٥٢٧١).

والـبركات، ونعّمهـم بالمـسرّات في الحيـاة وبعد المـمات، وهو الـذي ترنو إليه النفوس لتحقق من خلاله مجتمعاً قرآنياً سليماً يحب الله ورسوله .

ولمّا حقق السـابقون من أهل القرآن ذلك في مسـيرتهم الوضّاءة، وتحقق نواهـم في القرب من الله تعالى بتطبيق كتابـه، والنّفع لعموم الخلق بنشر هديه، وللمؤمنـين بسـلامة لفظــه ، وحُسـن التعامـل مع شريعتـه، وفازوا بسـلامة المنسك ؛ جاءت أسـفار التاريخ وصفحاته المشرقة تشهد لهم بذلك، وأطبقت جمـوع الأمـة المتعاقبة - على مدى قرون من الزمـن - تناقل صحّة ما هم عليه، واستقرّ لدى الجميع أنّهم كانوا على أثر النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ وهديه.

* ومـن الذيـن اسـتُنزلت الرّحمـة بندائـه: العـالم الزاهد عبـد الرحمن بن أبي رجاء، المعروف بأبي القاسم الأندلسي (ت٥٤٥هـ) رحمة الله عليه ، إذ جاء في سـيرته: أنّـه كان خطيب المرية سـنة (٥٠٥هـ)، ونزح عنهـا قبل غزوها من قبـل الرّوم سـنة (٥٤١هـ)، وكان مجاب الدعوة . ولاشـك أنّـه رحمة الله عليه بنزوحه حفظ نفسه وعلمه لينفع عموم الناس، ولتبقى من خلاله رايـة القرآن وفكره ومنهجه في إصلاح النفوس والمجتمعات مما يشـعّ في الأمصار، وهو في ذلك أسوة لسائر العقلاء، ولاسيما في زماننا.

* ومن الذين أشرقت سـطور الكتب بتحرير أخباره: الإمام محمد بن عبد الله ، أبو عبد الله ابن الأشـقر الأموي (ت٥٥٩ هـ) رحمه الله ، إذ جاء في سـيرته: أنّـه كان عالي الإسـناد في إقرائه للقرآن، وأنه مـن أهل الفضل، مجاب الدعـوة [1].

---

(١) ينظر معرفة القراء الكبار٢/ ٥٤٨، برقم (٤٩٥)، وغاية النهاية ٢/ ١٨٠ .

* ومن الذين صابروا حتى أذن الله لهم بالإمداد والإقدام، وأكرمهم بعلو القدر وطيب المقام، فطوّف البلاد إلى أن دخل بغداد واستوطنها، وفاضت عليه بركات الكتاب الكريم، وظهر أثره في نفسه وسلوكه يرحمه الله؛ فشاع زهده، وأُشير إليه بالصلاح وإجابة الدعوة، وعادت عليه بركات بغداد وأهلها؛ الخطيب الصالح الزاهد محمد بن إبراهيم، المعروف بأبي القاسم اللَّخْمِي الغَرْناطي المقرئ (ت ٥٨٧ هـ) رحمة الله عليه، وهو مع سيرته الحافلة بكثرة الخصال الحميدة؛ كان له الدور الفاعل في الاشتغال بالقرآن الكريم علماً وتعليماً، مع ما كان يشار إليه من الشمائل المجيدة [(١)].

ح) تحقيق العزّ، ولاسيما لحملة القرآن، والشهادة بفيض نُبلِهم :

إنّ مما هو معلوم بالضرورة أنّ أهل الله تعالى هم أصحاب الصدارة في كلّ عزّ، ورفع الله تعالى رتبتهم على سائر الرتب؛ فالأنبياء والمرسلون ثم حملة الكتب والتعاليم من أتباعهم المؤمنين، ثم كلّ من ساهم في قول الحسنى للناس، أو أمر بصدقة أو معروف أو سعى في إشاعة ثقافة الاعتدال والفكر الوسطي والتفكير الإصلاحي بين الناس، قال تعالى: ﴿ **لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [(٢)].

وجاء في القرآن الكريم بيان مَنْ استحق العزّة الخاصة والعامة تقريراً

---

(١) ينظر معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٧١، برقم(٥٢٧)، وغاية النهاية ٢/ ٤٦.

(٢) سورة النساء، الآية ١١٤.

من الله تعالى، فقال تـعالى مبيّنا استـحقاقه جلّ وعزّ للعزّة الخاصة : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] ، وقـال تبـارك اسـمه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2] ، وفي كـون العزّة عمومها وخصوصها لله تعالى، يقول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[3]، وقـال جـلّ شأنه : ﴿ ..إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[4] .

وأمـا مَـنْ أطاعـه عـزّ وجـلّ، واتبـع أنبيـاءه، ووحّـده وآمـن بـه ربّاً وإلهـاً، وبملائكته، وكتبه، ورسـله ولم يفـرّق بين أحد منهـم، وآمن باليوم الآخـر، وبالقَدَر والحسـاب والجنّة والنـار ، وكلّ غيب أخبر عنه في القرآن الكريـم، أو بلّغه أنبياء الله تعالى ورسـله ؛ فإننا نلحـظ أنّ الله تعالى قد منح هـذا الطائع المتبع العـزة إتحافاً لعملـه وإقدامه ويقينـه ، وكذلك منح أهل الإيمان به هذا الفضل ؛ فألحقهم بكرامة عزّه، وردّ على المنافقين افتراءاتهم، ونفـى عنهم العلـم بمكنونات كرمه ، وبهذا انتفت عن غير المؤمنين سـائر المقدمـات الموصلـة إليـه جـلَّ وعـزَّ، ولاسـيما أهل النفـاق، يقـول تعالى: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي المنافقـون ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨ .

(٢) سورة الحشر ، الآية ٢٣ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١٣٩ .

(٤) سورة يونس ، من الآية ٦٥ .

مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1] .

وتنوّرت صفحات تاريخنا العربي الإسلامي بنور عزّة الإسلام لله والإيمان به ؛ ولا شك أنّ ما عايشته الأمة من عهود عزّ إنما كان بنفحة من الله تعالى ، وأن وصولها إلى الرتب المشهودة في سائر الميادين سابقاً كان بتوفيقه جلّ جلاله وإمداده لأجيالها، وتهيئته لهم من خلال الإسلام وتعاليمه، والرسول الخاتم وأنموذجه ﷺ في الأمة ، وكذلك من خلال استثمار أبناء الأمة السابقين لطاقات الروح والبدن، وأخذهم بأسباب الوصول بالأمة إلى ما يرضاه ويرتضيه لها سبحانه، وكانوا قد أُمروا بالأخذ بها؛ فعزّة الأُمة إنما تأتت برعاية ربّها العزيز، وإشراقات التاريخ صنعها رجالها بإذن ربّهم أيضاً، وحرروا مواقفها المشرّفة ، وسطّروا ذلك كله في صفحات مجتمعهم المشرقة التي دلّت على عظيم فهمهم لكتاب الله تعالى وأثره في سلوكهم .

* **ومن الصور المشرقة في تأثر الجيل الأول بالقرآن وأثره في حياتهم وتعاملاتهم** ؛ ما جاء في وصف حالهم عند الشدائد، وأنهم كانوا يتنادون في قتال المعتدين بأسماء سور القرآن، ولاسيما في يوم قتالهم لمسيلمة الكذاب ؛ إذ كان من أسمى أهدافهم في تلك الواقعة المحافظة على عزّة دينهم، وأن يصل هذا الدين بتعاليمه السّامية نقيّاً خالصاً كما بلّغه رسول الله ﷺ إلى سائر أجيال الأمة، ويبقى مَنْ بعدهم على أثرهم في المحافظة عليه إلى يوم القيامة؛ وكان

---

(١) سورة المنافقون، الآية ٨ .

شعار الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، ونداء الغَيْرة على الدين فيما بينهم : يا أصحاب سورة البقرة [1] ، لكثرة تشرّبهم القرآن ، ووضوح أثره فيهم.

وجاء في الأثر أيضاً: أنّه لما فتح الله تعالى لرسوله ﷺ مكة، وقد بقيت أيام من شهر رمضان، خرج ﷺ متوجّهاً إلى حُنين لقتال هوازن وثقيف ؛ فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، قال: شهدتُ مع رسول الله ﷺ، يوم حُنين ، فلقد رأيت النبي ﷺ وما معه إلا أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فلزمنا رسول الله ﷺ فلم نفارقه ، وهو على بغلته الشهباء التي أهداها له فروة بن معاوية الجذامي ، فلما التقى المسلمون والمشركون ولّى المسلمون مدبرين ، وطفق النبي ﷺ يُركِض بغلته نحو الكفار ، وأنا آخذ بلجامها أكفّها إرادة أن لا تُسرع ، وهو لا يألو ما أسرع نحو المشركين، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بغرز رسول الله ﷺ ، والنبي ﷺ يقول: **أنا النَّبي لا كَذِب، أنا ابن عبد المطلب** . قال البراء بن عازب: كانت هوازن رماة فلما حملنا عليهم انكشفوا، وكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ، وانكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ ، ولم يبق معه إلا العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث، قال البراء: والذي لا إله إلا هو ما ولّى رسول الله ﷺ دبره قط ، قال: ورأيته وأبو سفيان آخذ بالركاب، والعباس آخذ بلجام دابته ، وكانت بغلته شهباء، ثم قال للعباس: ناد المهاجرين والأنصار - وكان العباس رجلاً صيّتاً -فجعل ينادي: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة؛ فجاء المسلمون حين سمعوا صوته عنقاً واحداً، وأخذ رسول الله ﷺ بيده كفاً من

---

(١) ينظر: الدر المنثور ، للسيوطي ١/ ٥٤.

الحصى فرماهم - أي الكفار - بها، وقال: شاهت الوجوه، فما زال أمرهم مدبراً وجدّهم كليلاً[1] حتى هزمهم الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]، ولم يبق منهم يومئذ أحد إلا وقد امتلأت عيناه من ذلك التراب، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

وفي رواية العباس: وكان ﷺ يحمل على الكفار فيفرون، ثم يحملون عليه فيقف لهم، فعل ذلك بضع عشرة مرة. وناهيك بهذا الموقف شهادة صدق على أنه ﷺ كان في الشجاعة ورباطة الجأش سباقاً للغايات القاصية، مقداماً في سبيل الله تعالى، يستحضر تأييده من عند الله العزيز الحكيم[4]، وفي خضم ذلك كلّه يقول: **يا رب ائتني بما وعدتني**، وقال ﷺ للعباس وكان صيتاً: صح

---

(١) ينظر الكشف والبيان، لأبي إسحاق الثعلبي النيسابوري ٥/ ٢٣، تحقيق ابن عاشور. وقد جاء ت الروايات (وحدهم كليلاً) وأثبتّ ما جاء في الكشف وهو الأنسب بين توافق رسم المنقول والمعنى، والله أعلم.

(٢) سورة الأنفال، الآية ١٧. ويُتنبّه إلى ما ذهب إليه أكثر أهل التفسير: أن الآية نزلت في رمي النبي عليه الصلاة والسلام القبضة من حصباء الوادي يوم بدر حين قال للمشركين: شاهت الوجوه ورماهم بتلك القبضة، فلم تبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء. ينظر أسباب النزول للواحدي ١/ ١٥٦.

(٣) سورة التوبة، الآية ٢٦.

(٤) ينظر التفسير الكبير للرازي ١٦/ ١٨-١٩. وتفسير السمعاني ٢/ ٢٩٩.

بالناس، فنادى الأنصار فخذاً فخذاً ، ثم نادى: يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سـورة البقـرة ، يـا أنصار الله وأنصار رسـول الله، يـا أصحاب الشـجرة هـذا رسول الله ، وقد قال العباس: فو الله لكأني عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، ينادون: يا لبيك يا لبيك، فرجعوا وأقبل المسلمون فاقتتلوا هـم والكفار وقاتلوهم، فنادوا الأنصار ، وارتفعت الأصوات، وهم يقولون: يـا معشر الأنصـار يا معشر الأنصار ، ثم قصرت الدعـوات على بني الحارث ابن الخزرج ، فنادوا: يا بني الحارث ابن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطوّل عليهم إلى قتالهم، ثم أخذ رسـول الله ﷺ بحصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار ، ثم قال: **انهزموا ورب الكعبة، انهزموا ورب الكعبة.**

وكـما قـال الـبراء بـن عـازب لأحـد المسـلمين وهـو يسـأل عـن موقف رسـول الله ﷺ وصحابتـه: أكنتم وليتـم يوم حنين يا أبا عمارة؟! فقال: أشـهد عـلى نبـي الله ﷺ ما ولّى ، ولكنّه انطلق إخفـاءً من الناس، وحسر إلى هذا الحي مـن هوازن وهم قـوم رماة فرموهم برشـق من نبل كأنها رجل مـن جراد[1] ، فانكشفوا فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته فنـزل ودعا واسـتنصر وهو يقول : « **أنا النبي لا كـذب .. أنا ابن عبد المطلب، اللهم نزّل نصرك** » ، قال البراء : كنّا والله إذا احمر البأس نتقي به ، وإن الشجاع منّا للذي يحاذي به – يعني النبي ﷺ – ووقعت الهزيمة على الكفار[2].

---

(١) جاء في شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٢٣١ ، رقم (٣٣٢٦) : (يَعْنِي كَأَنَّهَا قِطْعَة مِنْ جَرَاد ، وَكَأَنَّهَا شُـبِّهَتْ بِرِجْلِ الْحَيَوَان لِكَوْنِهَا قِطْعَة مِنْهُ) . وفي النهاية لابن الأثير ٢/ ٢٠٣ : رجل من جراد: هو بكسر الراء: الجراد الكثير.

(٢) أخـرج بعضـه الإمام مسـلم في صحيحـه ٣/ ١٤٠١ ، برقم (١٧٧٦) ، والنسـائي في السـنن الكـبرى ٥/ ١٩٧ ، برقم (٨٦٥٣) ، وفي مسـند أبي عوانـة٢: ج ٤/ ٢٧٧ ، =

وقال سـعيد بن المسيب: حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين قال: لما كشـفنا المسلمين جعلنا نسوقهم، فلما انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء ، تلقانا رجال بيض الوجوه حسان، فقالوا : شاهت الوجوه، ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا .

وذكـر العلـماء فوائد في نـزول الملائكة مع الـذي تقدّم ذكره منهـا : إلقاء الخواطر الحسنة في قلوب المؤمنين [1].

ولا شـك أنّ النبـي ﷺ لـمّا رأى في أصحابه تأخراً ؛ جـاء توجيهه بأن يُنـادى بهم ليتذكـروا ويُقدموا عـلى أداء الفريضة، وقد فعلـوا ذلك لـمّا قيل لهم: يا أصحاب سورة البقرة ، وجعل ﷺ عمّه العباس رضي الله عنه يعمل على مناداتهم: (يا أصحاب الشـجرة) يذكّرهم عهد بيعة الرضوان ، والميثاق مع الله ورسـوله، ويذكّرهم بفضل ما علموه من القرآن وسورة البقرة ، وما يحثّهم القرآن الكريم على التزامه في القتال من الثبات ونصرة الرسـول ﷺ، لينشطهم بذلك ؛ فجعلوا يُقبلون لنجدته، ونصرة الدِّين، وإعلاء كلمة الحق من كل وجه.

وكذلك الحال يوم اليمامة في قتال أتباع مسـيلمة جعل الصحابة ينسحبون مـن القتـال لكثافة جيـش بني حنيفة ؛ فجعـل المهاجرون والأنصـار يتنادون:

= برقم (٦٧٤٨)، وفي الدر المنثور ، للسيوطي ٤/ ١٦٠ . إذ قال: أخرجه عبد الرزاق وابن سـعد وأحمد ومسـلم والنسـائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن العباس .

(١) ينظر تفسير أبي سعود ٤/ ٥٦ .

يا أصحاب سورة البقرة ، يحثّ بعضهم بعضاً على الثبات، ويسجلون للأمّـة: أن انطلاقهـم في الدفـاع عن الدين وعز المسـلمين إنما يكون مـن القرآن ، وأن مفزعهم إليه في سائر الملمّـات ، حتى فتح الله عليهم[١].

وسـطّر أهـل القـرآن مفاخـر عظيمـة ، تجسّـدت في دفاعهم عـن الدِّين، وحمايتهـم لرسـول الإسـلام الخاتـم ﷺ، وبقائهم عـلى عهد الدفـاع والحماية لأرض الإسـلام وأبنائـه ومقدسـاته من بعـده؛ ولعل ما ذكرناه مـن مواقفهم التاريخيـة العظيمـة في مقارعة المعتدين ومحاربة المرتدين عـن الدين؛ خير مثال على هذا الأنموذج الرائد، وتأثّره بتعاليم القرآن، وتأثير كتاب الله في سلوكهم العـام والخـاص ؛ فمن ذلـك أيضاً ما أخرجـه ابن الأنبـاري في المصاحف من طريق سـليمان بن أرقم عن الحسـن وابن سـيرين وابن شـهاب الزهري وكان الزهري أشـبعهم حديثاً قالوا : « لمـا أُسرع في قتل قراء القرآن يوم اليمامة قتل معهـم يومئـذ أربعمائة رجل .. لقي زيد بن ثابت عمر بن الخطاب فقال له : إن هذا القرآن هو الجامع لديننا، فإن ذهب القرآن ذهب ديننا ، وقد عزمت على أن أجمع القرآن في كتاب »[٢] ، وفي كثرة الشهداء من أهل القرآن نستحضر عظيم

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٦ .

(٢) ينظر الـدر المنثور ١/ ٧٢٢-٧٢٣ . هذا .. ويُشـار هنا إلى ما ذكـره أهل التاريخ: أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول مَنْ أشـار على الخليفة الأوّل أبي بكـر الصِّديّـق رضي الله عنه بجمـع القرآن في مصحف واحد حـين كثُر القتل واستحرّ في القراء في وقعة اليمامة، حيث قتل فيها خمسمائة من حملة القرآن، فخشي رضي الله عنـه أن يذهـب شيء مـن القرآن، فأشـار بـأن يُكتب في صُحُـف، ووافقه أبو بكـر على ذلـك، ووكّل الصِّدّيق هذه المهمة لزيد بن ثابـت الأنصاري ومجموعة مـن الصحابة ووافقهما الصحابة على ذلك؛ فكُتِـب القرآن في صُحُف حتى يحفظ ولا يضيع منه شيء .

اندفاعهــم مــن أجل المحافظة على الدِّين، وكيف كان ذلك دافعاً لقادة الأمة في حفظ القرآن في كتـاب واحد لئـلا يضيع.

وممّا يجسّـد عزّ أهل القرآن أيضاً شـجاعة الإمام الجـدّ علي بن أبي طالب رضي الله عنـه عندمـا لم يـرض بعصيان الله تعـالى، أو المداهنة والسـكوت على الهـوان في أحلك الظروف؛ فقد جاء في الأثر عن عبد الواحد الدمشـقي قال: نادى حوشـب الحـيري علياً يوم صفـين، فقال: انصرف عنّا يـا ابن أبي طالب فإنّـا ننشـدك الله في دمائنا ودمـك؛ نخلي بينك وبين عراقـك، وتخلي بيننا وبين شـامنا، وتحقـن دماء المسـلمين، فقال عـلي: هيهات يـا ابن أم ظليـم؛ والله لو علمـتُ أنّ المداهنة تسـعني في ديـن الله لفعلت، ولكان أهون عـليّ في المؤونة، ولكنّ الله لم يرض من أهل القرآن بالادهان والسكوت والله يُعصى [(١)] .

وهذه العزّة التي نالها أهل القرآن في بذل كل غال ونفيس من أجل دين الله وإعـلاء كلمته؛ توارثت الأمة حفظهـا لهم، والتذكّر بهـا، والتخلّق بأخلاقهم في ميادين عديـدة؛ فمـن ذلـك مـا جاء في سـيرة خلف بـن هشـام البغدادي (ت٢٢٩هـ) رحمة الله عليه، إذ قال فيه الحُسـين بن فَهْم رحمه الله: « ما رأيتُ أنبل من خلف بن هشام، كان يبدأ بأهل القرآن، ثم يأذن للمحدّثين ..»[(٢)] .

وهـذا يدلل على عظيم مكانة أهل القرآن في نفوس أهل العلم، وبذلك يـتّضـح المنـهـج لعموم الأمـة، وتـتـجلى بـركات إجلال القـرآن وأهله في سلوكهم .

---

(١) ينظر حلية الأولياء ١/ ٨٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء١٠/ ٥٧٩، برقم (٢٠٣) .

وقد حدّث عن حال الإمام خلف البغدادي وعزّته بالله، وإكرامه لنفسه لما لها من علم بكتاب الله وتعليمه، ورّاقُه أحمد بن إبراهيم؛ إذ قال: سمعته يقول : قدمتُ الكوفة فذهبت إلى سُليم ، فقال ما أقدمك ؟ قلتُ: أقرأ على أبي بكر بن عيّاش ، فقال : ألا تريده ؟!، قلتُ : بلى ، فدعا سُليم ابنه ، وكتب معه ورقة إلى أبي بكر بن عياش ، لم أدر ما كتب فيها، فأتيناه فقرأ الورقة وصعَّد فيَّ النظر – وهو سلوك فيه شيء من الازدراء –، ثم قال: أنت خلف؟ قلتُ : نعم، قال: أنت لم تخلف ببغداد أحداً أقرأ منك !، فسكتُّ ، فقال: اقعد هات اقرأ ، قلتُ : عليك ؟ ، قال: نعم ، قلتُ : لا والله لا أقرأ على مَنْ يستصغر رجلاً من حَمَلة القرآن، ثم خرجتُ، فوجّه إلى سُليم يسأله أن يردني فأَبَيْت[1] .

وهذه العزّة لا بد أن تتوارثها الأجيال في سائر معاملاتها، فلا تقبل شيئاً ممن يستصغر أهل القرآن أو حملته، وإن كان المستصغِر يُحسب عليهم ، أو يتظاهر أنّه منهم.

خ) المحافظة على العقل وأفضلية الإيمان ببركة القرآن الكريم :

جاء في الأثر عن عبد الملك بن عمير قال : كان يقال: « أبقى الناس عقولاً قراء القرآن » [2] ؛ لما شهدت الأمة من حضور بركة القرآن والعلم به في حياة أهله وإن طالت أعمارهم ، وهو كثير في صفحات تاريخنا ، ويدل على نور

(١) ينظر المصدر السابق ، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٢١٠، برقم(١٠٣).
(٢) شعب الإيمان ٢/ ٥٥٧ ، برقم (٢٧٠٨) ، ومصنّف ابن أبي شيبة ٦/ ١٢٠، برقم (٢٩٩٥٦) . والعمر والشيب، لابن أبي الدنيا ١/ ٧٥، برقم (٨٠) .

أهـل القرآن ، وبقاء عقولهم تعمل في منظومته، يتعلّمون ويُعلِّمون، ويعظِون الناس بمعارفه، وتتعظ به نفوسهم .

* ومما سجّله التاريخ أيضاً أن عموم أيام حياة أهل القرآن، ولاسيما الأخيرة منها شهدت تميّزاً في الأداء، وانتفت عنهم صفة الدخول في بوتقة أرذلية العمر التي وصف القرآن بها البعض من بني الإنسان، بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[1]، وقد حدد بعض المؤرخين عمر الابتداء بمرحلة النسيان هذه، أو ذهاب العقل بتواريخ كثيرة، ووصفوا هذه المراحل بالخوف والخرف[2] .

---

(١) سورة النحل، الآية ٧٠ .

(٢) ويسميه البعض بالزهايمر . هو بمثابة مرض تنكسي بدئي، وهناك من اعتبره مرضاً عقلياً ذهانياً يصيب الخلايا العصبية في المخ، ويؤدّي إلى إفسادها وإلى انكماش حجم المخ . كما يصيب الجزء المسؤول عن التفكير والذاكرة واللغة؛ إذ يظهر على المريض تناقص في الذاكرة والذكاء، ويمكن أن يتسبب في أمراض أخرى كاختلال العقل، وانخفاض القدرات العقلية لكبار السن .
وشخصّه كثيرون بالداء الخطير والمميت، وعزوا تفاقمه تدريجياً ؛ لترسب بعض البروتينات المسماة «أميلويد» على مسالك الأعصاب، مما يؤدي إلى خلق تشوهات في تلك المسالك. كما أن الملايين من خلايا الأعصاب تتلف فيتقلص حجم المخ.
ويعبّر عنه البعض بالمرض الانحلالي التقدمي (متقدم أو مترقي) ؛ أي يحدث للمخ مع ازدياد العمر وتقدمه، ، ويقود في نهاية المطاف إلى الخرف أو العته.
ينظر كتاب (خرف الشيخوخة (الزهايمر) مرض فقدان الذاكرة khrf alshikhoukhah (a'lzhaimr) mrdh fkdan althakrah)، لغسان جعفر) ، وكتاب(MAYO CLINIC حول داء الزهايمر MAYO CLINIC houl da'a a'lzhaimr، لرونالد بيترسن ،ترجمة، وتحقيق: مركز التعريب والبرمجة، الدار العربية للعلوم).

وقـد كان من هدي النبي الكريم ﷺ الاسـتعاذة بالله تعالى من أن يُردّ إلى أرذل العمـر كـما حدَّث بذلـك أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ كان يدعو : « أعوذ بك من البخل والكسـل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا وفتنة الممات »[1] .

وقـد كان سـعد رضي الله عنـه يعلّم بنيه هـؤلاء الكلمات كـما يعلّم المعلم الغلـمان الكتابـة ، ويقـول: إن رسـول الله ﷺ كان يتعـوّذ منهنّ دبـر الصلاة؛ « اللهـم إني أعـوذ بك من الـجُبْن، وأعوذ بـك أن أُردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر »[2] .

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٤/ ١٧٤١ ، برقم (٤٤٣٠) .

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٣/ ١٠٣٨ ، برقم (٢٦٦٧) . وجاء في المسـتدرك عـلى الصحيحـين ١/ ٧١٦ ، برقـم (١٩٥٧) عن عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه قال : كان من دعاء رسـول الله ﷺ : « **اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشـع، ودعاء لا يُسـمع، ونفس لا تشبع، ومن الجوع فإنّه بئس الضجيع ، ومن الخيانة فإنها بئسـت البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن، ومن الهرم، ومِن أن أرد إلى أرذل العمـر، ومـن فتنة الدجال، وعـذاب القبر، وفتنة المحيا والمـمات، اللهم إنا نسـألك قلوباً أوّاهة مخبتة منيبة في سـبيلك، اللهم إنا نسـألك عزائم مغفرتك، ومنجيـات أمرك، والسَّـلامة مـن كل إثـم، والغنيمـة من كل بر ، والفـوز بالجنّة ، والنجاة من النار** » ، وكان إذا سـجد ﷺ قال: « **اللهم سـجد لك سـوادي وخيالي، وبك آمن فؤادي ، أبوء بنعمتك عليّ وهذا ما جنيت على نفسي، يا عظيم يا عظيم اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب العظيمة إلا الرب العظيم** ». وقال الحاكم عَقِبه: هذا حديث صحيح الإسناد إلا أن الشيخين لم يخرجا عن حميد الأعرج الكوفي إنما اتفقا على إخراج حديث حميد بن قيس الأعرج المكي، فأما أول الحديث في الاستعاذة من الأربع فقد روي عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو. ثم ساق روايتيهما .

ولا شـك أن سـياق العودة إلى أرذل العمر يتّضح بما يصوّره القرآن ؛ فإنما يُـردّ الإنسـان إلى أرذل العمر ليعـود جاهلاً كما كان في حـال طفولته وصباه، « لا يعلم بعد علم شـيئاً » يقول: لئلا يعلم شيئاً بعد علم كان يعلمه في شبابه، فذهب ذلك كلّه بالكبر، ونسي فلا يعلم منه شيئاً، وانسلخ من عقله فصار من بعد عقل كان له لا يعقل شيئاً[1].

وقـد جـاء في الأثر عـن عكرمة رحمة الله عليه أنّه قـال: « من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر »[2].

* وفي تحقيـق الإيمان ، وكون المجتمع المتأثر بالقرآن يُعد أهله أفضل أهل الإيمان إيماناً ؛ سـجّل التاريخ أن عظماء الإسـلام الخاتِم كثيرون بدْءاً بسيد ولد آدم سـيدنا رسـول الله محمد ﷺ وآل بيته الأطهار ، وصحابته الأخيار، وسائر سـلف الأمـة الصالح ممن تطمـح النفـوس إلى الوصول إلى ما كانـوا عليه من هدى، وتتشـوق الأرواح لتحصيل شيء مما نالوه مـن آثار التقى، وتعلو الهمم لبلوغ الرتب التي بلغوها أو مقاربتها ، وتجنّب المهلكات والردى.

وجاءت بشـارات النّبي الكريم سيدنا محمد ﷺ وهو يحفظ لأجيال الأمة السـابقة ، واللاحقـة حقّهـم في الرّتـب والدرجـات، ويبـيّن عظيـم فيض الله تعـالى عليهـم ومنّه وكرمه؛ إذ يقـول مبيّناً أفضل أهل الإيـمان ، فيما يرويه عمر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ جالسـاً فقال رسـول الله ﷺ: « **أتدرون أي أهل الإيمان أفضل إيماناً** ؟ قالوا : يا رسول الله ؛ الملائكة ، قال: **هم كذلك،**

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٢. الدر المنثور ٥/ ١٤٧ .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٢٠ ، برقم (٢٩٩٥٧) .

ويحـق ذلـك لهم، وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها ؛ بل غيرهم! قالوا: يا رسـول الله، فالأنبياء الذين أكرمهم الله تعالى بالنبوة والرّسـالة . قال: **هم كذلك، ويحق لهم ذلك وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها؛ بل غيرهم!** قال عمر: قلنا : فمن هم يا رسول الله ؟! قال : « **أقوام يأتون من بعدي في أصـلاب الرجـال فيؤمنون بي ولم يروني، ويجدون الـورق المعلّق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيماناً** » [1] ، ولا شـك أنهّم أهل العمل بالقرآن، المتمسـكون بهديه ﷺ، الثابتون على الحق والفضيلـة، مهما تبدّل وجه الدنيا أو تغيّرت ظروفها.

ومـن المعلوم أن تحقـق الإيمان في القلـب يدفع صاحبـه إلى التحقق في حـبِّ وسـيلة وصوله المتمثلة برسـول الله ﷺ، ورحمته المهـداة إلى العالمين؛ باعتباره البشـير والنذير من الله تعالى ، وأنّه ﷺ بُعث من أجل بعث الإيمان في الأرواح والأبدان، وبشرعته اسـتقامت منظومة الحياة، وتحققت بآثارها تزكية الذات البشرية، وبسـطت به عدالة التعايش مع سـائر بني الإنسـان، ولا سـيما مع أُمّته ﷺ ؛ إذ جمعتهم أواصر الإسـلام والقرآن ومحبته ومتابعته ﷺ ، وفي هـذا جـاءت بشـاراته النبوية تجسّـد حقيقة الإيمان بـالله تعالى وبه ﷺ، وتصـوّر أبناء الأجيال اللاحقة بجيـل النبوّة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: « **إن أُناسـاً من أمتي يأتون بعدي يود أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله** » [2] .

---

(١) أخرجـه الحاكـم في المسـتدرك على الصحيحـين ٤/ ٩٥ ، برقـم (٦٩٩١) ، وقال: هـذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجـه الحاكـم في المسـتدرك على الصحيحـين ٤/ ٩٦ ، برقـم (٦٩٩٣) ، وقال: هـذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقد جاء في الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين** »[1].

وكذلك قوله ﷺ: « **ثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار** »[2].

وبما تقدّم وغيره كثير تتعلّم الأجيال المسلمة الحاضرة والقادمة أنّ اتّباع القرآن الكريم والآثار الصحيحة الواردة عن النبي ﷺ، وما جاء في شرحهما عن سلف الأمة الصالح، وسلوكهم في ظلالهما ؛ هو السبيل الواضح في إصلاح منظومة السلوك الفردي والأُسري والاجتماعي، وهو الصراط الحق الذي سنلقى الله تعالى عليه، وبه نرغّب الناس في الإسلام؛ فعلى الأُمة أن تعمل على إحياء ذلك كلّه في عقول أبنائها، وتبعث أرواحهم على حبّه، والتمسك به كمنهج خلاص من سائر مشكلاتها، وأن تعمل جهدها فكراً وسعياً في التخطيط لمجتمع إسلامي حضاري، وتُجري الدراسات البناءة من أجل إظهار أثر الاعتدال في الإسلام على الشعوب، وبثّ روحه وتعاليم أصوله -القرآن والسُّنّة- الداعية أبناءه إلى العلم والعمل والحكمة والرقي والحضارة، وتبيّن للعالم أجمع نتاج التفاعل معهما، وآثارهما على المجتمعات في منظومة كاملة متناسقة من حيث الأخلاق ، والعلم، والعمل ، ويكون ذلك أيضاً من خلال تاريخ الأمة المشرق، ومقارنة ثمار الاتباع الحقيقي في واقع مجتمعاتنا بالمجتمعات الأخرى، وتنطلق الأُمة من محورها الحق إلى الأمم التي

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في الصحيح ١/ ١٤ ، برقم (١٥).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في الصحيح ١/ ١٤ ، برقم (١٦).

تنتظر شروق الإسلام في مجتمعاتها، وظهور آثاره الشاملة عليها، ولا سيما في تصحيح المنظومة الأخلاقية في حياة أبنائها، وكذا عقولهم وسلوكياتهم التي خرجت في غالبها عن دائرة حكمة الإيجاد الظاهرة، وخرقت بانحرافاتها سنن الفطرة السليمة الطاهرة.

د) ثبوت أجر المتمسك بالحق إذا اتُبعت الأهواء وآثر النّاس الدنيا :

إن من عظيم مِنَح الله تعالى لعباده المؤمنين؛ إغداقه تعالى عليهم فيض التأييد والنصرة في الدنيا، وثبوت رأفته بهم، وتحقق كرمه وعظيم عطائه لهم في الآخرة ، لاسيما بما وسّع عليهم من مضاعفة الحسنات على الأعمال، واعتبارها جليلة وإن كانت قليلة يستهين بها البعض، ثم بالجنة والعز والنعيم المقيم بعد يوم الفصل، وفي ذلك جاءت آيات عديدة في القرآن الكريم تبيّن سعة فضل الله تعالى وكرمه بعباده ، منها قوله في الحسنات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾[1] .

وقوله في المصّدقين والمصّدقات والصدقات : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾[2] .

وفي الأعمال الصالحة التي تنتج عن الإيمان بالله تعالى يقول عزّ وجلّ: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[3] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٤٠ .

(٢) سورة الحديد ، الآية ١٨ .

(٣) سورة سبأ ، الآية ٣٧.

وجـاء في الأثـر عن عتبة بن غـزوان أخي بني مـازن -وكان من الصحابة رضـوان الله عليهـم أجمعين- أن نبي الله ﷺ قـال : « **إن من ورائكم أيام الصبر المتمسـك فيهنّ يومئذ بما أنتم عليه له كأجر خمسـين منكم** » قالوا : يا نبي الله أو منهم !؟، قال: « **لا بل منكم** » ثلاث مرات أم أربع [(١)] .

ولا شك أن ذلك متحقق في إعطاء الله تعالى العامل بطاعته والمتمسك بهدي رسوله ﷺ في آخر الزمان أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله، وإن كانوا من أصحاب الأفضلية والسابقة في الإسلام؛ فقد حدّث أبو أمية الشعباني قال: أتيت أبـا ثعلبة الخشـني فقلت: يـا أبا ثعلبة كيف تقول في هـذه الآية :﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ** ﴾[(٢)] ؟ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً سـألتُ رسـول الله ﷺ فقال: « **بـل ائتمروا بالمعروف وتناهـوا عن المنكر حتى إذا رأيت شـحاً مطاعاً وهـوىً متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجـاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك ودع أمر العوام فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل قبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسـين رجلاً يعملون مثل عمله** »، قال: وزادني غيره: يا رسول الله أجر خمسين منهم ؟ قال : « **خمسين منكم** » [(٣)].

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ١/ ٣٣٤ ، برقم (١٧) .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١٠٥ .

(٣) أخرجه ابـن حبـان في صحيحـه ٢/ ١٠٨ -١٠٩، برقـم (٣٨٥) . قـال أبـو حاتـم رضي الله عنه يشـبه أن يكون ابن المبارك هو الذي قال وزادني غيره . وقال القاسمي في قواعـد التحديـث ١/ ٥٧، برقم (٧) : رواه ابـن ماجه وأبو داود والترمذي وقال : حديث حسن غريب .

ذ) تحريك النّفس والهمّة في لقاء الله بأحبّ الصحف المرفوعة إليه:

كثيرون هم الذين نحبّ أن نلقى الله تعالى بمثل صحيفتهم، لما سطّروا فيها من الأعمال الصالحة ، وكثير هم الرجال الأثبات في تاريخ هذه الأمة الذين يُتشرّف أن يكون المسلم على آثارهم ، وأن يكون شعارنا قرآنياً في ذكرهم، وتعاملنا معهم كما قال الله تعالى في حقهم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾[1].

وكما علّم سبحانه وتعالى الأمة ونبيّها المكرّم ﷺ بقوله في القرآن: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2] ، وكما سطّر جلّ جلاله في القرآن مفاخرهم، وما كان له الأثر في ضياء صحائفهم بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[3]، وقوله: ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[4] وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[5]،

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٧ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٩٠ .

(٣) سورة البقرة، الآية ٢١٨ .

(٤) سورة آل عمران، الآية ١١٤ .

(٥) سورة النساء، الآية ١٥٢ .

وقولـه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[1] .

وفي بلوغهم رتبة الصبر ابتغاء وجه الله تعالى، وبذل المستطاع في سبيله، ودفعهم السيئات بالحسنات، يقول عزّ وجلّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[2] .

واتضح أثر القرآن الكريم في سلوك أجيال الأمة السّابقة واللاحقة من خلال تنافسهم في الوصول إلى أعظم ما يُنال من رتب الآخرة ودرجاتها ومنازلها، وحرصهم على تحقق ذلك، والنجاح فيه بتحقيق أسبابه، وسلوك سبيله الحضاري بين الأُمم، ولاشك أنّ من أعظم ما يُبتغى في ذلك سِيَر الصحابة من المهاجرين والأنصار والشهداء والقادة والعلماء الأئمة، وسائر مفاخرهم وأعمالهم التي لقيت قبولاً عند الأمة، فهي مطمح كل مسلم، لما لها من دلالات قبول عند الله تعالى؛ وهي بالجملة مما يحبّ المسلم أن تُسجّل في صحيفته، وأن يتحفه الله تعالى بالتوفيق للسَّير على خطاهم؛ ومن هذه الصفحات الجميلة التي يُحبّ المسلم أن يلقى الله بها صفحة الإمام العابد الثقة محمد بن واسع بن جابر الأزدي البصري الزاهد، الذي قدّم منهج السّر في أداء الطاعات على العلانية، حتى قال فيه ابن شوذب: لم يكن لمحمد بن واسع كثير عبادة في العلانية، وكان يلبس طيلساناً وقميصاً مصرياً، وكانت فُتيا الناس إلى

(١) سورة الأنعام، الآية ٨٢ .

(٢) سورة الرعد، الآية ٢٢ .

غـيره – يعنـي بالبصرة –، وإذا قلت: مَـنْ أفضل أهل البصرة ؟ قيل : محمد بن واسع[1] .

وحـدَّث الخرّاز بسنده إلى صالح المريّ قال: قال لي مالك بن دينار: أغـد عـليَّ يـا صالح إلى الجبّان – أي صانع الجبن – ، فإني قد وعدت نفراً من إخواني بأبي جهير مسـعود الضرير نُسـلّم عليه، قال صالح المري: وكان أبو جهير هذا رجـلاً قـد انقطع إلى زاويـة فتعبد فيها، ولم يكن يدخل البـصرة إلا يوم الجمعة في وقت الصلاة، ثم يرجع من سـاعته، قـال: فغدوت لموعد مالك إلى الجبّان، فانتهيـت إلى مالـك وقـد سـبقني ، وإذا معـه محمد بن واسـع، وثابـت البناني وحبيب، فلمّا رأيتهم قد اجتمعوا، قلت: هذا والله يوم سرور، فانطلقنا نريد أبا جهـير ، فـكان مالك إذا مرّ بموضع لطيف قال: يا ثابت صلّ ها هنا ، لعله أن يشهد لك غداً ، فكان ثابت يصلي[2] ، ثم انطلقنا حتى أتينا موضعه فسألنا عنه

---

(١) ينظر تاريخ مدينة دمشق ،لأبي القاسم الشافعي ٥٦/ ١٤٤ – ١٤٥ .

(٢) ولا شـك أن هـذا العمـل لـه سـابقة من هـدي النبي ﷺ ؛ فقـد جاء في الأثـر كما في المطالب العالية لابن حجر العسـقلاني ٩/ ٣٢١ ، برقـم (١٩٦٦) : أنّ أنس بن مالك رضي الله قـال: كان رسـول الله إذا نـزل منـزلاً لم يرتحل منه حتى يودعـه بركعتين . وفي مجمـع الزوائـد للهيثمـي ٢/ ٢٨٣ ؛ عـن فضالـة بن عبيـد قال : كان رسـول الله ﷺ إذا نـزل منـزلاً في سـفر، أو دخل بيته لم يجلـس حتى يركع ركعتـين . وأعقبه الهيثمي بقولـه: رواه الطـبراني في الكبير وفيه الواقدي وقد وثقه مصعـب الزبيري وغيره.. وجاء في المجمع أيضاً ٢/ ٢٨٣ عن عبد الله بن مسـعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يـا رسـول الله ؛ إني أريد أن أخـرج إلى البحرين في تجارة ، فقال رسـول الله ﷺ : « **صل ركعتين** » ، قال الهيثمي عقبه: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون .

فقالوا : الآن يخرج إلى الصلاة ، فانتظرناه فخرج علينا رجل إن شئت قلت: قد نُـشر من قـبره ، فوثب رجل فأخذ بيده حتى أقامه عند باب المسـجد فأذن، ثم أمهل يسـيراً، ثم دخل المسجد فصلى ما شـاء الله، ثم أقام الصلاة فصلّينا معه، فلمّا قضى صلاته جلس كهيئة المهموم فتوافر القوم في السّلام عليه .

قال صالح المرّي: فقمتُ إليه لأسلّم عليه، وأقبل على القوم فقال: انظروا كيف تكونون غداً بين يدي الله في مجمع القيامة، فسـلّمتُ عليه فردّ عليّ فقال: مَنْ أنت يرحمك الله ؟ قلت: أنا صالح المرّي ، قال: أنت الفتى القارىء ؟ أنت أبو بشير؟ قلت: نعم ، قال: اقرأ يا صالح ، فلقد كنت أحبّ أن أسمع قراءتك، قـال صالح : فحضرني والله ما كنت قد فقدته، فابتدأت فقرأت فما اسـتتممت الاسـتعاذة حتى خرّ مغشـياً عليه، ثم أفاق إفاقة قال: عُد في قراءتك يا صالح، فـإني لم أقطـع نفسي منها، وأضاف صالح : ورأيت شـيئاً عجبـاً لم أره من أحد من المتعبدين؛ كان إذا سـمع القرآن فتح فاه ، فعدتُ فقرأت :﴿ **وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا** ﴾[1] ، فصـاح صيحة ثم انكب لوجهه، وانكشـف بعض جسـده، فجعل يخور كما يخور الثور ، ثم هدأ فدنونا منه ننظر فإذا هو قد خرجت نفسـه كأنه خشـبة ! فخرجنا فسألنا : هل له أحد ؟ ، قالوا: عجـوز تخدمـه تأتيه الأيـام ، فبعثنا إليها فجـاءت، فقالت: مَا لَـه ؟ قلنا : قُرئ عليـه القرآن فـمات !! ، قالت: حُقّ له والله، مَنْ ذا الذي قرأ عليه؟ لعله صالح القـارئ هـو الـذي قرأ عليـه ، قلنا : نعـم ، وما يدريـك مَنْ صالـح ؟ قالت : لا أعرفه، غير أني كثيراً ما كنتُ أسـمعه يقول: إن قرأ عليّ صالح قتلني. قلنا : هو الذي قرأ عليه، قالت: هو الذي قتل حبيبي، فهيأناه ودفناه .

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٢٣.

وهـذا هـو سـلوك أصحاب محمد بن واسع فقد فارق أبو جهير الدنيا إلى حيـاة النعيم بآية من القـرآن .. وتجلت آثار هيبة القرآن عليه فخشـع وفارقت روحه بدنه من خشية الله تعالى .

وقـال سـليمان التيمي: مـا أحد أحـبّ إليّ أن ألقى الله بمثـل صحيفته إلا محمد بن واسع [1].

ر- تحصيل بشارة مَنْ قرأ القرآن الكريم وحافظ على قراءته :

إنّ القـرآن الكريم كتاب إعجـاز وحوار وهداية وتربية وتوجيه وحكمة، تصدّى لِـمَنْ أنكر مرجعيته لله تعالى، ودلل على صدق نبوّة سـيّدنا محمد ﷺ، وصادق على صحّة أخبار الرسـالات السـابقة ، ودعا إلى المحاور التي جاءت تعالجها، وأهمها: توحيد الله تعالى ؛ واسـتعمار الإنسـان للأرض وفق المنظومة التـي أرادها الله تعـالى لعباده ؛ وبرهن على حقيقة نهاية الكون المنظور، وأن الله تعـالى خلق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، وإليه يرجع الأمر كله، وإلى الله تعالى عاقبة الأمـور .

والقرآن في الوقت نفسه يُعد رسالة الأمان والبشارة من الله تعالى للإنسانية المؤمنـة، وفيه البواعث على الازدياد من الإيمان، والحثّ على محافظة العبد على التوكل على الله عزّ وجلّ في سائر حالاته، والخشوع لعظمته جلّ جلاله في الظاهر

(١) ينظـر تاريـخ مدينة دمشـق ٥٦/ ١٤٧ - ١٤٨ . وانظـر الثقات للعجـلي برقم(١٦٥٦)، والثقـات لابـن حبـان٧/ ٣٦٦، برقـم(١٠٤٦٧) ، وموسـوعة أقـوال الدارقطني، برقم (٤٦٣).

والباطن، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1] ، ويقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[2].

قال سليمان بن شرحبيل الخولاني: سمعت أبا أمامة يقول: اقرؤوا القرآن ، ولا يغرنّكم هذه المصاحف المعلّقة فإنّ الله لم يعذب قلباً وعى القرآن [3].

وبناءً على سلامة المنهج ، والآلية الصحيحة في التعامل مع القرآن الكريم، والإيمان بما فيه، والتفكّر في مضامينه؛ تظهر الآثار النورانية على العبد المؤمن وسلوكه، وقد يكون من أبرزها: الخشوع والبكاء والتذلل بين يدي الله تعالى ببركة القرآن الكريم ونفحات الله تعالى فيه، يقول سبحانه: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[4].

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٢.

(٢) سورة الحديد، الآية ١٦.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٣٣ ، برقم (٣٠٠٧٩) .

(٤) سورة الإسراء، الآيات ١٠٦ – ١٠٩.

وفي الأثر عن أنس رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال: « **من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذب يوم القيامة** »[١].

وقال أبو سليمان عبد الرحمن الداراني الدمشقي (ت ٢١٥ هـ) يرحمه الله ، في بيانه لأمارات التفاعل مع النص الكريم وروحه، ونفي الخذلان عن النفس: « لكل شيء عَلَم، وعَلَمُ الخذْلان تركُ البكاء »[٢].

ولا شك أن من أفضل البكاء كما قال أبو الحسن أحمد ابن أبي الحواري (ت ٢٣٠ هـ)رحمه الله: « بكاء العبد على ما فاته من أوقاته على غير موافقة الحق تعالى فيما أراده منه، أو البكاء على ما سبق للعبد من المخالفة »[٣].

وفي التزود بالطاقة الإيمانية، وظهور أَمَاراتها من البشارة وغيرها ، يقول ربّ العالمين جلّ جلاله: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾[٤].

وروى عبد الرحمن بن يزيد قال:قال عبد الله: من قرأ القرآن فليبشّر[٥]. أي مَنْ قرأ القرآن أمام الناس فليقرأ الآيات المبشّرات.

---

(١) الترغيب والترهيب ٤/ ١١٣ ، برقم(٥٠٢٣) . وقد علّق المنذري عَقِبَه فقال: رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد .

(٢) تنظر طبقات السلمي ، ص٨١، وحلية الأولياء ٩/ ٢٥٤-٢٨٠، وتاريخ بغداد ١٠/ ٢٤٨-٢٥٠.

(٣) تنظر طبقات السلمي ، ص١٠٠ ، وصفة الصفوة ٤/ ٢١٢، ومرآة الجنان ٢/ ١٥٣.

(٤) سورة التوبة، الآية ١٢٤.

(٥) ينظر مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٣٣ ، برقم (٣٠٠٨٠).

ز) استحقاق مَنْ يؤخذ عنه القرآن المدح والتشجيع، وكذلك المتصدّر به:

لمّا جاءت الآثار النبوية الشريفة تحثّ على تعلّم القرآن الكريم، وتُظهر مكانة القرآن وأهله عند الله تعالى وعند الناس، عنيت في الوقت نفسه – وبالأسلوب النبوي المتميّز – برصد منظومة القراء، وممّن تؤخذ القراءة، وامتداحهم على الإجادة والتفنن في ذلك؛ فقد جاء في الأثر عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً** – وفي رواية **غضّاً** – **كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد** »[1] أي على قراءة ابن مسعود رضي الله عنه. وروي عنه ﷺ أنّه قال: « **خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وسالم مولى أبي حذيفة** »[2].

وحدّث عبد الله فقال: قرأت على رسول الله ﷺ، فقال لي: « أحسنت »[3].

وقد جاء في الأثر أيضاً عن قبيصة عن جابر قال: ما رأيت أحداً كان أقرأ لكتاب الله ولا أفقه في دين الله ولا أعلم بالله من عمر[4].

وقال مجاهد: كنا نفخر على الناس بقارئنا عبد الله بن السّائب. وكنت

(١) ينظر مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٣٩، برقم (٣٠١٣٣ – ٣٠١٣٤).

(٢) ينظر المصدر السابق ٧/ ١٨٣.

(٣) ينظر المصدر السابق ٧/ ١٨٣.

(٤) ينظر المصدر السابق، برقم (٣٠١٣٠).

أتخـذ الناس بالحفظ للقرآن حتى صلّيتُ خلف مسـلمة بـن مخلد - وكان أمير مصر، وأول من جُمعت له مصر والمغرب من الأمراء (ت ٦٢ هـ) فافتتح البقرة فما أخطأ فيها واواً ولا ألفاً[1].

وهذا المنهج في ذكر شـمائل أهـل القرآن والثناء عليهـم، ومدح إجادتهم لقراءتـه وفهمـه مما تحتاجـه الأمة اليـوم ليبعـث الهمـة في قلـوب أبنائها على مواصلة المسيرة الصالحة، وإصلاح النيّة لله عز وجل، لتتذوق المجتمعات لذة الاشـتغال بكتاب الله تعالى، ونـشر معارفه، وطلب بركته، وتعـود عليها آثار هذه الأعمال كلها.

س) تعلّم الأمة التعامل مع أشدّ الأعمال :

كان مـن منهـج النبـي ﷺ في التعامل مع الحـق تعالى القيـام بالعبادة على وجهها، والاجتهاد في شـكر الله تعـالى على ما آتاه من النّعـم العظيمة، وبقاؤه عـلى حال المراقبة الظاهرة والباطنة لسـائر متطلبـات التعامل مع الوحي حتى أتاه اليقين، والتحق بالرفيق الأعلى، وكذلك كان من هديه ﷺ وآثاره الظاهرة في سلوك الأمة؛ إدامته ذكر الله تعالى والإكثار منه على كلّ حال ، فمن ذلك ما روى أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها، فقلت: كيف كان رسـول الله ﷺ يصلي في رمضان ؟ قالت: « **كانت صلاته في رمضان وغير رمضـان واحدة، كان يصلي إحدى عشرة ركعة: أربع ركعات ، فلا تسـأل عن**

---

(١) ينظـر مصنـف ابـن أبي شـيبة ٦/ ١٣٩ ، برقـم (٣٠١٣٠-٣٠١٣٢)، والمسـتدرك عـلى الصحيحين ٣/ ٥٦٥، برقم (٦٠٨٩- ٦٠٩٠).

حسـنهن وطولهن، ثم يصلي أربع ركعات، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاث ركعات، فقلت: يا رسـول الله تنام قبل أن توتر ؟! فقال: إن عينيّ تنامان وقلبي لا ينام » [1] .

أمّا سـلوكه ﷺ مع الخلق ، فقد كان مبنيّاً على مواسـاة المؤمنين بالمال، بعد مواسـاتهم بالقول والفعل والحال ، ولا سـيما أصحاب الحاجة والفاقة والمؤلفة قلوبهم؛ فقد جاء في الأثر عن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً سأل النبي ﷺ فأمر له بغنم كثيرة فأتى الأعرابي قومه وقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر [2] .

وقـد جسَّــد الإمـام الجدّ أمـير المؤمنين علي بـن أبي طالـب رضي الله عنه هذا الحال النبوي الكريم والسـلوك العظيم فقال في وصف الأعمال وشـدتها: « **أشدّ الأعمال ثلاثة: إعطاء الحق من نفسك ، وذكر الله على كل حال ، ومواساة الأخ في المال** »[3] .

ودرجت الأمة على هذا الفضل والبذل في سبيل الله تعالى ومن أجل كتابه الكريـم؛ مـن ذلك ما جاء في سـيرة الإمام أبي الحسـن الدمشـقي المقرئ رشـأ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٠٤ ، برقم (٢٤٧٧٦) و (٢٤٨٩٠) .

(٢) ينظر صحيح ابن حبان ١٠/ ٣٥٤ ، برقم (٤٥٠٢).

(٣) حليـة الأوليـاء ١/ ٨٥ . وقـد جـاء مرفوعـاً في مصنـف ابـن أبي شـيبة ٧/ ٨٠ ، برقم (٣٤٣٤٠) عـن أبي جعفر قال: قال رسـول الله ﷺ: « **أشـد الأعـمال ثلاثة: ذكر الله على كل حـال، والإنصـاف من نفسـك، والمواسـاة في المال** » . وكذا مرفوعـاً في الزهد لابن المبارك ١/ ٢٥٧ ، برقم (٧٤٤) وفيه: « .. ومواساة الأخ في المال » .

ابن نظيف (ت٤٤٤هـ)رحمه الله تعالى، إذ كان ثقة مأموناً ، انتهت إليه الرياسة في قراءة ابن عامر، وله دار موقوفة على القراء ، صنعها لأهل القرآن، وسميت بدار القرآن الرشائية بدمشق، بباب الناظفيين – نسبة لاسمه وعائلته –[1]، بذلها رحمة الله عليه في سبيل القرآن، ليهيئ لأهل الله وخاصّته مركزاً لعلوم الكتاب المجيد ؛ يستبين فيه عباد الله سبيل الجنة والرضوان، وتفيض على الأمة أنواره ويكون مرجعاً لعموم المسلمين، ومواساتهم على كل حال، ولا سيما التذكير بالله تعالى، والفهم عنه جلّ جلاله من خلال تعلّم القرآن وتعليمه فيه، وهذا السلوك فيه عظيم إكرام لذات أبي الحسن وسائر مَنْ كان على أثره مِن أبناء الأمة، ولا سيما في البذل في سبيل الله، ورصد الأعمال العظيمة التي تعود على الأمة بالبركة والرحمة في الدنيا والآخرة .

ش) ظهور البَرَكة على مَنْ عاش في ظلال القرآن وتعاليمه في حياته :

تبيّن لقارئ الصفحات السابقة وأسطرها المشرقة كيف كان تعامل الأمة مع القرآن الكريم ، ومناهجها في فهمه، وأثر هذا الفهم والتعامل في سلوك أبناء الأمةوالأسرة والمجتمع.

ومن الأمور التي تُرصد في هذا الباب أيضاً، وفيها النفع لأولي الألباب؛ ما له الأثر في الأحوال، وأصبح جلي التأثير في سلوك أبناء الأمة ومجتمعها المسلم؛ مما جاء في أحوالهم من **البكاء والقنوت والفقر والتعفف في غالب حالاتهم؛**

---

(١) ينظر معرفة القراء الكبار ، للذهبي ١/ ٤٠٢، برقم (٣٤٢)، وشذرات الذهب، لابن العماد ٣/ ٢٧١ .

فمن ذلك ما جاء في سيرة الإمام أبي بكر الخياط البغدادي المقرئ (ت٤٦٧هـ) رحمة الله عليه؛ إذ كان كبير القدر، عديم النظير، بصيراً بالقراءات، صالحاً عابداً ورعاً، بكاءً، قانتاً، خشن العيش، فقيراً متعففاً، ثقة فقيهاً على مذهب الإمام أحمد بن حنبل[١].

وظهر ذلك الفقر والصلاح والتعفف في سلوك وحياة أبي الفضل الإمام أحمد بن الحسن البغدادي (ت٥٣٠هـ) رحمة الله عليه، حتى قيل في سيرته: كان إماماً مقرئاً مجوّداً، فقيراً صالحاً متعففاً[٢].

وشاع التقلل من الدنيا وأثقالها عند مَنْ فهم مراد الله تعالى في القرآن الكريم، لاسيما وأن العديد من آياته تتحدّث عن أفضلية ما عند الله تعالى، وأن الآخرة خير من الأولى، وأن الله تعالى يمنح عباده المؤمنين ثوابي الدنيا والآخرة بقوله تعالى:﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[٣]، وقد فهموا يرحمهم الله حجم الدنيا ومكانتها بالنسبة لعظمة الآخرة ومتاعها وما أعدّه الله عزّ وجلّ لعباده الموحدين فيها؛ لما وعوه من خطاب الحق تعالى، ولاسيما قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) ينظر الوافي بالوفيات، للصفدي ٤/ ١٣٦، ومعرفة القراء الكبار، للذهبي ١/ ٤٢٦، برقم (٣٦٥)، وشذرات الذهب، لابن العماد ٣/ ٣٢٩.

(٢) ينظر المنتظم لابن الجوزي ١٠/ ٦٢، ومعرفة القراء الكبار، للذهبي ١/ ٤٧٨، برقم (٤٢١).

(٣) سورة النساء، الآية ١٣٤.

ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[1] ، وكان ممن ذُكر في سيرته تقلله من الدنيا الإمام محمد ابن النّفّاح الباهلي البغدادي المقرئ (ت ٣١٤ هـ) رحمة الله عليه ؛ إذ كان ثقة ثبتاً، صاحب حديث، متقللاً من الدنيا [2].

ومنهم أيضاً : الإمام الزاهد الحسن ابن صدقة الأزدي الصّقلي (ت٦٦٩ هـ) يرحمه الله، ومما جاء في خبره أنّه كان من أهل القرآن ، ومن السّادات في زهده، وتعبّده، وتقلله، وافر الحرمة، ساعياً في قضاء الحقوق، له مهابة وقبول تام، وكان صاحب كرامات[3].

* **ومن آثار القرآن في سلوك أبناء الأمة: الأُنْس بالله تعالى في الحلّ والترحال**؛ إذ جاء في سيرة شيخ الإسلام أبي الفضل عبد الرحمن الرازي (ت ٤٥٤ هـ) رحمة الله عليه أنّه كان مقرئاً فاضلاً ، كثير التصانيف، حسن السيرة زاهداً متعبداً خشن العيش، قانعاً باليسير، يقرئ الناس أكثر أوقاته، ويروي الحديث، ويسافر ويدخل البراري، وما زال يتنقّل في البلدان على قدم التجريد والأُنس بالله تعالى ، ولياً من أولياء الله تعالى، صاحب كرامات، طوّف الدنيا مستفيداً ومُفيداً ، وإذا فُتح عليه بشيء آثر به. وكان بسيط الهيئة، ورغم بساطة هيئته أوقفه يوماً بعض قطّاع الطريق، وكان يحمل شيئاً من الخبز، فأرادوا أخذه

---

(١) سورة التوبة، الآية ٣٨.

(٢) ينظر تاريخ بغداد ٣/ ٢١٤ ، ومعرفة القرآء الكبار ١/ ٢٤٤، برقم(١٤٨) .

(٣) ينظر معرفة القرآء الكبار ٢/ ٦٧٥، برقم(٦٤٢)، وغاية النهاية ١/ ٢١٩، وشذرات الذهب ٥/ ٣٢٨.

منـه، فدفعهـم بعصـاه، وقال معللاً: إنـما منعتهم منه، لأنه كان حـلالاً ، وربما كنتُ لا أجدُ حلالاً مثله[1].

*** ومـن ذلـك تحقـق الاسـتلذاذ بمناجـاة الله عـزّ وجلّ ، وكثرة الخشـوع لـه، والورع من الشـبهات، وعودة بركة ذلـك كلّه عليهم في الحيـاة** ؛ فقد جاء في الأخبـار مـا يُحـرر فضل قـارئ أهل البـصرة في عصره ، الإمـام يعقوب بن إسحاق (ت٢٠٥هـ) رحمة الله عليه؛ إذ لم يُر في زمانه مثله، وكان عالماً بالعربية ووجوهها، والقرآن واختـلاف قراءاته، فاضلاً تقيّاً نقيّاً، ورعاً زاهداً، بلغ من خشـوعه أنّـه سُرق رداؤه عن كتفه في الصلاة، ولم يشـعر ، ورُدّ إليه ولم يشـعر لشغله بالصلاة واستلذاذه بمناجاة ربّه[2].

وجاء في الأثر أيضاً ذكر أبي الفضل صافي بن عبد الله البغدادي (ت٥٤٦هـ) رحمة الله عليه ، إذ ظهر في سـيرته الأثر التربـوي الإيماني للقرآن الكريم، فكان مع إقرائه الناس القرآن الكريم وبإسـناده العالي؛ كثير التعبد والأوراد والتربية الذاتية؛ فهو يجمع بين العلم والعمل، والفيض على الآخرين بمعانيهما[3].

*** ومن أثر القرآن في سـلوك أبناء الأمة ومجتمعها المسـلم انتشار الصلاح، وإشـاعة الزهـد، والتزام الجهـاد بين أبنائه** ؛ من ذلك ما جاء في سـيرة أبي محمد

---

(١) تنظـر غايـة النهايـة ١/ ٣٦١-٣٦٣، والنجـوم الزاهـرة ٥/ ٧١، وشـذرات الذهـب ٣/ ٢٩٣.

(٢) تنظر طبقات ابن سـعد ٧/ ٣٠٤ ، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٩٠-٣٩٢، وتهذيب التهذيب ١١/ ٣٨٢.

(٣) تنظر معرفة القراء الكبار ١/ ٥٠٣، برقم(٤٥٤)، وغاية النهاية ١/ ٣٣١ .

عبد الله بن خلف ابن بقي الأندلسي (ت ٥٤٣ هـ) رحمة الله عليه، أنّه مع براعته في القراءات ورئاسته فيها ، كان رأساً في الصلاح والزهد والجهاد[١] .

* **ويتبيّن أيضاً من خلال سير السلف أثر القرآن في سلوك الأمة، وتأثيره في منهجها العام وتعاملها مع الخلق بالوُد والتواضع** ؛ فمن ذلك ما جاء في سيرة أحد أبنائها الإمام أبي محمد عبد الله بن علي البغدادي النحوي (ت ٥٤١ هـ) رحمة الله عليه، إذ كان أطيب أهل زمانه صوتاً بالقرآن الكريم، ورئيساً للمقرئين في عصره، وإماماً محققاً واسع العلم والاطلاع، متين الديانة، قليل المثل ، حتى سمّاه أهل السّير جمال العراق، كان ظريفاً كريماً، متواضعاً متودداً على كبر سنّه ومكانته[٢].

* **ومن دلالات تأثير النص القرآني على المنظومة البشرية وسلوكها**، ولاسيما أمة سيدنا محمد رسول الله ﷺ المتبِعة لما جاء فيه، وحثّه البشرية عامة على العلم للوصول إلى الإيمان، وسلامة إطلاق الحُكم ، وصحّة تطبيق الأحكام؛ **حرص أبناء الأمة على تلقي العلم وتحصيله والإقبال عليه ، للتمكّن من فهم القرآن ومعارفه، وحُسْن تطبيقه على الفرد والمجتمع المسلم**، والانطلاق برسالته إلى الناس كافة في سائر المجتمعات الأخرى، فمن هذا الحرص ما ذُكر في سيرة الإمام المحدّث عمر بن ظفر البغدادي (ت ٥٤٢ هـ) رحمة الله عليه، أنّه طلب الحديث بنفسه، ونسخ الكثير، وخَتم عليه في مسجده خلق كثير،

---

(١) تنظر التكملة لكتاب الصلة ٢/ ٢٥٩، برقم(٧٥٠)، وغاية النهاية ١/ ٤٨١ .

(٢) تنظر التكملة لكتاب الصلة ٢/ ٢٥٩، برقم(٧٥٠)، وشذرات الذهب ٤/ ١٢٨ .

وكان من أهل العلم والعمل، وهذا ما ظهرت معالمه على أغلب أهل العلم في الأمة [1].

*** ومما سجّله التاريخ في صفحات الأمة المشرقة، ولاسيما في عظيم همّة أبنائها الفضلاء في طلب العلم، وحرصهم على تحصيل الفوائد، وانتظام سلوكهم في الرغبة بالعلم وبتلقيه**، ما جاء في سيرة الإمام يوسف بن علي الـهُذلي المغربي(ت٤٦٥هـ) رحمة الله عليه؛ إذ بلغ عدد شيوخه الذين قرأ عليهم العلم وطلبه منهم (٣٦٥) شيخاً، وقد وثّق ذلك لنفسه، فقال: « فجملة مَنْ لقيتُ في هذا العلم ثلاث مئة وخمسة وستون شيخاً، من آخر المغرب إلى باب فرغانة يميناً وشمالاً وجبلاً وبحراً، ولو علمتُ أحداً يقدّم عليّ في هذه الطريقة، في جميع بلاد الإسلام لقصدته »[2]. وقد كان رحمه الله يحضر مجلس أبي القاسم القشيري، ويقرأ عليه في الأصول، وكان القُشيْري يراجعه في مسائل النحو.

*** وكذلك من ظاهر بركات القرآن الكريم على الأمة، حرص أبنائها وأُسَرِها ومجتمعاتها على كتابة العلم وطلبه، والتطور فيه، وإن كلّفهم ذلك زهرة الشباب ووقت قوّته، أو تعرّضت أجسادهم وحواسّهم لبعض الآثار السلبية نتيجة المثابرة الجادّة في طلب العلم**؛ ومن ذلك ما حدَّث به أبو عمرو الداني عن شيخه الإمام خلف بن إبراهيم المصري (ت٤٠٢هـ)

---

(١) تنظر تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٩٣، العبر في خبر من غبر ٤/ ١١٥.

(٢) تنظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٢٩، برقم(٣٦٧)، وشذرات الذهب ٣/ ٣٢٣.

رحمة الله عليه، وكان أحد الحُذّاق في القراءات، فقال: كان ضابطاً لقراءة ورش، متقناً لها مجوّداً، مشهوراً بالفضل والنُّسك، واسع الرواية، صادق اللهجة، كتبنا عنـه الكثير من القراءات والحديث والفقه، سـمعته يقول: كتبتُ العلم ثلاثين سنة، وذهب بصرُه دهراً، ثم عاد إليه، وكان يَؤُمُّ بمسجد في مصر .

* **ويظهـر أثـر القـرآن في مجتمع الأمة المسـلمة من خلال سـلوك أبنائها، وتوجّههـم نحـو تربية الـرّوح وتنقية البَـدَن، والرُّقي بالعقل ليصل إلى أسـمى مسـتوياته**؛ فقد جاء في سـيرة الإمام أبي محمد دعوان بـن علي الجبي البغدادي الحنبـلي (ت٥٤٢هـ) رحمـة الله عليـه، أنّه قرأ القراءات،وتفقّـه فأحكم الفقه، وكان ذكيـاً عارفـاً حافظـاً، وثقة ديّناً ذا سـتر وصيانة وعفـاف، ومتصوفاً على طريقة السّـلف المحمودة رحمهم الله رحمة عامّة؛ أي جامعاً بين العلم والعمل، ومتمسِّكاً بالثابت من هدي النبي ﷺ في الأقوال والأفعال والأحوال[(١)].

مات في ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، ورُئي بعد موته بخمس وعشرين سـنة في المنام وعليه ثياب شـديدة البياض وعمامة مليحة ووجه عليه نـور فأخـذ بيد الرائي مشـياً إلى صلاة الجمعـة، فقال له: يا سـيدي ما فعل الله بك ؟! ، فقال: عُرضت على الله خمسـين مـرة ، فقال لي: أيش عملت ؟ فقلت: قرأتُ القرآن وأقرأتُه، فقال لي: أنا أتولاك أنا أتولاك[(٢)].

---

(١) ينظر المنتظم ١٠/ ١٢٧، برقم(١٨٩)، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٥٠١، برقم (٤٥١).

(٢) تنظر غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ١٢٣.

* **وتجسّـد أثر القرآن والهدي النبوي في سـلوك الأمـة وأبنائها؛ من خلال حفظ الأوقات واستثمارها بالمفيد، واستعمال السنّة في غالب الأمور**، فمن ذلك مـا جاء في سـيرة وسـلوك شـيخ العراق في عصره الإمـام أبي أحمد ابن سُـكَيْنة البغـدادي (ت٦٠٧هـ) رحمـة الله عليه؛ إذ كان إماماً صالحـاً قدوة، مجوّداً كثير المحاسـن، عُمِّرَ حتى حدَّث بجميع مروياته مـراراً، وقصده الطلبة من البلاد، وكانت أوقاته كلّها محفوظة، فلا تمضي له ساعة إلا في قراءة أو ذكر أو تهجّد أو تسـميع، وكان كثير الحج والعمرة، والمجاورة، والطهارة، لا يخرج إلا لحضور جمعة أو عيد أو جنازة، ولا يحضر دُور الرؤساء، ويديم الصوم غالباً ، ويستعمل السُّـنّة في أموره، ويتواضع لجميع الناس، وكان ظاهر الخشـوع، غزير الدَّمعة، وكان الله قد ألبسه رداءً جميلاً من البهاء، وحُسْن الخلقة، وقبول الصورة، ونور الطَّاعـة، وجلالـة العبادة، وكانت له في القلوب منزلة عظيمـة، وَمَنْ رآهُ انتفَعَ برُؤْيتـه، فـإذا تكلّم كان عليه البَهَاء والنور، لاَ يُشْـبَعُ مِنْ مُجَالَسَـتِهِ، صحبه ابن النجار قريباً من عشرين سـنة، وتـأدّب به، وخدمه، وكان طاف البلاد فما رأى أكمل منه، ولا أكثر عبادة، ولا أحسـن سَـمْتاً ، كلّ ذلك ببركة القرآن وعلمه، وظهور أثره في سلوكه وسائر أحواله، رحمة الله عليه[1].

* **ومن فيض تعاليم القرآن، وأثرها المُشْـرِق في سـلوك المجتمع المسـلم؛ تمسّـك الأمة بالأوامر الإلهية** كالصلاة، والصيام، وسـائر ما جاء الحثّ عليه في القـرآن الكريـم، كالقيـام، والإنفاق عـلى الأرامل والأيتام ؛ مـع الحرص على أن تكـون سـائر خطوات أبنائها مبنيّة على أسـس صحيحـة في العلم والمعرفة،

---

(١) ينظر سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٠٣-٥٠٤، برقم(٢٦٢)، وشذرات الذهب٥/ ٢٥-٢٦.

وهـو ما يحفظ لها مكانتهـا عند الله تعالى، ويعود بالبركة عـلى أبنائها في حياتهم وبعد وفاتهم؛ فمن ذلك ما أشرقت به صفحات التاريخ، وجاء في سـيرة شيخ القراء العلاّمة القُدوة أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن هذيل البَلَنسي الزاهد (ت٥٦٤هـ) عن ثلاث وتسعين سـنة رحمـة الله عليه، إذ تعلّم وسـمع وتفقّه حتـى انتهت إليه رئاسـة الإقراء في زمانه، وروى العلم نحواً من سـتين سـنة، وكان منقطع القرين في الفضل والدين والورع والزّهد مع العدالة والتواضع، والتقلـل والإعـراض عـن الدنيا، صوّامـاً قوّامـاً ، كثير الصدقة عـلى الأرامل واليتامى، حتى قيل له : إنّك لتسعى بهذا في فقر أولادك ! فقال: لا والله بل أنا شيخ طمّاع أسعى في غناهم . إشارة منه إلى الادخار للآخرة[1] .

* **وظهر أثر المنهج القرآنيّ الكريم، والسلوك النبوي المبارك في أبناء الأمّة المسلِمة وأُسَرِهـا ومجتمعاتها، كالتحـلي بالجود والإيثار والمحافظـة عليهما تجاه طـلاب العلـم، وإحيائهـما في الأمّة**؛ فمن ذلـك ما أشرقت به سـطور التاريخ، وهي تروي سِـيَر رجـال الأُمّة النجباء، ومنهم الإمام المفـسّر أبو بكر محمد بن الحسن النقّاش الموصلي (ت٣٥١هـ) رحمة الله عليه، فقد كان ممن انفرد بالإمامة في القراءات، والتفسـير، والسُّـنَن النبوية ، وطاف في البلاد طلباً للعلم وتعليماً له، مع ما ظهر من نُسُـكه وورعه، وسـخائه ، وحُسـن خُلُقِه ، وصِدق لهجته، واتسـاع معرفتـه ؛ وقد حدّث أبو الحسـن بـن الفضل القطّان أنّه حضر سـاعة وفـاة النّقـاش، وهو يجود بنفسـه، فجعل يُحرّك شـفتيه، ثم نـادى بعلو صوته:

---

(١) تنظـر تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٢٠ ، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٥١٧، برقم(٤٦١)، وشـذرات الذهب ٤/ ٢١٢.

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [1] ، يرددها ثلاثاً، ثم خرجت نفسه رحمة الله عليه[2].

ومن الذين ظهرت عليهم بركة القرآن وبشارته ساعة موتهم شيخ الشيوخ، الشيخ الصالح، أبو البركات، إسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد، النيسابوري؛ إذ قال فيه السّمعاني: وقور مهيب، على شاكلةٍ حميدة، ما عرفتُ له هفوة، قرأتُ عليه الكثير، وكنت نازلاً برباطه..

وقال ابن النجار: سمعت ابن سكينة - أي أحمد سبط أبي البركات- يقول: كنت حاضراً لـمّا احتضر، فقالت له أمي: يا سيدي، ما تجد ؟ فما قدر على النطق، فكتب على يدها: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [3] ، ثم مات في عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين وخمس مئة، وعملوا لموته وليمة بنحو ثلاث مئة دينار [4].

وبهذه الإشراقة وغيرها كثير تستذكر الأمة أن مثل سلوك أولئك الفضلاء، ومناهجهم، مع كثرة البذل في سبيل الله تعالى، وإدامة المعروف، كلها تعصم صاحبها من مصارع السوء، وأن الاشتغال بالقرآن ، وتطبيق ما استحثّ الله تعالى الأمة على فعله فيه؛ هو من سبل تحصيل النجاح والفلاح ، والتوفيق لحُسن الخاتمة .

---

(١) سورة الصافات ، الآية ٦١ .

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٢٩٤، برقم(٢٠٩)، وطبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٤٥- ١٤٦ ، برقم (١٣٠).

(٣) سورة الواقعة ، الآية ٨٩.

(٤) ينظر سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٦٠-١٦١ ، برقم(٩٥)، وشذرات الذهب ٤/ ١٢٨ .

* **ومن بَرَكة كثرة الاشتغال بالقرآن التمتّع ببقاء الحواسّ سليمة صالحة ؛** فمن ذلك ما جاء في سيرة الإمام يحيى بن أحمد السّيْبي (ت٤٩٠هـ) رحمة الله عليه، مات وله مئة وسنتان، وكان قرأ القرآن ببغداد على شيوخها، وكان حسَن الإقراء مجوّداً عارفاً، خيّراً ديّناً صالحاً، **ممتَّعاً** بقواه [1]. وغير ذلك كثير وفير في تاريخ وسِير الأمة ممن طال عمره وحَسُن عمله؛ وفي فضل ذلك روى الإمام أحمد في المسند بسنده إلى عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الناس خير؟، قال: « **مَنْ طَالَ عُمرُهُ وحَسُنَ عَمَلُهُ**، قال: فأي الناس شر؟ **قال: مَنْ طَالَ عُمرُهُ وَسَاءَ عَمَلُه** » [2]. ولا شك أنّ الاشتغال بقراءة القرآن الكريم وتعلّمه وتعليمه يعد من أحسن الأعمال وأسماها.

* **ومن أثر القرآن في الفرد ظهور الفهم لمنظومة الخلق، وتوسع المعرفة في كيفية التعامل مع المنظومات الأخرى سوى البشرية، كالتعامل مع الليل والنهار بميزان القرآن الكريم، وظهور الاحتكام إلى منهجه الفياض الداعي إلى الحق، والهادي إلى النور، والخلاص من الظلم والشرّ والتشرّد**، ويتضح

---

(١) ينظر غاية النهاية ٢/ ٣٦٥، برقم(٢٠٩)، وقال صاحب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، في حوادث السنة الثالثة من خلافة المستعلي أحمد ، وهي سنة تسعين وأربعمائة : « وفيها توفي يحيى بن أحمد السيبي. مات في شهر ربيع الآخر وعاش مائة وثلاثاً وخمسين سنة وثلاثة أشهر وأياماً؛ وكان صحيح الحواس، يقرأ عليه القرآن، ويسمع الحديث، ورحل الناس إليه. وكان ثقة صالحاً صدوقاً ».

(٢) ٣٤/ ٥٨، برقم (٢٠٤١٥)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون. وأخرجه الترمذي في السنن ٤/ ٥٦٦، برقم (٢٣٣٠). وقال عَقِبه: هذا حديث حسن صحيح.

ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[2]وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[3]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾[4]، وقوله تبارك اسمه: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾[5]؛ إذ جاء في سيرة الإمام أبي بكر محمد بن الحسين البغدادي (ت ٥٢٧هـ) رحمة الله عليه، أنّه كان من ثقات العلماء، الذين قرؤوا القراءات وجوّدوها وأجادوا تعليمها، وكان يرحمه الله ممن عاش في ظلال القرآن وتعاليمه، وقد ختم الله تعالى له الحياة بكرامة ما كان عليه من القيام والسّجود وملازمة القرآن، والمحافظة على الصلة به عزّ وجلّ؛ إذ الكريم تعالى أجرى عادته: أنّ مَنْ عاش على شيء مات عليه، ومَنْ مات على شيء بُعِث عليه كالشهيد الذي يعيش على أمل الشهادة، فيوفَّق إلى ذلك، ويسعى إلى الأخذ

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٦٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٧٩.

(٤) سورة الروم، الآية ٨.

(٥) سورة ق، الآية ٦.

بأسبابها فيُقتل في سبيل الله، ويبعثه الله شهيداً بدمه[1]، فمات البغدادي ساجداً رحمـة الله عليه، ، فكان ممن حَسُنَت خاتمته ببركة القرآن العظيم[2].

ومن الذين حفظوا قواهم وحواسّهم في ظلال منهج القرآن، ومتَّعوها في رياضــه، وهذّبوا سـلوكهم في ضوء تعاليمه ، فمتّعهـم الله تعالى بها في كبرهم؛ الإمام هبة الله بن أحمد بن عمر الشـيخ البغدادي (ت ٥٣١هـ) رحمة الله عليه، فقد عاش ستاً وتسعين سنة، قضاها في رياض القرآن الكريم [3].

وجـاء في الأخبـار أن أبـا الفَـرَج عبد الرحمـن بن الجـوزي (ت٥٩٧هـ) يرحمه الله، حدَّث عنه، وتحدَّث عن سـيرته، فقال: كان صحيح السـماع ، قوي التديّن، ثبتاً كثير الـذِّكر والفكر، دائم التلاوة، كنتُ أجيء إليه في الحرِّ، فيقول: تصعد إلى سـطح المسجد؟ فيسبقني في الدّرج، ومُتّع بسمعه وبصره وجوارحه إلى أن مات . وذكر المديني أنّه قد عمي ، ثم عاد بصيراً [4].

ولـكل ما تقدّم وغيره كثـير تظهر بركة القرآن الكريم على الأمة، وأثره في سلوك أبنائها من العلماء ومَنْ كان على أثرهم في سائر أحوالهم .

---

(١) وقد أخرج مسلم بسنده في باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، برقم (٤٩٧٠)، أنّه ﷺ قال: « **لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل الله - والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله - إلا جاء يوم القيامة وجُرْحُه يَثْعَب** - أي يسيل - **اللون لون الدم، والريح ريح المسك** ».

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٨٤، برقم(٤٢٩)، وشذرات الذهب ٤/ ٨١ .

(٣) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٨٥، برقم(٤٣٠)، والبداية والنهاية ١٢/ ٢١٢، وشذرات الذهب ٤/ ٩٦-٩٧ .

(٤) ينظر غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ٣٤٩-٣٥٠ .

ص) شفاعة القرآن ، وعودة بركته على المشتغل به بعد مماته :

أمّا شفاعة القرآن ببركة العمل به ، وثمرة صرف الأوقات في تعلّمه وتعليمه، فإنها ظاهرة جلية ؛ فكما تتجلى على المشتغل به في حياته، فلاشك أنّ نفحاتها تعود عليه بعد موته ؛ إذ جاء في الأثر أنّ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام : أَيْ رَبِّ منعتُهُ الطعامَ والشهواتِ بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعتُهُ النوم بالليل فشفعني فيه ؛ فيشفعان »[1] .

وجاء في الأثر عن عمرو بن مرّة قال : سمعت مجاهد بن جبر يقول: القرآن يشفع لصاحبه يوم القيامة فيقول يا رب جعلتني في جوفه فأسهرتُ لَيْلَه، ومنعتُ جَسَدَهُ من شهوته، ولكل عامل من عمله عمالة فيوقف له عز وجل فيقول: ابسط يدك فتملأ من رضوان الله ، فلا يسخط عليه بعدها أبداً ، ويقال له: اقرأ وارقه فيرفع بكل آية درجة ، ويزاد بكل آية درجة[2] .

ومن بين الآثار الكثيرة المشرقة في تاريخ أمّة القرآن الكريم وعودة بركة آياته على أبنائها بعد وفاتهم كمكافأة على ما مضى من سلوكهم القرآني الحياتي؛ ما جاء في سيرة الإمام أبي منصور الخياط محمد بن أحمد بن علي الزاهد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ١٧٤ ، برقم (٦٦٢٦) ، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ١/ ٧٤٠ ، برقم (٢٠٣٦) . وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٢) أخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد ١/ ٢٧٨ ، برقم (٨٠٦) . وقال : أخرجه محمد بن نصر في قيام الليل.

البغـدادي (ت٤٩٩هـ)، وله ثمان وتسـعون سـنة: كان رجلاً صالحـاً قانتاً لله، صاحب أوراد واجتهاد، وله كرامات مشهودة، عالماً بالقراءات، انقطع لاقراء القرآن طول حياته، فقرأ ولقّن خلقاً كثيراً، حتى بلغوا العشرات. وكان له ورد بين العشاءين يقرأ فيه سُبعاً من القرآن، قائماً وقاعداً حتى طعن في السّن، وكان إمام مسـجد، اعتكف فيه مدّة يعلّم العميان كلام الله، ويسـأل لهم، ويطعمهم وينفق عليهم[1].

وظهرت بركة القرآن لأبي منصور في حياته؛ بما بارك الله تعالى له في عمره، وبما كتبه له من قبول الخلق وإقبالهم على التعلم والنفع منه، ثم تجلّت بعد وفاته كـما حدَّث ابن خيْرون فقال: ما رأيت مثل يـومٍ صُلِّي على أبي منصور الخياط، من كثرة الخلق والتبرك بالجنازة.

ونقل الذهبي عن السِّلَفي أنّه قال: ذكر له المؤتمن الساجي في ثاني جمعة من وفاة الشـيخ أبي منصـور: اليوم ختموا على قـبره (٢٢١) ختمة، ودعوا عقيب كل ختمة[2].

وقـد رُئي البغدادي في المنـام بعد وفاته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي؛ بتعليمي الصبيان فاتحة الكتاب[3].

---

(١) ينظر العبر في خبر من غبر ٣/ ٣٥٦، وغاية النهاية ٢/ ٧٤، وشذرات الذهب ٣/ ٤٠٦، الأعلام للزركلي ٥/ ٣١٦.

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٥٨، برقم(٣٩٩).

(٣) ينظر ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي ١/ ٨٦.

وفـاق الأمر وفاء التلامذة لشـيخهم، وتسـخيرهم وعامة النـاس له بعد موتـه ببركـة مـا كان عليه من صحبـة القرآن، وخدمـة العميـان، والصدق في صحبـة التلامـذة وعامة الخلـق؛ ليصل إلى دخـول مَنْ ليس من هـذه الأمة في منظومتهـا، وأن يكـون رحمة الله عليه سـبباً في دخول البعض في الإسـلام بعد وفاته؛ إذ يُحدّث علي العُكْبري وهو ممن حضر جنازة أبي منصور : أنّه لم يُر أكثر خلقاً منها، وأنّه اسـتقبلهم يهودي، فرأى كثرة الزِّحام والخلق !، فقال: أشـهد أنّ هـذا الدين هو الحق، وأَسْـلَم ؛ فرحمة الله على أبي منصـور طاب حيّاً وميتاً، وهدى الله به الخلق في حياته وبعد مماته[1] .

* وفاضت بركة القرآن لتشـمل سـبط أبي منصور الخياط، وهو الإمام عبـد الله بـن عـلي البغـدادي (ت٥٤١هـ) رحمـة الله عليه ، فمع ما شـهدت لـه الصفحات من نور وإشراق وسـيرة حافلـة بالعلم والعمل والاشـتغال بالقرآن، وطيب صوته به مع كبر سـنّه، وتواضعه، وتودده للخلق ؛ فاضت عليـه هذه الـبركات بعد موته، وظهر ما منّ الله تعالى به على أجداده من العزّ والنعيم؛ فقد قال ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) رحمه الله: ما رأيت جمعاً أكثر من جمع جنازته رحمـه الله[2].

وقال ابن شـافع: سـار ذكر سـبط الخياط في البلاط والأغوار والأنجاد ، ورأس أصحـاب الإمـام أحمد، وصار أوحد وقته ونسـيج وحده، لم أسـمع في

---

(١) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٥٩، برقم(٣٩٩) .

(٢) ينظر المنتظم ١٠/ ١٢٢، برقم(١٧٨)، الأعلام للزركلي ٤/ ١٠٥ ،

جميع عمري من يقرأ الفاتحة أحسن ولا أوضح منه. وكان جمال العراق بأسره. وكان ظريفًا كريمًا لم يخلف مثله في أكثر فنونه[1].

وقد صلى عليه إمام الحنابلة في بغداد الشيخ عبد القادر الجيلي، ودُفن عند دكّة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهما، وأغلق أكثر أهل البلد ذلك اليوم[2]، وكان الجمع يفوت الإحصاء .

وروى الذهبي بسنده إليه أبياتاً من الشِّعر يقول فيها:

أيّـهــا الزائرون بعـــد وفـــاتي
جَـــدَثـاً ضمَّني ولَـحْــداً عميقـا
ســترونَ الذي رأيـتُ مـــن المـــو
تِ عيانـــاً وتسْلُكون الطَّريــقا[3]

* ومـن أولئـك الذين فاضت عليهـم نفحات بركة القـرآن بعد موتهم ؛ الإمام علي ابن هُذيل الزاهد (ت٥٦٤ هـ) رحمة الله عليه ، فقد بلغ - كما أشرنا سـابقاً - في التجويـد والإتقان والإمامة أسـمى المراتـب، وكان صدر المقرئين وإمـام المجودين، عمّر فانتهت إليه رياسـة الإقراء بـشرق الأندلس في عصره، متقنـاً ضابطاً مجوداً حسـن الأخذ على القراء، مشـهور الفضـل والزهد والثقة

(١) ينظر ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي ١/ ١٨٩ .
(٢) أي تركـوا الاشـتغال بالتجـارة والبيـع والشراء لهول مـا أصابهم ، وانشـغالًا بما ألّم بهم، وحرصـاً عـلى حضور الجنـازة، وتحصيل الثواب ، ولاسـيما في أداء مـا أخبر النبي ﷺ بتحققه من عظيم الأجر في الصلاة على الميت وتشييعه وحضور دفنه .
(٣) معرفة القراء الكبار ١/ ٤٩٧، ونزهة الألباء ١/ ١٧٤ ، وشذرات الذهب ٤/ ١٢٨ .

والعدالـة، صالحاً متواضعاً خيّراً ، كثـير الحياء، صوّاماً قوّاماً، وكان متى توجه إلى ضيعتـه بغـربي بلنسـية صحبه طلبة العلـم إليها للقراءة عليه والسـماع منه، فيحمـل ذلك منهم ، طلـق الوجه منشرح الصدر جميل الصـبر، وينتابونه ليلاً ونهـاراً فلا يسـأم من ذلك ولا يضجر على كبرته حسـبما كان عليـه أمره معهم قبلها، ولمّا توفي حضر سـلطان بلنسـية أبو الحجاج يوسـف بن سعد، وتزاحم الناس على نعْشـه، ليدركوه بأيديهم، ثم يمسحون بها على وجوههم ، متبركين بـه باكين فقده، وأتبعوه ثناء حسناً وذكراً جميلاً .

وقد رثاه ابن واجب بقوله:

لـمْ أَنْسَ يـومَ تهادى نَعْشَـهُ أَسَـفاً

أيـدي الورى وتراميها على الكفنِ

كزهـرةٍ تـتـهاداهـا الأكُـفُّ فـلا

تُــقـيـم في راحةٍ إلا على ظـعَـنِ[1]

فرحمـة الله عليـه كان أنموذجاً رائـداً في التعامل مع القـرآن، ورمزاً لـمَنْ ظهـر أثر القـرآن الكريم عليهم؛ بصفاته الحميدة، وخصالـه الفاضلة الفريدة، وتعاملـه مع النفـس والخلق بمنهج القرآن، وحرصه على بـثّ العلم والمعرفة، والغنـى عن النـاس بما يسّره الله تعالى له من سـبل العيش، ونـشر ثقافة الوداد والرحمة بين الخلق، ورعاية من أوصى الله ورسوله ﷺ بهم كالأرامل والأيتام، وطلبـة العلم ، والمحافظة على إنماء ذخيرة الآخرة ؛ بكثرة الصدقات، والدعاء

(١) السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ١/ ٣٧١ .

في الأوقات الفاضلة لتحقيق حسن الخاتمة والفوز بما فيها من مسرّات، فطاب حياً وميتاً ، وطيّب الله ثراه، وغفر له، ورفع مقامه، وجعلنا على أثره.

* ومن الذين فاضت عليهم بركة القرآن في حياتهم وبعد مماتهم؛ الإمام الحافظ الواعظ المفسِّر أبو الفَرَج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت٥٩٧ هـ) رحمة الله عليه، فقد استثمر عمره في العيش مع القرآن وفي ظلال معانيه، واستنباط أحكامه، وتعلّم وتعليم موعظته، واستلهام حِكْمَته؛ تجويداً وإتقاناً وتفسيراً، ووعظاً وإرشاداً حتى بلغ أسمى المراتب في تأليف ما يتعلّق بالقرآن وعلومه وتفسيره ومواعظه، وكان له التأثير الكبير والحضور المميّز في قلوب الخلفاء والوزراء والعلماء والأغنياء والفقراء، وكان مجموع مشايخه نيف وثمانون شيخاً قد خرّج عنهم، وكانت وفاته ليلة الجمعة بين العشاءين الثالث عشر من رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة في داره بقطفتا، وله سبع وثمانون سنة قضاها في صحبة القرآن والإفصاح عن مكنون معانيه، والصبر على البلاء احتساباً لما جاء في مضامين الكتاب العزيز من عظيم الثواب للمحتسبين الصابرين.

قال الإمام الذهبي: (وغسّل يرحمه الله وقت السَّحر ، وغُلّقت الأسواق، وجاء الخلق، وصلى عليه ابنه أبو القاسم علي اتفاقاً ، لأن الأعيان لم يقدروا من الوصول إليه ، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور ، فصلوا عليه ، وضاق بالناس ، وكان يوماً مشهوداً ، فلم يصل إلى حفرته بمقبرة الإمام أحمد إلى وقت صلاة الجمعة، وكان في تموز، وأفطر خلق، ورموا نفوسهم في الماء، وأُنزل في الحفرة، والمؤذن يقول الله أكبر، وحزن عليه الخلق، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان

يختمـون الختمات ، بالشـمع والقناديـل ، ورآه في تلك الليلـة المحدّث أحمد بن سلمان في النوم وهو على منبر من ياقوت ، وهو جالس في مقعد صدق والملائكة بين يديه . وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا الأبيات:

يَـا كَثِيْـرَ العَفْـوِ عَمَّـنْ كَثُـرَ الذَّنْـبُ لَدَيْـهِ
جَـاءكَ المُذْنِـبُ يَرْجُـو الـ ـصَّفْـحَ عَـنْ جُـرْمِ يَدَيْـهِ
أَنَـا ضَيْـفٌ، وَجـزَاءُ الـ ـضَّيْـفِ إِحْسَـانٌ إِلَيْـهِ)[1]

ض) إصلاح منظومة الأُسرة حضارياً :

شـهدت الأُسرة في الإسـلام أسـمى رتب الامتياز في ظل التعاليم الإلهية المنظِّمـة لطبيعـة تكوينهـا، والمصلِحـة لمنظومة كيانهـا من خلال آيـات القرآن الكريـم والآثـار النبويـة الشريفـة؛ فالإسـلام نظّـم قضايـا الأسرة المتنوّعـة كالـزواج ورعايتـه، وكيفية الانتقـاء والبذل لإنجاحه، والعلاقـة بين المكونين الرئيسـين فيهـا -الـزوج والزوجـة-، وإنجـاب الأولاد ورعايتهـم، وتنظيم علاقـة أبنـاء الأسرة بالأبويـن وفيما بينهـم، وكذلـك دور الأسرة في المجتمع، وقضايـا الطـلاق وأسـاليبه، وعلاجاتـه، وآثـاره، وكلّ مـا يعـد من الأسـس التكوينية والاعتبارية للأسرة في الإسـلام؛ ولسنا هنا في طور عرض إنجازات الإسـلام العظيمـة في مجالات الحياة الأسرية بقدر الوقـوف على بعض المناهج والكلـمات المشرقة التي دفعـت صاحب القوامة - الرجل- إلى إحسـان قيادة

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٨٠-٣٨١ ، برقم(١٩٢).

الأسرة، وضبط سلوكها وفق المنهج القرآني، ومن بين هذه السطور المنوّرة تتضح لنا بارقة عناية الأب بالابن للوصول به إلى مراتب الكمال في البنيان الجسماني والروحي والأخلاقي، وإعانته على البناء العلمي مع ما يضفيه عليه من رعاية في سائر مراحل بنيانه ؛ فقد كان من سنن الأولين الارتحال بأبنائهم لطلب العلم وعلى رأسه علم كتاب الله تعالى، وكذلك تعليمهم وإعانتهم على تحمّل مفارقة الأوطان والأهل من أجل نفع البشرية، وحفظ الدين، ولعل من أهم ما يُحافظ عليه في تنشئة الأبناء أن يكون بناؤهم قرآنياً، وأنّ من أجلِّ ما يتعلّمه الإنسان ، ولاسيما المسلم هو القرآن الكريم ؛ باعتباره العلم الذي لا شك فيه، ولا يتطرّق إليه احتمال وقوع الخطأ أو السهو، وهو مع ما فيه من علوم ومعارف تُصلِح نظام حياتنا، ومنظوماتنا الفردية والأسرية والاجتماعية والأممية ؛ فإنّ فيه من السُّبل التربوية، والأساليب التوجيهية، والمناهج التصحيحية لسائر سلوكياتنا المتنوّعة، ما يغني عن سائر المناهج البشرية القابلة للنقض، أو المحتاجة إلى تعديل وإتمام لما فيها من نقص وتناقض وأوهام، أو كونها نظريات مبنية على وقائع لا تتناسب مع طبيعة مجتمعاتنا ولا فطرتنا المسلمة؛ مما يجدر بكل عاقل أن يتتبع تعاليم القرآن ويتّبعها، ويأخذها بعين الاعتبار ، ويبذل جهده في تطبيقها والاستئثار بها ؛ فإنها إنما جاءت من لدن خبير بالإنسان واحتياجاته، عليم بما يصلحه ويحقق له السعادة الأبدية، وهو الله الملك القدوس جلّ جلاله، ومع كثرة ما جاء في السنّة النبوية المطهّرة من حثّ على تعلّم القرآن الكريم مما أشرنا إليه سابقاً ؛ فقد ورد في الأثر أيضاً عن أبي الضحى قال : كان الضحاك بن قيس يقول: « يا أيها الناس علّموا أهاليكم القرآن ؛ فإنه من كتب الله عز وجل له من مسلم أن يدخل الجنة من

ذكـر أو أنثـى ، أتاه ملـكان فاكتنفاه، فقالا له: اقرأ وارتـق في درج الجنة ، حتى ينزلاه حيث بلغ علمه من القرآن »[1].

ومن بين هـذه المواقف ولاسـيما المتعلّقة بمنظومة الأسرة والعنايـة بالابن فيها ما جاء في سـيرة الإمام محمد بن الحسـن الأندلسي (ت٥٤٧ هـ) رحمة الله عليه ؛ إذ ارتحل بابنه إبراهيم ، لينال نصيبه من العلم والمعرفة ، وليحضر مجالس العلم مع والده فسمع من كبار أهل العلم والقرآن ، ثم تصدّر فيما بعد لإقراء القرآن الكريم والتحديث وتعليم العربية[2].

وفي صفحات رعاية الابن وإعانته على الرحلة بغية تحقيق مسـتقبل مشرق في العلم والمعرفة، وإتمام بنائه الثقافي جاء في سيرة الحسن بن سعيد (ت ٣٧١هـ) رحمـــة الله عليـه ، أنّـه قـد تكفّل به والـده الواعـظ والمُحدّث سـعيد بن جعفر العَبّاداني رحمة الله عليهما، وكان الوالد قد أدرك لذّة العلم وخدمة الدين، وتيقّن عظيم أجر العمل في سبيل الله عزّ وجلّ ، فأدى دوره الأبوي والرعوي، وأفاد مـن القرآن في بناء النظام السـلوكي الأُسري، فأعان ولده الحسـن على الرحلة في طلب العلم ، وذلل له الصِعاب، حتى اشتهر الولد بالقراءات، واعتنى بها، وتبحَّـر فيهـا، وتحققت له ثمرة الإكثار من الرحـلات في الأقطار؛ إذ لقي كبار الأسـاتذة في العلوم والفنون، وأصبح رأسـاً في القـرآن الكريم، وحفظه . قال

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ١٣٧ ، برقم (٣٤٧٩٣) ، بلفظ « **علموا أولادكم وأهليكـم** .. ». وأخرجـه ابـن أبي الدنيا في كتابـه العيـال ١/ ٤٨٢، برقم (٣١١) ، واللفظ له .

(٢) ينظـر معرفة القراء الكبـار ١/ ٥٠٥، برقم (٤٥٦)، وغايـة النهاية ٢/ ٢٢١- ٢٢٢، وشذرات الذهب ٤/ ١٤٤ .

فيـه الإمـام الذهبي: أبوه كان سـبب إعانته على الرحلة، وقـد عمّر طويلاً ، إذ توفي وقد جاوز المئة عام رحمة الله عليه، قضاها في خدمة علوم الشريعة، ونفع الخلق، والتقرب من الله عزّ وجلّ بالعلم والتعليم[1].

وكمـا كان لأبي الحسـن الواعظ المحدِّث الأثر في نشـأة ولـده وتعليمـه؛ كان لأبي محمـد أحمـد السُّـلمي الدمشـقي الأثر في شـهرة ولده محمـد؛ إذ كان أحمـد السـلمي إمـام مسـجد سـوق الجبن في دمشـق، ولمّـا كبر محمـد بن أحمد (ت٤٠٨هــ) رحمـة الله عليه، ونال مما نالـه والده من الإمامـة، وبرع في العلم والقـراءات؛ وعاش يرحمـه الله عمراً حافلاً ببركة القـرآن وعلومه حتى جاوز الثمانين، وكان قد ذاع صيته وطافت شـهرته بأبي بكر الجُبْني الدمشقي المقرئ، نسـبة إلى ذلك السـوق الذي فيه مسجد والده -مسجد تل الجبن بدمشق-[2]، وهـذا يُذكّر الآباء بأن سـلوكهم وأحوالهم وأعمالهم ومواطنهـا كلّه مما له الأثر في الولد ونشـأته، وشـهرته، وبما يترتب عليهم من حُسن اختيارها، وضرورة سلامة اصطفائها قدر المستطاع.

ومنهـم مَـنْ خرج بصحبـة والده بنـاءً على رسـالة سـلطانية إلى بلد آخر ليتعلّم وينال نصيبه من المعرفة ، ثم فاضت عليه بركات الله تعالى فأصبح إماماً ومتصدّراً في إقراء القرآن ، وثقة ، شـاعت سـيرته الحسنة في الأمصار، كالإمام هبة الله بن أحمد البغدادي (ت ٥٣٦ هـ)رحمة الله عليه ؛ فمما جاء في سـيرته أنه

---

(١) ينظـر معرفـة القراء الكبـار ١/ ٣١٧، برقم(٢٣٧)، وغاية النهايـة ٢/ ٢١٣- ٢١٥، وشذرات الذهب٣/ ٧٥.

(٢) ينظر طبقات المفسرين ، للداوودي ٢/ ٧٤-٧٥، برقم(٤٣٨).

صحب أباه أحمد بن عبد الله وانتفع بآثار هذه الصحبة ، وكذلك نال مما ناله من الحظوة التي أولاه إياها السلطان ؛ إذ خرج إلى العراق مع أبيه في رسالة السلطان تاج الدولة تتش إلى السلطان ملكشاه. ثمّ وفّقه الله تعالى فجلس يؤدّب النّاس ويؤمّهم ويحدّثهم بما كان يُفتَح عليه من فهم القراءات والحديث الشريف[1].

*** ومن أثر القرآن الكريم في إصلاح بقيّة منظومة الأسرة ، ورعايتهم في ضوء منهجه وتعاليمه ؛** جميل ما أشرقت به صفحات الأُسرة المسلِمة في تاريخ هذه الأمة، ولاسيما حرص رعاتها على أداء واجب الوقت، وتحمّل المسؤولية تجاه الأبناء وأمّهم من حيث العموم، وعنايتهم بهم في التعليم، والمعرفة، واكتساب الخبرات؛ فمن ذلك ما جاء في سيرة الإمام أحمد بن عبد الله اللَّخْمي المغربي (ت٥٦٠ هـ) رحمة الله عليه، أنّه قدِم من فاس فسَكَنَ الإسكندرية بمصر، وقرأ الفقه والعربية، وتصدَّر للإقراء، وتأهّل للقضاء، وذاع صيت صلاحه وعبادته وتعففه والتزامه بما عليه أهل السُّنّة والجماعة، وكان لا يقبل لأحد شيئاً، ولا يرتزق على الإقراء، وتزوّج ؛ فرعى أسرته رعاية نفسه في العلم والفنّ، وعلّم زوجته الخط، ثم وُلدت له بنت، فعلّمها الخط، كأحسن ما يكون حتى كانتا تكتبان مثله سواء، وقد شاع مدح خطه فكان مرغوباً فيه لإتقانه وجودته، ثم كان هو وبنته وزوجته، ينسخون في الكتاب الواحد، فلا يُفرّق بين خطوطهم، وهذا من عجيب الاتفاق والإتقان، وحُسْن التوفيق، فرحمة الله تعالى عليهم أجمعين، وهو في الوقت نفسه أثر من آثار البركة

---

(١) تنظر طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٣٢٤، برقم(١٠٢١).

القرآنية الشاملة لمفهوم العناية بمنظومة الذريّة وشقيقة المودة والرحمة، وتطبيق لسمات الوقاية في الدنيا والآخرة التي أوضحتها آيات الكتاب المجيد [1].

ظ) رغبة المجتمع المسلم وسعيه إلى الكسب الحلال، والزهد بما سواه:

لا شك أن تشريع قانون يوضّح للإنسان مسار كسبه، ويصنّف جهده، ويفْصل في كون هذا الكسب إما من الحلال أو الحرام، وينبهه على وجود أمور مشتبهات تقع بين الاثنين؛ يُعد من بين أهم الأسس في إقامة العدالة الإلهية في الحياة الدنيا والتي جاءت في القرآن الكريم، وفي الوقت نفسه تلحظ البشرية كيف حثّت الآيات الكريمة الناس على السَّعي من أجل تحقيق الحلال وتحرّيه، واجتناب الحرام والتخلي عنه، والوقاية من الشُّبَه الموقِعَة فيه قدر المستطاع، وهذا الحثّ والتشريع يمهّد للأُمم سبيل السعادة في الدنيا والآخرة؛ بكتاب الله الخاتم لسائر رسالاته المبشِّرة بالإسلام فيمن سبق، المنزّل بلغة العرب إلى النّاس كافة إلى يوم الدِّين؛ يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[2]، ويقول تبارك اسمه: ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾[3]، ويقول عزّ وجلّ:

---

(١) تنظر وفيات الأعيان ١/ ١٧٠ – ١٧١، برقم(٦٩)، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٥٢٦، برقم(٤٧٠)، وشذرات الذهب ٤/ ١٨٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٨.

(٣) سورة المائدة، الآية ٨٨.

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[1] .

* **وفي حثّه عزّ وجلّ على التزام المنهج الحق الذي علّمه لعباده، وعدم الانسياق وراء الأهواء في الحُكْم على الأشياء بغير علم**، أو تصنيفها حلالاً أو حراماً دون أن يرد من الله تعالى أو رسوله ﷺ توجيه بذلك، يقول سبحانه مذكّراً ومقيّداً لحالة أكثر ما تكون اليوم مشاعة في مجتمعاتنا: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾[2].

وأوضح جلّ وعزّ لعباده ما قرّره في القرآن الكريم، ولاسيما في حق مَنْ تمادى في إطلاق الأحكام بناءً على الرغبة النفسية، أو النظرة القاصرة، أو الهوى المشترك بين منظومتي الإنسانية والشيطانية، فقال تعالى: **﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾**[3].

ولا بد للعبد من الاستعانة بالله تعالى على طلب الحلال، والتوكل عليه في تحقيقه؛ فالعبد أحوج شيء إلى مولاه، ولاسيما في طلب إعانته على فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدور، وتحصيل ما ينفعه في حياته وآخرته، وأن يعمل جاهداً على أن تكون استعانته المطلقة بالله تعالى

---

(١) سورة النحل، الآية ١١٤ .

(٢) سورة يونس، الآية ٥٩ .

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٤٠ .

وعـلى كلّ حـال؛ فهو تعالى الباعث على الطاعة والمعـين عليها وعلى أدائها على أحسـن وجـه يرتضيه من عباده، ومما جاء في الأثـر عن معاذ بن جبل رضي الله عنـه، أن رسـول الله ﷺ أخذ بيده يوماً ثـم قال: « **يا معـاذ، والله إني لأحبّك**، فقـال معـاذ : بأبي وأمي يا رسـول الله ﷺ، وأنـا والله أحبّك، فقـال: **أوصيك يـا معـاذ لا تدعنّ في دبر كل صـلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشـكرك وحسن عبادتك** »[1] .

وكذلـك دعوتـه ﷺ الأمة أن تتمسّـك بهـذه الكلمات؛ إن تمسّـك الناس بالذهـب والفضـة أو شـغلتهم الدنيـا، فمما جـاء في الأثر عن شـداد بن أوس رضي الله عنه، أنّه قال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: « **إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسـألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرّشـد، وأسـألك شكر نعمتك ، وأسألك حسـن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، وأسألك لساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، واستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب** »[2] .

ومما لا شك فيه أنّ ما ذُكِر من هذه الوصايا النبوية لا ينافي القيام بالأسباب فإنها من جملة سـؤال الله والاسـتعانة به، وأن مَنْ طلب رزقه تعالى بسـبب من أسباب المعاش المأذون فيها؛ رُزق من جهته فهو منه تعالى، وإن حُرم فلا يدري لعل ذلك لمصلحة لا يعلمها، والأمر لله تعالى من قبل ومن بعد.

---

(١) أخرجـه الحاكم في المسـتدرك على الصحيحـين ١/ ٤٠٧ ، برقـم (١٠١٠) ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٢٣ ، برقم (١٧١٥٥) .

ولا شـكَّ أيضاً أن الكسب الممدوح المأجور فاعله عليه هو ما كان لطلب الكفايـة له ولمن يعوله، أو الزائد عـلى ذلك إذا كان يعدّه لقرض محتاج أو صلة رحـم أو إعانـة طالـب علـم أو نحوه من وجـوه الخير . أمّا غير ذلـك فإنما هو مـن الاشـتغال بالدنيـا، وفتح بـاب محبّتهـا الذي هـو رأس كل خطيئـة ، وفي ذلـك جاءت العديد من الأقوال المأثورة التي تحثّ على الوقاية من الاسـتكثار الشـاغل عن أمر الدين، ولاسـيما مَنْ عرف من نفسـه أو خـاف عليها التوغل في الدنيا والانشـغال عن ذكر الله تعالى ؛ فمنها ما جاء عن عبد الله بن مسـعود رضي الله عنـه أنّ النبـي ﷺ قـال: « **لا تتخذوا الضيعة فترغبـوا في الدنيا** »[١] ، أمّـا مَـنْ لم يخف ذلك من نفسـه، ووثق مـن قيامه بالأوامر الإلهية على حسـب وجههـا، وفي وقتهـا، فلـه أن يتخـذ مـا شـاء مـن الأراضي كما اتخـذ النبي ﷺ الأراضي واحتبـس من الضياع ؛ فيكون بذلك من الرجال الذين امتدحهم الله تعـالى بقولـه: ﴿ .. **رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ** ﴾[٢]. وممـا هـو معلوم أن طلب الحلال وكسـبه مندوب أو واجب وجهاد إلا للعالم المشـتغل بالتدريس، والحاكم المستغرقة أوقاته في إقامة الشريعة، ومَنْ كان من أهل الولايات العامة كالإمام؛ فترك الكسب بهم أولى، لما فيه من الاشتغال عن القيام بما هم فيه[٣] .

(١) أخرجـه الطيالـسي في مسـنده ١ / ٢٩٧ ، برقـم(٣٧٧)، والحاكم في مسـتدركه ، كتاب الرقـاق ٤ / ٣٥٨، برقم(٧٩١٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسـناد ولم يخرجاه. وجاء تعليق الذهبي في التلخيص: صحيح .

(٢) سورة النور، الآية ٣٧ .

(٣) ينظر سبل السلام ٤ / ١٧٧ .

ومما جاء في الأثر عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، دلّني على عمل إذا عملته أحبّني الله وأحبني النـاس؟ فقال ﷺ: « **ازهد في الدنيا يحبُّك الله، وازهد فيما عند النّاس يحبك الناس** »[1].

والمعنى -والله أعلم- : دلّني على عمل جامع نافع في باب المحبة، إذا أنا عملته أحبنـي الله وأحبني الناس ، قال: ازهـد في الدنيا ، أي: بترك حبّها والإعراض عـن زوائدهـا، والإقبـال على الآخـرة وعوائدها ؛ يحبّك الله تعـالى - أي لعدم محبتك ما يكرهه الله تعالى، ولاسـيما أعداءه وما يظهر أو يبطن ولايتك لهم- ، وازهـد فيما عنـد الناس - أي من المال والجاه- ؛ يحبّك الناس لتركك محبوبهم، وعدم المزاحمة على مطلوبهم، وأنشد بعضهم :

ومـا الزهـد إلا في انقطاع الخلائق

ومـا الحـق إلا في وجـود الحقائـق

وما الحـب إلا حب مـن كان قلبه

عن الخلق مشـغولاً برب الخلائق

ولا شك أن شيئين إذا عملهما المسلم أصاب عز الدنيا والآخرة ؛ التحمل لمـا يكـره إذا أحبّه الله تعـالى، والترك لما يحـبّ إذا كرهه الله تعـالى، فهو بذلك يسلم من شرٍّ كبير، ويحظى بخير وفير، والله يتولى توفيقه والإحسان إليه .

---

(١) جاء في كتب الحديث : حديث حسـن، وقد رواه ابن ماجه وغيره بأسـانيد حسنة. وقد ذكره صاحب البيان والتعريف ١/ ٩١ ، برقم(٢١٢) .

ومما نلحظه أنّ السّلف يرحمهم الله تعالى بينوا معاني الزهد الواردة في هذا الحديث؛ أنّه انصراف النّفس عن الدنيا مع القدرة عليها لأجل الآخرة خوفاً من النار، أو طمعاً في الجنة، أو ترفعاً عن الالتفات إلى ما سوى الحق، ولا يكون ذلك إلا بعد شرح الصدر بنور اليقين ، و قد لا يتصور الزّهد ممن ليس له مال ولا جاه [1].

ومما جاء عن حكيم الزمان الإمام يحيى بن معاذ الرازي (ت٢٥٨هـ) رحمة الله عليه ، أنّه قال: « الزهد يورث السَّخاء بالـمُلك، والحبّ يورث السَّخاء بالروح »[2] .

وسئل الإمام الجنيد بن محمد البغدادي يرحمه الله عن الزّهد ؟ فقال: « خلو اليّد من الـمُلك، والقلب من التتبع، وخلو القلب عمّا خلت منه اليد »[3] .

وقال بعضهم لمالك بن دينار رحمه الله : يا زاهد ، قال : الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففيم زهدت ؟! [4].

ولاشك أنّ هذا فيه بيان لكمال الزّهد كما قال صاحب « فتح القوي

---

(١) ويرى آخرون: أنّ الزهد مرتبة قلبية ؛ فهي تشمل الفقير والغني .

(٢) الرسالة القشيرية، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق، ص ١١٦-١١٧ .

(٤) وروى أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٢٥٧، بسنده إلى مالك بن دينار ، أنه قال : إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها ، وجاء في الزهد لابن أبي الدنيا برقم(٥٢٩) : أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها .

المتين»، وإلا فأصل الزّهد : هو عدم الميل إلى الشيء، وهو في الحقيقة لا يحصل إلا بنفحة إلهية تصرف السّالك عن الأمور الفانية، وتشغله بالأحوال الباقية .

وغايته: أن النَّفس مدعية للزهد ، ولا يظهر صدقها من كذبها إلا عند القدرة على الدنيا ووجهها ، وأما عند فقدها فالأمر دائر بين أحد الاحتمالين.

وثمرته: القناعة من الدنيا بقدر الضرورة من زاد الطريق ؛ وهو مطعم يدفع الجوع ، وملبس يستر العورة ، ومسكن يصون عن الحرِّ والبرد ، وأثاث يحتاج إليه.

وكذلك فيه دليل على أن الزّهد أعلى المقامات، وأفضلها؛ لأنه ﷺ جعله سبباً لمحبّة الله تعالى، وأنّ مُحبّ الدنيا متعرّض لبغض الله سبحانه .

وأنّ الزّهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزَّهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله تعالى ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أُصِبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك.

وأن الزّهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرّغبة في الدنيا تطيل الهمّ والحزن، وأنّ أصحاب رسول الله ﷺ أحرصُ الناس على فعل كلِّ معروف، وأسبقُ الناس إلى كلِّ خير، وقد حرص الصحابيُّ في الحديث السّابق على معرفة ما يجلبُ له محبَّةَ الله ومحبَّة الناس، فبادَر إلى سؤال النَّبي ﷺ هذا السؤال، ومما يُلحظ أن هذا التساؤل يتجدد للمسلم في أي عصر ومِصْر؛ فعليه أن يقدّم محبَّة الله عزَّ وجلَّ على أي شيء، ويحرص على أسباب تحصيلها، ولاسيما بالزّهد في الدنيا، وترك كلّ ما يشغله عن الله تعالى.

وجـــاء في الأثر عن أبي سـليمان الـداراني ، أنّـه قـــال: « اختلفوا علينا في الزّهـد بالعـراق، فمنهم مَـنْ قال: الزهد في ترك لقاء النـاس، ومنهم مَنْ قـال: في ترك الشـهوات، ومنهم مَـن قال: في ترك الشّـبع، وكلامهم قريب بعضُـه مـن بعض، قال: وأنا أذهب إلى أنَّ الزهدَ في ترك ما يشـغلك عن الله عزَّ وجلَّ. وهذا الذي قاله أبو سـليمان حسن؛ وهو يجمع جميع معاني الزهد وأقسامه وأنواعه » [1].

وفي الأثر المرفوع جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: « **يـا أيهـا النـاس إنَّ الله طيِّب لا يقبل إلا طيبـاً، وإن الله أمر المؤمنـين بما أمر به المرسـلين فقـال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[2]، وقـال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾[3]. ثـم ذكر الرجل يطيل السَّفر ، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام ، وغذّي بالحرام؛ فأنّى يُستجاب لذلك !** » [4].

وكان أبو يوسف الغسولي رحمه الله يلزم الثغر، ويغزو في سبيل الله، فكان إذا غـزا مـع الناس ودخلوا بلاد الروم أكل أصحابـه من ذبائحهم، وفواكههم

---

(١) جامع العلوم الحكم (٢/ ١٨٦) .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٥١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٧ .

(٤) أخرجـه الإمـام مسـلم في صحيحـه ٢/ ٧٠٣، برقـم(١٠١٥) ، والإمام أحمد في مسـنده ٢/ ٣٢٨ ، برقم (٨٣٣٠) .

وهو لا يأكل، فيقال له: يا أبا يوسف أتشك أنّه حلال ؟ فيقول: لا، فيقال له: فَكُلْ من الحلال ، فيقول : إنما الزهد في الحلال [1].

وجاء عنه أنه قال: ليَكْفيني في السنة اثنا عشر درهماً في كل شهر درهم، وما يحملني على العمل إلا السُّنّة ؛ هؤلاء القراء يقولون: أبو يوسف من أين يأكل ؟! أنا أتفقّه في مطعمي من ستين سنة [2].

وجاء في الأثر : أن بشر بن الحارث رحمة الله عليه قال: سمعت المعافي ابن عمران يقول: كان عشرة فيمَنْ مضى من أهل العلم ينظرون في الحلال النَّظر الشديد، لا يُدْخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال، وإلا استفوا التراب، ثم عدَّ بشر؛ إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص، وعلي بن الفضيل، وأبا معاوية الأسود، ويوسف بن أسباط، ووهيب بن الورد، وداود الطائي حتى عدّ العشرة . وقال بشر: ينبغي للرجل أن ينظر خبزه من أين هو ، ومسكنه الذي سكنه أصله من أي شيء هو ، ثم يتكلّم - أي بالموعظة والزّهد والورع بين الناس- [3].

وقال محمد بن مقاتل: ينبغي للرجل أن ينظر رغيفه من أين هو ، ودرهمه من أين هو [4].

---

(١) ينظر مختصر شعب الإيمان، للقزويني، ص ٨٤ .

(٢) ينظر الورع، لأبي بكر المروذي، ص ١٤ ، برقم(٣٣) . وقد قال ابن حبان في الثقات ٩/ ٢٨٤ ، برقم(١٦٤٥٧): « اسمه يعقوب بن المغيرة، من عبّاد أهل الثغر، ممن لا يأكل إلا الحلال المحض، فإن لم يجد استفّ الرملة ».

(٣) ينظر الورع، لأبي بكر المروذي، ص ١٥ ، برقم(٣٧) . وتاريخ مدينة دمشق ١٠/ ٢٠١ .

(٤) ينظر الحث على التجارة والصناعة والعمل، لأبي بكر ابن الخلّال الحنبلي، ص ٤٤ ، برقم (٣٦) .

ومن الكلمات المشرقة في صفحات الأمة ووصايا رسولها الكريم ﷺ؛ ما جاء في الأثر عن الحسن قال: قالوا يا رسول الله: أي الأعمال أحبّ إلى الله عز وجل؟ قال: « **كسب الحلال، و أن تموت و لسانك رطب من ذكر الله عزَّ وجَلّ** »[1].

ومن المعلوم أن المسؤولية الكبيرة في هذا الباب إنّما تترتب على أهل العلم وحملته، ولاسيما في تذكير الناس بطلب الكسب الحلال، والتعامل مع هذا الجانب من خلال ميزان الشريعة، وإظهار مدى تأثير القرآن الكريم في ضبط سلوك الأمة، وتوجّهات أبنائها.

وعلى أهل العلم كما قال الفقيه أبو الليث رحمه الله تعالى: أن يحافظوا على الخشية، والنصيحة، والشفقة، والاحتمال، والصبر، والحلم، والتواضع، والعفّة عن أموال الناس، والدوام على النظر في الكتب لمراجعة ما تعلّموه من المسائل، وأن لا ينازعوا أحداً، ولا يخاصموه في غير حق، وأن يشتغلوا بما يُصلح النفس والأمّة، وإن أرادوا أن يرغموا أنف عدوّهم فليحصّلوا العلم وفنون هذا الإرغام، وأن لا يترفوا أنفسهم في المطعم والملبس، ولا يبالغوا في التجمّل بالأثاث والمسكن، بل يؤثروا الاقتصاد في جميع الأمور، ويتشبّهوا بالسَّلف الصالح، وكلّما ازداد إلى جانب القلّة ميلهم ازداد قربهم من الله سبحانه وتعالى؛ لأن التزين بالمباح وإن لم يكن حراماً - لِـمَن أسرف في الخوض فيه - يوجب الأنس به حتى يشقّ تركه، فالحزم اجتناب ذلك لأن مَنْ خاض في الدنيا لا يسلم من مهالكها مع كونها مزرعة الآخرة؛ إذ فيها الخير والشر.

---

(١) أخرجه أبو بكر عبد الله القرشي في إصلاح المال ١/ ٧٢، برقم (٢٠٨).

وجاء في صفحات الأمة المشرقة أنه قد قيل لمعروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ) رحمة الله عليه : أوصِ؛ فقال: إذا متُّ فتصدّقوا بقميصي هذا، فإنّي أُحبُّ أن أخرج من الدنيا عُرياناً كما دخلتُ إليها عُرياناً[١] .

ولا شكّ أن استثمار المال بوجهه، ومعرفة رتبته في إصلاح أمور الدنيا من أجل الآخرة، تقود إلى النعيم؛ فنعم الصالح منه للصالح إذا جعله خادماً لا مخدوماً ، والمال مطلوب لتقوية البدن بالمطاعم وستره بالملبس، ولكسب المعارف والعلم الذي هو المقصد الأسمى، ومن أهم ما يؤكَّد عليه في هذه الفقرة مراعاة جهة الدخل فمَنْ قدر على كسب الحلال الطيّب فليترك المشتبه به، وإن لم يقدر فلا يأخذ من المشتبه به إلا قدر الحاجة.

وعلى المسلم أن يلتزم المنهج الوسط في سائر أموره ؛ فإنّما هو المنهج الصحيح الذي علمنا إيّاه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[٢].

وقد جاء عن إمام السّلف سعيد بن المسيب يرحمه الله ، أنّه قال: لا خيرَ في مَن لا يطلب المالَ يقضي به دَيْنَه، ويصون به عِرْضَه، ويقضي به ذِمامَه- الحقوق التي عليه- ، وإن مات تَرَكه ميراثاً لـمَن بعده[٣].

---

(١) ينظر حلية الأولياء ٨/ ٣٦٢، وطبقات الأولياء ص ٢٨٥ .

(٢) سورة الإسراء، الآية ٢٩ .

(٣) ينظر الحث على التجارة والصناعة والعمل، لأبي بكر ابن الخلّال الحنبلي، ص ٥٠، برقم (٥١) .

وعليه: فلابد أن يقدّم المسلم النيّة في مدخولاته ومصروفاته المالية، وأن يستعين بها على الطاعة والعبادة، وعلى توظيفها وطاقاته في سبيل الله عزّ وجلّ؛ فهذا خير ما تصرف فيه النوايا، ومنه تعالى التوفيق والإعانة .

*** وفي القناعة بما منّ الله تعالى به من الرّزق، والتسليم لإرادته تعالى في ذلك، وترك التكلّف للناس، بما لا يطيقه المسلم، أو يُثقل عليه في دخله، وأسلوب حياته؛** يظهر أثر القرآن الكريم في سلوك النبي ﷺ وأُمّته، من خلال قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[1] ، واتضح أثر ذلك في تعليمه ﷺ لأُمّته ؛ إذ جاء في الأثر عن أنس رضي الله عنه قال: أُتي النبي ﷺ: بقَعْب - أي قَدَح -فيه لبن ، وشيء من عسل، فقال: « **أُدمَان في إناء لا آكله، ولا أحرمه** »[2] ، دلالة على القناعة والاكتفاء بنوع واحد من الطعام، لئلا يقع في الإسراف أو التبذير ، فالحلال لا يحتمل السّرف.

ويلحظ المسلم أثر القرآن في توجيهات النبي الخاتم ﷺ ؛ إذ جاءت إرشاداته ﷺ تبث روح الوعي بمعاني القرآن ومراميه، وتنشّط الأمة، وتبعثها على القناعة بالإسلام ديناً ومنهجاً وعلى العيش في ظلاله، والاسترزاق في كنفه ؛ فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: « **أفلح من هُدي إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وقنع به** »[3].

---

(١) سورة ص، الآية ٨٦ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٣٦ ، برقم (٧١٤٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٣٦ ، برقم (٧١٤٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقد أخرجه ابن ماجه في سننه ،باب القناعة ٢/ ١٣٨٦ ، برقم (٤١٣٨).

* وفي ظهور أثر القناعة والتقلل على المجتمع المسلم، وضرورة مواصلة تذكير الأُمة به؛ جاء في صفحات الأمة المشرقة أن بشر بن المبارك الراسبي قال: ذهبت مع جدي في وليمة فيها غالب القطان، قال : فجيء بالخوان - شيء يؤكل عليه أو المائدة- فوضع، فمسك القوم أيديهم!! ، فسمعتُ غالب القطان يقول: ما لَهُم لا يأكلون ؟! ، قالوا : ينتظرون الأدم[1]؛ فقال غالب: حدثتنا كريمة بنت همام الطائية عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: « **أكرموا الخبز ، وإن كرامة الخبز أن لا يُنتَظر به** » فأكله وأكلنا [2].

وفي ذلك أيضاً : **واقعة تعلّم ضرورة ترك التكلّف، وإصلاح سلوك المجتمع المسلم وأفراده وأُسره ، ولاسيما في علاقاتهم فيما بينهم ومع الآخرين، وتحثّ على ترك المجاملة إذا كانت على حساب الالتزام بمنهج النبي ﷺ في السلوك الحياتي** ؛ فقد جاء عن الأعمش عن شقيق قال: دخلتُ أنا وصاحب لي على سلمان رضي الله عنه ، فقرّب إلينا خبزاً وملحاً ، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا عن التكلّف لتكلّفت لكم ، فقال صاحبي: لو كان في ملحنا سعتر!؛ فبعث سلمان بمطهرته إلى البقال ، فرهنها فجاء بسعتر فألقاه فيه ،

---

(١) أي ينتظرون أن يقدِّم بين أيديهم ما يخلطونه بالخبز كاللحم أو المرق ليُستساغ في عُرف الإطعام .
وفي لسان العرب١٢/ ٩: الأُدْمُ، بالضم: ما يؤكل بالخبز أَي شيء كان .
وقد جعل اللحم أُدْماً والبعض لا يجعله أُدْماً ، والجمع آدِمةٌ وجمع الأُدْمِ آدامٌ، وقد ائتَدَم به . و أَدَمَ الخبز يَأْدِمُه، بالكسر، أَدْماً: خلطه بالأُدْم . وقد أنشد ابن بري:
إذا ما الخُبْزُ تَأْدِمُهُ بِلَحْمٍ   فذاك أمانَة الله الثّريدُ
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٣٦ ، برقم (٧١٤٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

فلمـّـا أكلنـا ، قال صاحبي : الحمد لله الـذي قنّعَنا بما رزقنا ، فقال سـلمان: لو قنعتَ بما رُزقت ، لم تكن مطهرَتي مرهونة عند البقّال![1] .

ولا شـك أن المسـلم يتشـوّف إلى معرفة الحِكَـمِ من هـذه التعاليم ، وهي ليسـت بقليلـة ؛ ولعـل مـن أظهـر هذه الحِكَـم ما جـاء في الأثر عـن أبي أمامة رضي الله عنـه أن النبـي ﷺ قـال: « **إن أغبط الناس عنـدي لمؤمن خفيف الحاذ – أي الظَّهَر – ذو حظ من الصلاة، أحسـن عبادة الله، وأطاعه في السِّر ، غامضاً في النّاس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك . ثم نفض رسول الله ﷺ بإصبعه، وقال: عجلت منيّته، وقلّت بواكيه ، وقل تراثه** »[2] .

ط) تنمية ثقافــة فهم القـرآن بلغـة القـرآن؛ للتأثر بمناهجـه التربويـة والحضارية، والسلوكية :

إنّ وصـول الفـرد إلى مرحلة الفهم السـليم للخطاب القـرآني، وتحليل أبعـاده، والرقي بالروح إلى المسـتوى الإيماني الـذي أراده الله تعالى للعباد من خـلال آيـات كتابه الكريم ، وسـلوك منهجه السـوي في عبـور الدنيا بنجاح وتميّـز؛ هو غاية عظمى في دراسـة العلوم، والاطـلاع على المعارف، وخوض

---

(١) أخرجـه الحاكـم في المسـتدرك عـلى الصحيحـين ٤/ ١٣٦ ، برقـم (٧١٤٦)، وقال: هذا حديـث صحيـح الإسـناد ولم يخرجـاه، وله شـاهد بهذا الإسـناد وسـاقه في٤/ ١٣٧ ، برقـم(٧١٤٧) عن عبـد الرحمن بن مسـعود العبدي، قال: سـمعت سـلمان الفارسي رضي الله عنه يقول : نهانا رسول الله ﷺ أن نتكلف للضيف .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٣٧ ، برقم (٧١٤٨)، وقال: هذا إسناد للشاميين ، صحيح عندهم ، ولم يخرجاه .

تجارب الحياة والفنون، والإفادة من تجارب الأمم المتّبعة للهدى ، ولاسيما في التعامل مع الرسل والرسالات على تنوّع أزمانها وأماكنها ، واختلاف أعراقها ، ومن بين هذه العلوم والمعارف علوم العربية التي هي أس فهم القرآن الذي نزل بها.

ولاشك أن الشِّعر والنَّظْم في القول عند العرب من الأعمدة المحافِظة على تراثهم، وبهما تحفظ المجتمعات العربية أصالة انتمائها - لفظاً ومعنى - إلى العربية لغة القرآن الكريم وأسلوب التعبير عن معانيه ومراد الله تعالى بآياته، وأنّ الاستمرار والنجاح في المحافظة على العربية ومقوماتها ؛ هو ثبات في الحفاظ على المعاني الهادفة في نتاج الفكر العربي، وما تشهده المجتمعات العربية والمسلمة من نهضة في مجالاتها التوعوية والإرشادية هو انعكاس لهذه النتيجة وسير في خطى النجاح المأمول.

وبالنتيجة: فإنّ جميع ما أشرنا إليه يُسْهِم في جعل المنظومة الفكرية والسلوكية للمجتمع المسلم تسير في ضوء منهج الوحي الإلهي ومراده، وستنال الأُمة الإسلامية الجمع بين جميل النظم وعظيم المعنى، وبين بديع القول وشريعة التوحيد الموجهة إلى سعادتي الدنيا والآخرة، وبذلك تتحقق إذاعة ثقافة الفهم للقرآن ومعانيه بلغة كتابته، ليُتوصّل إلى تحقيق فهم مراده،وتطبيق تعاليمه بأقصر طريق، وأسرعه[1].

---

(١) وقد بينّ الإمام محمود شكري الآلوسي البغدادي(ت١٣٤٢ هـ) رحمة الله عليه في كتابه (إتحاف الأمجاد في ما يصح به الاستشهاد): أنّ الكلام الذي يُستشهد به على نوعين: شِعْرٌ ونثر ؛ والقائلون للشِّعر على طبقات ؛ الأولى : الجاهليون :=

ونبّه الأوّلون السّـابقون على أهمية العناية بشِـعر العـرب ؛ لتتوصّل الأمة إلى فهـم معـاني الكتاب المجيد، وتسـتعين به على تحفيز مَلَكـة الحفظ، وتصقل بمنطقـه ألسـنة أبنائها بما ينسـجم مع أصول بنْيَة العربيـة ، وكذا قواعد تكوين بنيتـه الحرفية التي لا تخرج في غالبها عن لغة القرآن، مع إطباق الأمة وإجماعها عـلى الفـارق في مرجعيـة كل منهما - القرآن والشـعر-؛ فالقـرآن إلهي لا خطأ يعتريـه مـن حيث اللفظ أو المعنى، أما الشـعر فهو بشري يعتريـه الخطأ، ويأتي أهلـه الباطل من حيث انتماءاتهم، أو أعراقهـم، أو تقاليدهم الموروثة والمتناقلة عبر الأجيال والتاريخ .

وتقـرر أنّ القـرآن قامـوس لغة العـرب المحيط، وأنـه الفيصل في الحكم

= وهم الذين لم يدركوا الإسـلام، كـ(امريء القيس، والأعشى)، والثانية: المخضرمون : وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، كـ(لبيد ، وحسان) ، والثالثة: المتقدّمون، ويقال لهم: الإسـلاميون، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام، كـ(جرير، والفرزدق) ، والرابعة: المولَّدون، ويقال لهم: المـحْدَثُون، وهم من بعدهم إلى زماننا هذا كـ(بشار بن بُرْد، وأبي نواس) ؛ فالطبقتان الأُوْلَيان يُستشهد بشعرهما في جميع علم الأدب، يعني علم اللغة والـصرف والنحو والمعـاني والبيان والبديع وغيرهما بالإجماع. وأمـا الثالثة، فالصحيح: صحة الاستشـهاد بكلامها، ولاشـك أن كل قديم من الشـعراء مُحْدَث في زمانه ، نظراً إلى مَـنْ كان قبله، وأمـا الرابعة : فالصحيح أنّه لا يُستشـهد بكلامها مطلقاً، وقيل : يُستشهد بكلام مَنْ يُوثق به منهم، واختاره الزمخشري، وتبعه المحقق الرضي ..
أمـا النـوع الثـاني : فهـو النَّثر ، فالمقبـول فيه ما كان مـن الطبقات الثـلاث الأول من طبقات الشعراء التي تقدّم ذكرها .
وذكر ابن سـلام الجمحي في كتابه « طبقات فحول الشعراء » تفصيلاً لهذه الطبقات وللشعراء ، وزاد عليها تفريعات أخرى مفيدة، فلينظرها مَنْ أراد التوسع والفائدة .

علـى مرجعية الفصاحـة والبلاغة في لغتهم لا العكس، وجـاء في الأثر عن أمّ المؤمنـين عائشـة رضي الله عنها، أنّها قيـل لها : هل كان رسـول الله ﷺ يتمثّل بـشيء من الشـعر؟ قالـت: « كان يتمثل بشـعر ابن رواحة، ويتمثـل ويقول : ويأتيك بالأخبار من لم تزود »[1] .

وحـدّث عبـد الرحمن بـن صخـر رضي الله عنه في فضل شـاعر الأمة ابن رواحـة رضي الله عنـه فقـال: إن أخاً لكم لا يقـول الرفث – يعنـي بذلك ابن رواحة – قال :

وفينـا رسـول الله يتلـو كتابـه

إذا انشق معروف من الصبح ساطع

أرانـا الهـدى بعـد العمـى فقلوبنا

بـه موقنـات أن مـا قـال واقـع

يبيـت يجـافي جنبـه عـن فراشـه

إذا استثقلت بالكافرين المضاجع[2]

وروى الـبراء بـن عـازب رضي الله عنه قـال: رأيت رسـول الله ﷺ ينقل الـتراب يـوم الخنـدق ، حتى وارى التراب شـعر صـدره ، وهو يرتجـز بكلمة عبد الله بن رواحـــة يقول :

---

(١) رواه الترمذي في سننه ٥/ ١٣٩ ، برقم (٢٨٤٨). والقول لطرفة بن العبد (ت ٥٦٤ م).
(٢) تهذيب الآثار ٢/ ٦٧٠ ، برقم (٩٨٦) .

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

يمد بها صوته [1].

---

(١) جاء في طبقات فحول الشعراء (١/ ٣٠ –٣١) : عبد الله بن رواحة، عظيم القدر في قومه، سيد في الجاهلية، ليس في طبقته التي ذكرنا أسود منه (أي أكثر سيادة وشرفاً). شهد بدراً، وكان في حروبهم في الجاهلية يناقض قيس بن الخطيم. وكان في الإسلام عظيم القدر والمكانة عند رسول الله ﷺ .

ومما جاء في الأثر: أن عبد الله بن رواحة أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ في عمرة القضاء، يقودها، وقد اجتمع أهل مكة وغلمانهم ينظرون إليه، فقال:

خَلُّوا بَني الكُفَّار عن سَبِيلِهِ خَلُّوا فكلُّ الخَيْرِ مَعْ رَسُولِهِ
نَحنُ ضَرَبناكُمْ على تَأْوِيلِهِ كما ضَربنَاكُمْ على تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الهَامَ عن مَقِيلِهِ ويُذْهِلُ الخليلَ عن خَلِيلِهِ

وقد روى عمر بن أبي زائدة قال: سمعت مدرك بن عمارة يقول: قال عبد الله ابن رواحة : مررت بمسجد رسول الله ﷺ وهو في نفر من أصحابه، فأضبّ القوم – أي تكلموا جميعاً –: يا عبد الله بن رواحة ! يا عبد الله بن رواحة ! فعرفت أن رسول الله ﷺ دعاني، فانطلقت إليهم مسرعاً، فسلَّمت، فقال: ههنا. فجلست بين يديه فقال – كأنه يتعجب من شعري – : كيف تقول الشعر إذا قلته ؟ قلت: أنظر في ذلك ثم أقول. قال: فعليك بالمشركين. قال: فلم أكن أعددت شيئاً، فأنشدته، فلما قلت:

فَخبِّرُوني أَثْمانَ العَبَاءِ متى كُنْتُم بَطَاريقَ أو دَانتْ لكم مُضَرُ ؟

قال: فكأني عرفت في وجه رسول الله ﷺ الكراهة إذ جعلت قومه أثمان العباء فقلت: =

وممـا جـاء في الأثـر في مدح الشِّـعر قوله ﷺ : « **أشـعر كلمـة تكلّمت بها العرب كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل** »[1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: « **أصدق كلمة قالها الشـاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل** »[2].

وجاء عن عمرو بن الشريد عن أبيه سويد الثقفي الصحابي رضي الله عنه قال: ردفت رسـول الله ﷺ يوماً فقال : **هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شـيئاً**[3] ؟ قلـت: نعـم ، قال: **هيه**، فأنشـدته بيتاً ، فقال: **هيه**، ثم أنشـدته بيتاً،

= نُجَالِدُ النَّاسَ عَنْ عُرْضٍ فَنَأْسِرُهم ... فِينَـا النَّبيُّ وفينَـا تُنْزَلُ السُّـوَرُ
وقـد عَلمتم بأنَّـا ليـسَ غَالِبَنَا ... حيٌّ من الناس إنْ عَزُّوا وإن كَثُروا
يَا هَاشِـمَ الخَـيرِ إنَّ اللهّ فَضَّلكم ... عَـلَى البَرِيَّـة فَضـلاً مَالَـهُ غِـيَرُ
إنّي تَفَرَّسْـتُ فِيكَ الخـيرَ أعرِفُهُ ... فِراسـةً خَالفتْهُمْ في الّـذي نَظَرُوا
ولوْ سألتَ أَو اسْتَنْصَرتَ بَعْضَهُمُ ... في جُلِّ أَمْرِكَ مـا آوَوْا وَما نَصَرُوا
فَثَبَّـتَ الله مَـا آتَاكَ من حَسَـنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسى ونَصْراً كالّذي نُصِرُوا

فأقبل عليَّ بوجهه متبسماً . ثم قال: وإيَّاك فثبّت الله.

وأرسله رسول الله ﷺ إلى مؤتة ثالث ثلاثة أمراء: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وابن رواحة. فلما قتل صاحباه، كأنه تكره الإقدام فقال:

أَقْسَـمتُ يـا نَفْـس لَتَنْزِلِنَّـهْ ... طَائِعَـــةً أوْ لتُـكْرَهِــنَّـهْ
فَطَالمـا قَـدْ كُنْـت مُطْمَئِنَّـهْ ... مَـا لي أرَاكِ تَكْرَهِـينَ الجنَّـةْ؟

فقتل يومئذ ، رحمة الله عليه.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٢ ، برقم (٢٢٥٦) .

(٢) معتصر المختصر ٢/ ٣٢٤ ، (في التمثل بالشعر والرجز).

(٣) وقولـه ﷺ : « **هـل معك من شـعر أمية بن أبي الصلت شـيئاً** »، هكذا وقع في معظم النسـخ (شـيئاً) بالنصـب ، وفي بعضهـا (شيء) بالرفع، وعلى روايـة النصب يقدّر =

فقـال: **هيـه** ، حتـى أنشـدته مائـة بيـت ، قـال: **إن كاد ليسـلم** ». وفي روايـة : « **فلقـد كاد يسـلم في شـعره** » [1] . ولعل مما يلحظه القـارئ في ذلك : أن النبي ﷺ استحسـن شـعر أمية ، واسـتزاد من سـماعه لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث، وهذا السـلوك النبوي يبعث رسـالة واضحة للأُمة فيها جواز إنشـاد الشـعر الذي لا فُحش فيه، وسماعه سـواء أكان شعر الجاهلية أو غيرهم ، وأن المذمـوم هـو الإكثار منه، أو أن يكون غالباً على الإنسـان، فأما يسـيره الذي لا فُحش فيه فلا بأس بإنشاده وسماعه وحفظه .

وجاء في بعض الآثار أنّه ﷺ قد ذمّ أحد الغلاة في الشِّـعر، ممن يقولونه في غير محلّه، أو يتفحّشـون فيه ؛ فروى ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « **لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً** »[2] .

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ ؛ إذ عرض شاعر ينشد ، فقال رسول الله ﷺ : « **خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً** »[3] .

قال الشـعبي: يعني من الشـعر الذي هُجي به النبي ﷺ. وقال أبو عبيد: والـذي عندي في هـذا الحديث غير هذا القول ؛ لأن الـذي هُجي به النبي ﷺ

= فيه محذوف أي: هل معك من شيء فتنشدني شيئاً . ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٢ ، برقم (٢٢٥٥) ، (كتاب الشعر).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١١ ، برقم (٢٢٥٥) ، (كتاب الشعر).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ ٢٢٧٩ ، برقم (٥٨٠٢) ، وغيره .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ١٧٦٩ ، برقم (٢٢٥٩) ، (كتاب الشعر).

لو كان شطر بيت لكان كفراً ، ولكن وجهه عندي: أن يمتلئ قلبه حتى يغلب عليـه فيشـغله عن القـرآن وعن ذكر الله ، فيكـون الغالب عليه من أي الشـعر كان . حتى روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنّها لّما سُئلت عن تناول الرسول ﷺ الشِّعر ، وعلاقته به ، قالت: كان أبغض الحديث إليه[1] .

وقد نقل الإمام القرطبي في تفسيره لآية الشعراء عن العلماء قولهم : (وإنما فَعَـل النبـي ﷺ هذا مع هذا الشـاعر لما عَلِم مِن حَاله ، فَلعل هذا الشـاعر كان ممن قد عُرِف مِن حَاله أنه قد اتَّخَذ الشِّـعْر طَرِيقًا للتَّكَسُّـب ، فَيُفْرط في المدح إذا أُعْطِـي ، وفي الهجـو والذَّمّ إذا مُنِع ، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم . ولا خلاف في أنّ مَن كان على مثل هذه الحالة فكل ما يَكتسـبه بالشعر حرام، وكل ما يقوله من ذلك حَرام عليه ، ولا يَحِلّ الإصغاء إليه ، بل يجب الإنكار عليه ... ولا يَحِلّ له أن يُعْطَى شيئـاً ابتـداء ؛ لأن ذلك عَون على المعصية)[2] .

قـال السّـهيلي : فـإن قلنـا بذلـك ، فليـس في الحديث إلا عيـب امتلاء الجـوف منـه ، فـلا يدخـل في النهي رواية اليسـير منـه على سـبيل الحكاية، ولا الاستشهاد به في اللغة [3] .

وسماه شيطاناً باعتبار إطلاقها – أي كلمة الشيطان – على كل عات متمرد من الإنس والجن والدواب، والعرب تسمي الحية شيطاناً .

---

(١) أخرجها البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٤٤-٢٤٥ ، برقم (٢٠٩٣٥-٢٠٩٣٦) ، (باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن) .

(٢) ١٣/ ١٥٠ .

(٣) ينظـر فتـح البـاري ١٠/ ٥٤٨- ٥٤٩ ، (بـاب ما يكـره أن يكون الغالب على الإنسـان الشعر حتى يصده عن ذكر الله) .

وفي قوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[1] ثلاثة أوجه: أحدها: أنه شبه طلعها في قبحه برؤوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح، والثاني: أن العرب تسمي بعض الحيات شيطاناً وهو ذو عرف قبيح، والوجه الثالث: قيل إنه نبت قبيح يسمى رؤوس الشياطين [2].

وبيّن الإمام النووي رحمه الله : بأنّ المراد أن يكون الشِّعر غالباً ومستولياً عليه، بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى ، وهذا مذموم من أي شعر كان ، فأما إذا كان القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية هو الغالب عليه فلا يضرّ حفظ اليسير من الشعر معه ، لأن جوفه ليس ممتلئاً شعراً .

واستدلّ بعض العلماء بالحديث المتقدّم على كراهة الشعر مطلقاً قليله وكثيره، وإن كان لا فُحش فيه، وكذلك بما يظهر من أحوال الشعراء من الإسْرَاف وَالكَذب ؛ لأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى الشُّعَرَاءِ قِلَّةُ الدِّينِ، وَالْكَذِبُ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ ، وَهِجَاءُ الأَبْرِيَاءِ ، سيما مَنْ كان في ابتداء الإسلام ممن يهجو المسلمين ويهجو النبي ﷺ ويعيب على الإسلام، ويمدح الكفار فوقع الذم على الأغلب [3] .

---

(١) سورة الصافات ، الآية ٦٥ .

(٢) قاله الفراء ، ينظر مختار الصحاح ١/ ١٤٢ ، (شطن) ، ومعجم البلدان ٣/ ٣٨٤ .

(٣) ينظر المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، حكم الحداء والشِّعر، ١٢/ ٤٤ .

وذهب الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره إلى أنّ أحسن ما قيل في تأويل الحديث المتقدّم : « إنه الذي قد غلب عليه الشِّعر، وامتلأ صدره منه دون علم سواه، ولا شيء من الذّكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول . ومن كان الغالب عليه الشّعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنيّة، لحكم العادة الأدبية. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه لمّا بوّب على هذا الحديث (باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر) »[1].

ورأى أغلب العلماء أنّ الشِّعر مباح ما لم يكن فيه فحش ونحوه، وعللوا ذلك بأنه كلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح، وهذا هو الصواب فقد سمع النبي ﷺ الشِّعر، واستنشده، وأمر به حسّان في هجاء المشركين، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[2] نلحظ أنّه تعالى استثنى من الشعراء من لا يفعل الخصال المذمومة؛ فالآية دليل على إباحة الشِّعر ومدح أهله المتصفين بالصفات الجميلة. وقيل معناه : ذكروا الله كثيراً في كلامهم، وقيل: في شعرهم، وكلاهما صحيح مكفِّر لما سبق من أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون، وقوله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٥١ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٢٢٤-٢٢٧ .

تعالى: ﴿ وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ ﴾ ، قال ابن عباس: يردّون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين، وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد[1].

وكما جاء في الصحيح أن سعيد بن المسيب قال: مرَّ عمر في المسجد وحسان ينشد، فقال: كنت أنشد فيه وفيه مَنْ هو خير منك ، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال : أنشدك بالله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: **أجب عني، اللهم أيده بروح القدس** ، قال: نعم [2] .

وكذلك استدلوا بما حدَّث به البراء رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ لحسان : « **اهجهم أو هاجهم وجبريل معك** »[3] .

وكذلك استُدِلَّ على إباحة الشِّعر ما لم يكن فيه فحش ونحوه بما أنشده

(١) ينظر المغني (حكم الحداء والشِّعر)، لابن قدامة ١٢/ ٤٤ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٦ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١١٧٦ ، برقم(٣٠٤٠) . هذا وقد جاء ما يفهم منه النهي لحسّان في هذا الباب ؛ إذ ذكر محمد بن فتوح الحميدي في كتاب الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ٣/ ٢٥ ، برقم (٢٢١٠) ، حديث (٤٣)؛ فيما جاء عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال : (مرّ عمر في المسجد وحسان ينشد الشعر ((**فلحظ إليه**)) فقال كنت أنشد..) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١١٧٦ ، برقم (٣٠٤١) . وفي ذلك إباحة للمسلم بأن يهاجي المشركين ؛ إذ الردّ بالقول ومنه الشِّعر أحد الجهادين ؛ فقد أخرج ابن حبان في صحيحه ١١/ ٥ ، برقم (٤٧٠٧)، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال: يا رسول الله ما ترى في الشِّعر ؟ ، قال : « **إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل** » ، وفيه رواية أيضاً ١٣/ ١٠٢ ، برقم (٥٧٨٦) : « **لكأنما ترمونهم نضح النبل** » .

الصحابة بحضرته ﷺ في الأسفار وغيرها، وأنشده الخلفاء وأئمة الصحابة وفضلاء السَّلف ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه، وإنما أنكروا المذموم منه وهو الفحش ونحوه، وأما تسمية هذا الرجل الذي سمعه ﷺ ينشد شيطاناً، فلعله كان كافراً، أو كان الشِّعر هو الغالب عليه، أو كان شعره هذا من المذموم، وبالجملة فتسميته شيطاناً إنما هو في قضية تتطرق إليها الاحتمالات المذكورة وغيرها، ولا عموم لها فلا يحتج بها [1].

ووظّف العلماء الشِّعر في فهم القرآن، وإيضاح معانيه للأُمّة، ولاسيما بعد أن ضَعُفَت في الإنسان إمكاناته الإدراكية، وقلّت قابليته على الحفظ والفهم، واختلط أهل لغة القرآن بغيرهم ممن لم يكن له سابق عهد بها، فشاع ضعف إدراك أصول العربية، أو التحدّث بها، وفقدت المجتمعات ما كانت عليه في مجتمع الوحي من الفصاحة والبلاغة وفقه اللغة، ولاسيما في كثير من أمصار العرب والمسلمين اليوم.

ومما جاء في صفحات الأمة المشرقة استثمارها الشِّعر في تقوية هذا الجانب فيها؛ إذ استعمل الشّعر كوسيلة لتنمية الثقافة، وحفظ العلوم، لاسيما في فهم القرآن الكريم، والتأثر بمناهجه الأدبية، وأساليبه في التوجيه والتربية، وإيصال المعرفة، والبناء اللغوي والنقدي وإشاراته السّلوكية.

* **ومن ذلك: حفظ الشِّعر كشواهد لفهم القرآن الكريم وتفهيمه**، وهو ما جاء في سيرة العلامة ابن الأنباري البغدادي (ت٣٤٠هـ) رحمة الله عليه كان يحفظ ثلاث مئة ألف بيت شاهداً في القرآن [2].

---

(١) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٤-١٥.

(٢) ينظر المنتظم ٦/ ٣١١، برقم (٥١٢)، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٢٨٠، برقم(١٩٣)، والبداية والنهاية ١١/ ١٩٦.

وجاء في الآثار أنّ الإمام عبد الله بن عطية الدمشقي المفسِّر (ت٣٨٣ هـ) رحمة الله عليه، كان يحفظ خمسين ألف بيت شعر في الاستشهاد على معاني القرآن الكريم واللغة[١] .

وذكر الخطيب البغدادي في سيرة أبي الحسن الدارقطني البغدادي (ت٣٨٥هـ) رحمة الله عليه، أنّه مع كونه فريد عصره ، وإمام وقته في علم الأثر، ومعرفة العلل، والقراءات، ومذاهب الفقهاء، والأدب، والشِّعر ؛ كان يحفظ دواوين جماعة من الشعراء كديوان السيّد الحميري[٢] .

وجاء في سيرة تلميذ ابن شنبوذ البغدادي ؛ أبي الفَرَج محمد بن أحمد البغدادي الشطوي المقرئ (ت٣٨٨هـ) رحمة الله عليه، أنّه كان من أعلم الناس بالتفسير، أستاذاً مكثراً من كبار أئمة القراءة، جال البلاد والتقى الشيوخ وأكثر عنهم تلقي العلم، ولكنه اختص بابن شنبوذ وحمل عنه وضبط حتى نُسب إليه، وقد اشتهر اسمه وطال عمره فبلغ الثمانين، وانفرد بعلو الإسناد، ومعرفة علل القراءات، وكان حافظاً نبيلاً حاذقاً يحفظ خمسين ألف بيت من الشِّعر شاهداً للقرآن واللغة[٣] .

وبهذه النماذج وغيرها كثير في صفحات الأمة؛ يتضح للأجيال حجم المسؤولية المترتبة عليهم في حفظ مقومات هذا الدين ومنها لغته، وضرورة

---

(١) ينظر تاريخ دمشق ٣١/ ٣٠ ، وطبقات المفسرين للسيوطي ١/ ٤٥ .

(٢) ينظر تاريخ بغداد ١٢/ ٣٥ ، برقم(٦٤٠٤) ، وشذرات الذهب ٣/ ١١٦ .

(٣) ينظر النشر في القراءات العشر ١/ ١٢٣ .

التنبه لفضل هـذه الوسـيلة -الشِّـعر- في المحافظة على لغـة القرآن، والوصول من خلالها إلى فهم معانيه، والسعي إلى تنمية القدرات في حفظ الموروث الديني والحضاري والقومي لأُمّة العرب نواة أمّة الإسلام الخاتم، والله المستعان.

ع) ظهور أثر القرآن في أبناء المجتمع من الأعيان، وتعزز مكانة أهل القرآن عندهم:

اتضـح من خـلال ما تقـدّم أنّ أهل القرآن هـم أهل الله تعـالى وخاصّته، وأنّهم أشراف هذه الأمة، وسـادة المجتمع، لا سـيما بالمنظور الإيماني، ولا شك أنّ مـن أسـمى ما يتمتع به بعـض أبناء هذه الأمة هو الجمع بين عراقة النَّسَـب وشرف المنتسَـب ؛ فمـن ذلـك مـا ذكره الإمـام أبو الثنـاء الآلـوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ) يرحمه الله تعالى، في تفسـيره روح المعاني[١]، قـال: « ورأيت في بعـض الكتـب أن الحبر ابن عباس رضي الله عنهما كان يذهب إلى أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في بيته لأخذ القرآن العظيم عنه، فيقف عند الباب ولا يدقّ الباب عليه حتى يخرج!! فاستعظم ذلك أُبيّ منه ، فقال له يوماً: هلا دققت الباب يا ابـن عبـاس . فقال ابن عبـاس: العالِـم في قومـه كالنبيّ في أمتـه، وقد قال الله تعالى في حقّ نبيّه ﷺ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢] ، وقد رأيتُ -أي الآلوسي- هذه القصة صغيراً فعملتُ بموجبهـا مع مشـايخي، والحمـد لله تعالى على ذلـك ». فانظر يا رعـاك الله إلى

(١) ٢٦/ ١٤٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية ٥.

أثر القرآن في سلوك الأجيال المسلمة ومجتمعاتها، وعمق معانيه في نفوسهم، وإن بعدت الأوطان، أو طال العهد واختلف الزمان.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في سيرة الشّريف أبي الفضل عبد القاهر بن عبد السلام المكي (ت٤٩٣هـ)رحمة الله عليه ، أنّه كان نقيب بني هاشم بمكة، سكن بغداد، وأقرأ القرآن على القراءات وكان ضابطاً لها، وكان على أحسن طريقة سلكها الأشراف، من دين مكين، واشتغال بالقرآن والعلم، قراءة وتحديثاً، فقد جمع يرحمه الله العلم مع إكرام الله تعالى له بشرف النسب[١].

ونال هذا الفضل وتمتع به أصحاب الأمراء وولاتهم ومواليهم؛ إذ هم أولى الناس عناية بكتاب الله تعالى وأهله ، ومن ذلك ما جاء في سيرة أبي داود سليمان بن أبي القاسم المقرئ مولى الأمير المؤيد بالله ابن المستنصر الأموي الأندلسي (ت٤٩٦هـ) رحمة الله عليه، إذ أصبح شيخ الإقراء وعمدة أهل الأداء ، وباتت له تواليف كثيرة في معاني القرآن الكريم، حتى قال فيه الذهبي: قرأت بخط بعض تلامذته تسمية الكتب التي صنّفها .. ككتاب « البيان الجامع لعلوم القرآن » في ثلاث مئة جزء، ..و« عقود الديانة »، وهو عشرة أجزاء، وعدد هذه الأرجوزة ثمانية عشر ألف بيت، وأربع مئة وأربعون بيتاً. ثم ذكر أن تلميذه سمَّى مؤلفات أبي داود المقرئ تتمة ستة وعشرين مصنفاً. وحظي يرحمه الله بآثار كرامة خدمة القرآن ؛ فمات في السادس عشر من شهر رمضان، شهر القرآن، وتزاحم المسلمون على نعشه رحمه الله وإيّانا [٢].

---

(١) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٤٧، برقم (٣٨٦)، وشذرات الذهب ٣/ ٤٠٠.

(٢) ينظر معرفة القراء ١/ ٤٥٠-٤٥١، برقم (٣٨٩)، وغاية النهاية ٢/ ٣١٦، وطبقات المفسرين ، للداوودي ١/ ٢١٣، برقم (١٩٨) .

وجاء في سيرة أبي العلاء الحسن بن أحمد الهمداني العطار (ت٥٦٩هـ) رحمة الله عليه ؛ أنّه ممن نال فضل استثمار ماله وجاهه في سبيل تحصيل علم القرآن وخدمته وبثّه؛ إذ كان من أبناء التجار، وأنفق جميع ما ورثه في طلب العلم حتى سافر إلى بغداد وأصبهان ماشياً، وهو يحمل على ظهره كتبه، وقد حدّث عنه الحافظ عبد القادر الرُّهاوي : أنه كان يبيتُ ببغداد في المساجد، ويعيش على الخبز، حتى عظم شأنه وحصّل العلوم النفيسة، وانتهت إليه مشيخة العلم ببلده، مع براعة في القراءات والحديث؛ إذ يقرئ نصف نهاره القرآن والعلم، ونصفه الآخر الحديث، ولا يمس الجزء من الحديث إلا على وضوء(١).

وببركة مجاهدته لنفسه، وعظيم بذله لماله، وتضحيته بجاهه من أجل القرآن وأهله، وحرصه على تعلّمه وتعليمه، ورعايته العلوم الشارحة لكتاب الله تعالى، وبثّها في الناس ابتغاء وجه الله؛ ظهر أثر ذلك كلّه في سلوكه، إذ كانت السُّنّة شعاره ودثاره اعتقاداً وفِعلاً، وكان لا يخشى أحداً ولا تأخذه في الله تعالى لومة لائم، وفاضت عليه بركات القرآن وأنواره، وكان إذا مرّ ببلد لا يبقى أحد رآه إلا قام ودعا له حتى الصبيان واليهود . وتعذّر وجود مثله في أعصار كثيرة، وأربى على أهل زمانه في كثرة السّماعات وإتقان ما كتب، وتحوّل رحمة الله عليه من أبناء التجار إلى إمام أهل الدِّين والدنيا في سائر

---

(١) ينظر المنتظم ١٠/ ٢٤٨، ومعرفة القراء ٢/ ٥٤٢-٥٤٤، برقم(٤٨٩)، وغاية النهاية ١/ ٢٠٤، وطبقات المفسرين ، للداوودي ١/ ١٣٢، برقم (١٢٧) .

الأمصار، وقد بذل عمره في استـنفاذ ما في المحابـر فسـخّر الله تـعالى له – في نشر فضائـله– أصحاب المعرفة والعلم والمنابر[1].

غ) مكانة أهل القرآن عند الملوك والأمراء والوزراء والدولة:

ومما سـجّله التاريـخ في صفحات الأمة المشرقة تمتع أهـل القرآن بالمكانة العظيمـة، والتكريم والاحتفـاء والتقديم عند أمراء المسـلمين وعامتهم؛ فكما سـبقت الإشـارة إلى الإشراقات النبوية في بيـان فضل أهل القـرآن ومكانتهم عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ ؛ تشرق في هذه السطور أنوار آثارهم عند عامة المسلمين، بل وتظهر جليّة في معاملة الملوك والأمراء لهم .

وإنّ ممـا يُسـجّل في صفحة هذه المعاملات أنّها جـاءت محررة بأحرف من نور تعرِّف الأمم والشعوب كيف كان سلوك عامة أبناء الأمة المسلمة مع أهل القرآن، وتحرِّر حثّ رسول الإسلام الخاتِم ﷺ على إكرامهم، وتُظهر آثار آيات القـرآن الكريم على المجتمعات، وكيف أصبح أثر القرآن جلياً على عموم أبناء الأمة المسـلمة الخاتمـة؛ بما انتهجوه من سـلوك تجاه أهل القرآن، وبما بسـطوه بـين أيديهم مـن التبجيل والتوقير، والحرص على حفـظ مكانتهم، والاعتراف بحقوقهـم، والعرفـان بعظيـم قدرهم، وسـمو مكانتهـم، وتقديـم الأدب في حضرتهـم، وأنَّ ذلك كلّه مـن القربات عند الله تعالى؛ ومـن الوقائع العظيمة،

(١) ينظـر معرفة القراء ٢/ ٥٤٢، برقم (٤٨٩). وقـد جاء في المنتظم ١٠/ ٩٣، برقم (١٢٣) عـن الإمـام محمد بن عبـد الباقي البغـدادي (ت ٥٣٥هـ)، يرحمه الله تعـالى ، أنّه قال: « مَنْ خدم المحابر خدمته المنابر » .

والآثـار السـلوكيـة الكريمة ما جاء في سـيرة إمـام دار الهجرة مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) يرحمه الله، وهو يحدِّث عن نفسـه فيقول: وجّه إليَّ أمير المؤمنين هـارون الرشـيد (ت ١٩٣ هـ) يرحمه الله، يسـألني أن أُحدّثـه، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ العلم يُؤتى ولا يأتي ؛ فصار الرشـيد إلى منزل الإمام مالك، وبينما هـو ينتظـر علم مالك اسـتند معه إلى الجـدار، فقال له مالك: يـا أمير المؤمنين: إنّ مـن إجلال الله تعالى إجلال ذي الشـيبة المسـلم، فتحوّل الرشـيد، وجلس بـين يدي الإمام مالك ، وبذلك تظهر آثـار القرآن الكريم في تهذيب الأرواح، وتزكية النفوس، والتواضع لأهل العلم؛ فالرشيد سيّد الدنيا في عصره يتواضع بـين يدي عالم المدينة؛ ليحقق في رفع الذيـن أوتوا العلم درجات بما رفعهم الله تعالى بـه[1].

ولمّـا التقـاه بعد زمـن قال له الرشـيد: يا أبا عبـد الله، تواضعنـا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم غيرك فلم ننتفع به[2] .

---

(١) ومن الكلمات المؤثّرة التي تمسّ واقع حياتنا اليوم ما نقله ابن مفلح في الآداب الشرعية ٢/ ٥٢، فقال: « وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : لو أنّ أهل العلم صانوا العلـم، ووضعـوه عند أهله؛ لسـادوا أهل زمانهـم ، ولكنّهم وضعوه عنـد أهل الدنيا لينالوا من دنياهم ؛ فهانوا عليهم. رواه الخلال » .
وجاء عن الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ) يرحمه الله ، كما في المجموع، للنووي ص ٣٥، أنه قال : « لا يطلبُ أحد هذا العلم بالـمُلك وعزّة النّفس فيفلح، ولكن مَنْ طلبه بذل النفس، وضيق العيش، وخدمة العلماء أفلح ».

(٢) ينظـر الحـث على طلـب العلم والاجتهـاد في جمعـه، لأبي الهلال العسـكري ١/ ٨٤ ، والآداب الشرعيـة والمنح المرعية، لابن مفلح المقدسي، ٢/ ٥٣، « فصل في طلب العلم وما يبدأ به ».

وفي هـذا المعنى قدّم الشاعر نصيحة فقال[1]:

قُـل للأميـر نصيحــة لا تـركنـن إلى فقـيـه
إنّ الفقـيـه إذا أتـى أبوابكـم لا خـير فيـه

ومـن الوقائع العظيمة التي تدلّ على عظيم أثر أهل القرآن في المجتمعات وأثـر القـرآن فيهـم؛ ما جاء في سـيرة أبي الحسـن الـدَّاراني إمام جامع دمشـق ومقرئـه (ت ٤٠٢هــ) رحمة الله عليـه، إذ تنافـس عليه أهل دمشـق وداريا[2] لمـا لـه مـن فضـل علـم القـرآن وإقرائـه، فمـما يُذكـر في السِّـيَر أنّ القـاضي أبا محمد العلوي وجماعة من الشيوخ خرجوا إلى داريا لـمّا مات إمامهم؛ يطلبون الإمام الداراني وكان إماماً عظيم القدر؛ فلبس أهلُ داريا السـلاح، وقالوا : لا نمكنكم من أخذ إمامنا !، فقال أبو محمد ابن أبي نصر : يا أهل داريا ألا ترضون أن يُسمَع في البلاد أنّ أهل دمشق احتاجوا إليكم في إمام؟، فقالوا: قد رضينا، فقُدّمـتْ له بغلـة القاضي أبي محمد العلوي فأبى، وركـب حماره، فأخذوه ليؤم

---

(١) جـاء في قصـة هذيـن البيتـين: أن الأمـير عز الدين موسـك، بعـث إلى الإمـام المقرىء الزاهد العابد القاسـم بن فيرة الأندلسي الشـاطبي (ت ٥٩٠هـ) رحمة الله عليه، يدعوه للحضور عنده، فأمر الشيخ بعض أصحابه أن يكتبها إلى الأمير . تنظر معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٧٣، برقم(٥٣١)، ونفح الطيب ١/ ٣٣٩، وشذرات الذهب ٤/ ٣٠١.

(٢) داريـا : قريـة كبـيرة مشـهورة مـن قرى دمشـق بالغوطة، والنسـبة إليهـا : داراني على غـير قياس، وقـد نزلها بعض الصحابة كبـلال مؤذن النبي ﷺ، سـكنها وتزوّج امرأة مـن أهلهـا، ونزلها العديد مـن التابعين وتابعيهم من الفقهـاء والعلماء. ينظر معجم البلـدان، لياقوت الحموي ٢/ ٤٣١، وتاريخ داريا ، لعبد الجبار الخولاني « ذِكر من نزل داريا من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين ».

بجامع دمشـق، وكان أبيّاً لا يأخذ على الإمامة رزقاً، وانتهت إليه رئاسـة قرآء الشاميين [1].

وبهذا - وغيره كثير في تاريخ أمتنا المشرق - يظهر سلوك الأمة في التعامل مـع حملـة الوحي، وحـرص أبنائها على إكرامهـم، وإظهار تمسّـكهم بأئمتهم، وإن كلّفهـم ذلك الكفاح ومواجهة المجتمعات والأمم من أجل المحافظة على وجودهم وعلومهم بين ظهرانيهم، فرحمة الله تعالى على السّـابقين، وبعث هذه المعـاني في نفـوس اللاحقين، وجدد هذا السـلوك تجاه الأئمـة وأهل القرآن في الآخرين .

* ومـن الأثـر أيضاً: **حظوة أهـل القرآن بفرصـة شرف تصحيح مفاهيم الأمـراء والملـوك، واندفاع أصحـاب السُّـلْطة والحُكم إلى التـزوّد بمعارفهم ،** ولاسيما بمـا أراده الله تعـالى في كتابه، وأقرّه رسـوله الخاتِم ﷺ في سـنته ، وما يتعلّـق بالمعـاني والمفاهيـم القرآنيـة والشرعية؛ فقـد جاء في سـيرة الإمام محمد الشَّـنَبُوذي البغـدادي (ت٣٨٨هـ) رحمة الله عليه، أنّه كان مشـهوراً نبيلاً عالماً بالقراءات والتفسير، يكثر من التجوّل في البلدان؛ وقد دخل على عَضُدِ الدولة زائـراً ، فقـال لـه - باعتبار شـهرته وكونه من أعلـم الناس بالتفسـير -: يا أبا الفَـرَج، إنّ الله تعـالى يقـول: ﴿ ..يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ .. ﴾[2]، ونرى العسل يأكله المحرور، فيتأذى به ، والله الصادق في

---

(١) ينظر تاريخ دمشـق ٤١/ ٤٧١، معرفة القراء ١/ ٣٦٦، برقم(٢٩٥) ، وشذرات الذهب ٣/ ١٦٤ .

(٢) سورة النحل، من الآية ٦٩ .

قوله؟ [1] قال: الشنبوذي البغدادي: أصلح الله الملك إنّ الله تعالى لم يقل: فيه الشفاء للناس، بالألف واللام اللذين يدخلان لاستيفاء الجنس، وإنما ذكره مُنَكَّراً، فمعناه: فيه شفاء لبعض الناس دون بعض [2].

---

(١) ومن السُّنّة ما أخرجه الإمام البخاري يرحمه الله في صحيحه ٥/ ٢١٥٢ ، برقم (٥٣٦٠) عن أبي المتوكل عن أبي سعيد أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه ، فقال ﷺ: « **اسقه عسلاً** »، ثم أتاه الثانية ، فقال: « **اسقه عسلاً** »، ثم أتاه الثالثة، فقال: « **اسقه عسلاً** »، ثم أتاه فقال قد فعلت ؟!، فقال ﷺ: « **صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً** »، فسقاه فبرأ . وفي رواية أخرى ٥/ ٢١٦١ ، برقم(٥٣٨٦)، (باب دواء المبطون) عن أبي المتوكل عن أبي سعيد قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه ؟ فقال: « **اسقه عسلاً** » ، فسقاه ، فقال : إني سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً ؟، فقال ﷺ: « **صدق الله وكذب بطن أخيك** » .

وفي رواية الجامع لمعمر بن راشد الأزدي ١١/ ١٥٣ ، برقم(٢٠١٧٣) عن قتادة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قد كان أخوه اشتكى بطنه فقال له رسول الله ﷺ : « **اسق أخاك عسلاً** » ، فرجع إليه فقال: ما زاد إلا شدة ؟! ، فقال له النبي ﷺ : « **اسق أخاك عسلاً** »، فقال مثل مقالته الأولى حتى فعل ذلك ثلاث مرات ، فقال النبي ﷺ: « **صدق القرآن، وكذب بطن أخيك** »، قال فسقاه عسلاً فكأنما نشط من عقال » .

وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه٥/ ٦٠ ، برقم (٢٣٦٨٩) عن الأسود قال: قال عبد الله : « **عليكم بالشفاءين القرآن والعسل** ». وبرقم(٢٣٦٩٠) عن ابن جريج قال : أتى رجل إلى النبي ﷺ فشكا إليه بطن أخيه ، فقال: « **عليك بالعسل** »، ثم عاد إليه فقال: كأنه.. ، فقال: « **كذب بطن أخيك وصدق القرآن ، عليك بالعسل** » . قال صاحب لسان العرب ١/ ٧٠٩ ، في قوله : « **كذب بطن أخيك** » استعمل الكذب ههنا مجازاً ، حيث هو ضد الصدق ، والكذب يختص بالأقوال ، فجعل بطن أخيه حيث لم ينجع فيه العسل كذباً لأن الله تعالى قال: « **فيه شفاء للناس** » .

(٢) ونقل الذهبي في معرفة القراء الكبار (١/ ٣٣٤) عن الداني قوله: الصواب أنّ الألف واللام في قوله : (للناس) لا يستغرقان الجنس كلّه كما لا يستغرقانه =

ومن ذلك أيضاً : ما جاء في سيرة الإمام محمد بن علي، أبي عبد الله الخبازي (ت٤٤٩هـ)يرحمه الله، كان مقرئ نيسابور ومسندها، إماماً كبير القدر، بارعاً في تحقيق العلوم، واستحضارها، صنّف التصانيف وتصدَّر للإقراء، وذاع صيته في الآفاق، وتخرج على يده ألوف بنيسابور وغزنة ؛ دخل غزنة أيام السلطان محمود بن سبكتكين فكان يكرمه غاية الإكرام . وكان يحدّث عن نفسه فيقول: أول ما قدمت على السلطان سألني : عن آية أوّلها غين ؟ فقلت: غافر الذنب، وثنتان اختُلف فيهما ، عدَّهما الكوفي ولم يعدّهما البصري (غلبت الروم..) و(غير المغضوب..) [1].

فانظر يا رعاك الله إلى الثقة بين السائل والمجيب، وكيف أن الإنسان - ولاسيما المسلم - وإن ارتفعت رتبته الدنيوية لا يأبه أن يتعلّم العلم، أو أن يزداد منه، أو يسأل عما يُشكل عليه، ويحرص على حفظ منازل الناس، ولاسيما أهل القرآن ؛إذ هم الذين يستحقون مثل هذه الرعاية والعناية والمداراة والتمكين، فهم أهل الله النّاطقين بقوله، والعالمين بفحوى خطابه، وأنّ أهل الـحُكم والرئاسة

= في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ ..﴾ سورة آل عمران، من الآية (١٧٣) ، وقوله: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ..﴾ سورة آل عمران ، الآية (٣٩) ، وفي : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ سورة التوبة، الآية (٣٠)، وشبهه.

(١) ينظر غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ٢٠٧ . وقد علّق ابن الجزري رحمه الله بعد نقله لقول الخبازي هذا ، بقوله: قلت: أما قوله :(غير المغضوب ..) أن الكوفي عدّها ، فليس كذلك، وإنما عدّها غير الكوفي والمكي فأعلم.

هـم أولى النـاس بهـذا الواجـب تجاههـم، وأحرصهم عـلى نيل هـــذا الفضل والتقرب لله تعالى بإكرامهم .

* **ومن أثر القرآن في سـلوك الأُمراء والوزراء حضورهم مجالس العلماء، وأهل القرآن، والإعجاب بهم** ؛ فقد جاء في سيرة الإمام أبي الطيّب ابن غَلْبُون عبـد المنعـم بن عبيد الله بن المبـارك المقرئ (ت٣٨٩هـ) رحمـة الله عليه، وكان مشـهوراً بحفظه وضبطه لقراءة القرآن الكريم، وكثرة تلامذته وشـهرتهم، مع ظهـور صلاحـه، والإجماع على عفافه ونسـكه وفضله؛ أنّـه لمـا له من مكانة في أداء القرآن وتعليمه وعلمه ومعانيه وإعرابه وتفننه في سائر علوم الأدب، كان الوزير جعفر بن الفضل معجباً به، وكان يحضُرُ عنده المجلس مع العلماء [(١)].

* **ومن ذلك أيضاً : حفظ حرمتهم عند الدولة ووفرتها** ؛ إذ جاء في سـيرة إمـام دار الهجـرة مالـك بن أنس رحمـة الله عليـه ، أنّه لا يُحدِّث أحـداً بحديث رسـول الله ﷺ إلا بعـد أن يتطهّرويتطيّـب ويجلس لذلك، وأنـه كان صاحب حرمـة مرعيّة ، ومكانة عليّة ، يُسـمع ويُطاع، وحدّث ابـن مهدي أنّه مشي مع مالك يوماً إلى العقيق من المسجد، فسأله ابن مهدي عن حديث فانتهره الإمام مالك، وفي رواية فالتفت إليه وقال : كنتَ في عيني أجلّ من هذا، أتسألني عن حديث رسـول الله ﷺ ونحن نمشي!؟!.فقال ابـن مهدي: إنا لله، ما أراني إلا وقد سـقطتُ من عينه، فلما قعد مالك في مجلســه بعدت منه، فقال: ادن ها هنا،

(١) ينظـر وفيات الأعيـان ٥/ ٢٧٧، ومعرفة القـراء الكبار ١/ ٣٥٦، برقـم (٢٨٢)، وغاية النهاية ١/ ٤٧٠ . وقد سبقت الإشارة في الصفحات السّابقة إلى إجلال وتكريم الكبراء لأهل العلم والقرآن .

فدنـوتُ، فقـال : قد ظننتُ أنّا أدبناك تسـألني عن حديث رسـول الله ﷺ وأنا أمشي، سـل عما تريد هاهنا. قال ابن مهدي: وسـألوا مالكاً بموسم الحج وهو قائم فلم يحدِّثهم .

قال أبو مصعب: وسأله جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديث وهو قائـم فأمر بحبسـه . فقيـل له: إنّه قـاض!!، فقال: القاضي أحـق أن يؤدّب، احبسوه فحُبس إلى الغد)[1] .

ولا شـك أن اجتهاد الإمام مالك يرحمه الله في ذلك ، وصلاحيته في أن يحبس ويطلق بناءً على متطلبات المصلحة العامة وأولها المحافظة على أصول الدين ؛ ليُعلّم الأُمّة ضرورة حفظ الأدب مع رسـول الله ﷺ وما صدر عنه، بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى كما كان يُحفظ معه في حياته ﷺ ، وأنّ التزام الأدب حالة لا تتجزأ ولا يمكن لها أن تتغير، وإن تغير وجه الزمان ، وثقافة الأجيال المتعاقبة عليه ، أو بَعُد عهدها عن عهده ﷺ ؛ وهذا الحفظ منبعه قرآنـي وآثـاره من آثار التعليم الإلهي لآلية السـلوك معـه ﷺ ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾[2].

ومـن حفـظ مكانة أهل العلم والقرآن عند الدولة؛ ما جاء في سـيرة قارئ أهـل البـصرة في عـصره الإمـام أبي محمـد يعقوب بـن إسـحاق (ت٢٠٥هـ)

(١) ينظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك ١/ ٤٨ .

(٢) سورة الحجرات، الآية ٢.

رحمـة الله عليـه، أنّه بلغ بعلمه في العربية ووجوهها، والقرآن وإقرائه، والزهد في الدنيا أنّـه لم يُر في زمانه مثله ، وبلغ من جاهه ووفرة حرمته بالبصرة أنّه كان يَـحْبِس ويُطلق [١].

وكذلـك ما جاء في سـيرة مقرئ نيسـابور ومسـندها أبي عبـد الله محمد ابـن علي الخبـازي (ت٤٤٩هـ) رحمة الله عليـه، أنّه قـد ذاع في الآفاق زهده وعبادتـه، وتهجّـده، وإجابة دعوته، مع براعته في علـم قراءة القرآن وفهمه، ولما تقدّم من شمائله ومحاسن فضائله، وحضور وجاهته؛ كان ذا حُرمة وافرة عنـد الدولة، لكثـرة ما يحيي من الليـل بالقراءة والدعـاء والبـكاء حتى قيل إنه لم ير بعده مثله [٢].

ومـن ذلـك أيضاً : ما جاء في سـيرة شـيخ الإسـلام عبد الرحمـن بن أحمد الرازي ، أبي الفضل العجلي الزاهد(ت٤٥٤هـ) رحمة الله عليه، كان فاضلاً كثير التصنيف، عارفاً بالقراءات والأدب والنحو ، ولكثرة اشـتغاله بالقرآن وأُنْسه بـالله تعـالى من خلال آياتـه، وصدق مناجاته لـه؛ ذاع ذِكْرُه عـلى الملأ، وعُرف بسـمته ونوره، وأنّه مما أفاض الله تعالى بـه على أوليائه، وبكثرة تجواله في البلاد مفيداً ومسـتفيداً، وحصل له أنّه دخل كرمـان في هيئة رثّة، فحمله بعضهم إلى الملك، وقالوا: هو جاسوس!!، فسأله الملك: ما الخبر ؟ فقال: إن كُنْتَ تسألني

---

(١) ينظر الطبقات الكبرى، لابن سـعد ٧/ ٣٠٤، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٩٠، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٣٥٦، برقم (٢٨٢)، وغاية النهاية ٢/ ٣٨٦ .

(٢) ينظـر تبيين كذب المفتري٢/ ٢٦٤، ومعرفة القراء الكبار١/ ٤١٣، برقم (٣٥١)، وغاية النهاية ٢/ ٢٠٧ ، وشذرات الذهب ٣/ ٢٨٣ .

عن خبر الأرض، فكل مَنْ عليها فان، وإن كنت تسألني عن خبر السماء، فكلَّ يوم هو في شأن [1] - وفي ذلك إشارة إلى كونه رحمه الله يتعامل بالقرآن ويعيش في ظلاله - فتعجّب الملك من كلامه، وهابه، ولمّا علم مكانتـه أكرمه، وبسط له في الإجلال والتقدير، وعرض عليه المال الكثير، فلم يـقبـله رحمة الله عليه. وله أشعارمليئة بالفوائد والدلائل، منها(من السريع):

يـا موت مـا أجفاك مـن زائر   تـنـزل بالمـرء عـلى رغمـه
وتأخـذ العذراء مـن خدرها   وتسـلب الواحد مـن أمه [2]

*** ومـن الأثـر أيضـاً: منـح أهـل القـرآن اسـتحقاقهم في المجتمـع مـن حيـث الإمامة والإدارة**؛ فقد جاء في سـيرة أبي القاسـم الهذلي المغـربي الرَّحال (ت٤٦٥هـ)، رحمـة الله عليه، أنّـه لـمّا فتـح الله تعالى عليه بالعلـوم والمعارف وكثـرة الأسـاتذة والرحلة إليهـم، وبلغ رتبة الأكابر في المعارف؛ أرسـله نظام الملـك الوزيـر ليجلس في مدرسـته النظامية بمدينة نيسـابور سـنة (٤٥٨هـ)، وليظهر فضله في الناس، وتتبيّن رتبته عند العلماء، فقعد سـنين أفاد منه العلماء وطلاب العلم، رغم ما قيل من ابتلائه بفقد البصر في أواخر عمره [3].

---

(١) إشـارة إلى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ في سـورة الرحمن، الآية ٢٦، وقوله: ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ في سورة الرحمن أيضاً، الآية (٢٩) .

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤١٧-٤١٩، برقم (٣٥٦)، بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة، للسيوطي ٢/ ٧٥، برقم (١٤٧٦) .

(٣) ينظـر الإكـمال، لابن ماكـولا ١/ ٤٥٨، و معرفة القـراء الكبـار ١/ ٤٢٩-٤٣٣، برقم (٣٦٧)، وتوضيح المشـتبه في ضبط أسماء الرواة، للقيسي ٩/ ١٣١، وتاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي١٠/ ١٨٢، والأعلام ، للزركلي ٨/ ٢٤٢ .

* **ومن أثر القرآن في سلوك الملوك والأمراء إكرامهم لأهل القرآن، وإعلاء رتبتهم، وتقديمهم للإمامة عليهم في الصلاة** ؛ فقد جاء في سيرة أبي الخطاب علي بن عبد الرحمن بن الجرّاح البغدادي (ت٤٩٧هـ) رحمة الله عليه، أنّه كان من أئمة اللغة، ورأساً في قراءة القرآن الكريم، ومصنِّفاً ، بارعاً في النظم، وإنّ فضائله كثيرة وفيرة، ولذلك ولغيره كان أمير المؤمنين المستظهر بالله تعالى يقدّمه فيصلي به إماماً في صلاة التراويح، وأمّ من بعده بولده الخليفة المقتدي، وتلا عليه القرآن والعلم أمم كثيرة [1].

ومن ذلك أيضاً : ما جاء في سيرة الإمام أبي الحسن علي بن عساكر البَطَائحي (ت٥٧٢هـ) رحمة الله عليه ؛ إذ حفلت صحف التاريخ المشرقة بسيرته، وأنه أحد أئمة العراق بقراءة القرآن الكريم والعربية، وبما له رحمه الله من معرفة عظيمة في الإقراء، ورصد لأخطاء القراء، وقوّة بيان وتمحيص لادعاءاتهم، ولاسيما في الأسانيد رغم كونه ضريراً ؛ إذ وفّقه الله تعالى أن يُظهر خطأً، وتدليساً كاد يُمرر على الوزير عون الدين ابن هُبيرة في مجلسه، وأوقف منح الوزير سنداً مكذوباً في القراءة؛ إذ اعترض البطائحي بجرأة العالم المتقن، وكشف الخطأ الواقع، ولمّا تبيّن للوزير صدق اعتراض البطائحي بالدليل جعله مقصداً لقراءة القرآن وإقرائه، وقرأ الوزير عليه، وأسند عنه القراءات، وعلا قدره، وحظي رحمه الله بالإكرام العريض، وتهنئة الناس، ووقف كتبه بمسجد ابن جرارة ببغداد، وتوفي يرحمه الله وقد نيف على الثمانين [2].

---

(١) ينظر المنتظم ٩/ ١٤٠، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ١٧٤، برقم (٩٥)، وغاية النهاية ١/ ٥٤٨، وشذرات الذهب ٣/ ٤٠٦ .

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٤١، برقم (٤٨٨)، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٩٦ ، وغاية النهاية ١/ ٥٥٦، وشذرات الذهب ٤/ ٢٤٢ .

* **ومن الأثر أيضاً : اتخاذ أهل العلم والقرآن مشاورين ورفقاء لهم** ؛ إذ جاء في سيرة الإمام ابن حزم إليسع بن عيسى الغافلي الأندلسي (ت٥٧٥هـ) رحمة الله عليه، أنّه تعلّم قراءة القرآن وفنونها على أبيه، وكان أبوه من جلّة المقرئين، وأصبح الأندلسي فقيهاً ومقرئاً ومُحدّثاً وحافظاً نسّابة، ومن أبدع الناس خطّاً، ولـمّا رحل إلى مصر أقرأ بها القرآن والعلم؛ فاشتمل عليه الملك صلاح الدين، وبات مشاوراً له، ورتّب له دخلاً وافراً، وأكرمه وشفّعه في مطالب الناس، ونال حظوة القرب والإكرام من الملك مع ما امتاز به من علم ومكانة عند الناس؛ وقد كان رحمة الله عليه له السبق والإقدام في أداء أول خطبة على منابر العُبيدية عند نقل الدعوة العباسية حين تهيّب ذلك سواه[1] .

ومن ذلك أيضاً : ما جاء في السّير أنّ الملك المعظّم صاحب دمشق كان ينزل إلى شيخ القراء والنحاة بدمشق العلامة تاج الدين زيد بن الحسن الكندي البغدادي (ت٦١٣هـ) رحمة الله عليه، ويقرأ عليه العلوم:كـ(كتاب سيبويه، وكتاب الحماسة، وكتاب الإيضاح)، وغيرها الشيء الكثير، وكان يأتيه ماشياً إكراماً له من القلعة إلى درب العجم، والمجلد تحت إبطه[2] .

وكان الكِنْدي البغدادي رحمة الله عليه قد قرأ القرآن بالروايات العشر وهو ابن عشر سنين، حتى قال الذهبي في حاله هذا : « وما علمتُ هذا وقع لأحد أصلاً ، وأعجب من ذلك أنّه عمّر الدَّهر الطويل، وانفرد في الدنيا بعلو

(١) ينظر التكملة لكتاب الصلة ٤/ ٢٣٧، برقم (٦٦٠)، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٥٤٤، برقم(٤٩٠)، وغاية النهاية ٢/ ٣٨٥، وشذرات الذهب ٤/ ٢٥٠ .

(٢) ينظر سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٧ .

الإسناد وعاش بعدما قرأها بعدة كتب ثلاثاً وثمانين سنة، وهذا لا نظير له في الإسلام »[1] .

وجاء في سيرته يرحمه الله أنّه عانى في شبيبته التجارة والأسفار، وغادر بغداد وسكن حلب مدّة، وصحب بها الأمير حسن ابن الداية النوري واليها. ثم نزل دمشق، وصحب نائب دمشق الأمير عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب، وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين، واستوزره، واختص به هو وابنه الملك الأمجد صاحب بعلبك من بعده، وكان أوحد الدهر فريد العصر، وتردد إليه بدمشق الملك الأفضل علي، وأخوه المحسن ابنا صلاح الدين، وابن عمه الملك المعظّم عيسى بن العادل، ومنّ الله عليه بالتصدّر والجاه عند الملك صاحب دمشق، والدنيا العريضة، واتخاذ المماليك والدار الكبيرة، مع حظوة القرب وعلو المكانة عند السلطان ببركة الاشتغال بالقرآن، وكان بهيّاً وقوراً، أشبه بالوزراء من العلماء، توفي يرحمه الله وله ثلاث وتسعون سنة وشهران، وكان قد متعه الله تعالى بطول العمر ، وسلامة سمعه وبصره وقوّته، وعلو المنزلة عند الملوك والأمراء والفقهاء والأعيان وجلالة مَنْ كان يتردد إلى مجلسه ومنزله حيث كان[2] .

ومن ذلك أيضاً : ما جاء في سيرة الوزير الأعظم في عهد الخلافة العثمانية مصطفى باشا الكوبريلي، حيث فاضت أخبار إكرامه العلماء، ومنهم الإمام

---

(١) ينظر معرفة القرآء الكبار ٢/ ٥٨٧.

(٢) ينظر الذيل على الروضتين ، لأبي شامة المقدسي ٩٥-٩٩، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٤٠، برقم (٢٤٩)، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٥-٤١، برقم (٢٨) ، وغاية النهاية ١/ ٢٩٧.

زيـن الدين بن محمـد البصروي الشـافعي الدمشـقي (المتوفى بعـد ١١٠٢هـ) رحمة الله عليه، وكان الإمام زين الدين قد نزل في دار الخلافة قسطنطينية، وكان المترجم بها، وتولى المدرسـة الصلاحية وإفتاء الشافعية بالقدس، ثم صار إماماً بدار الخلافة من الروم لدى الوزير المذكور؛ فصحبه معه في سفره وقتاله، وشهد معه فتح بلغراد سنة ١١٠٢هـ، وتوفي رحمه الله في المحرّم في منزلة يعزونه رابع مرحلـة عن بلغراد راجعاً إلى إسـلامبول لأنه كان مع الوزير الأعظم مصطفى باشا الكوبريلي في السّفر وحضرفتح نيش، ودفن في المنزلة المذكورة وبنى عليه قبراً من الأحجار على قارعة الطريق الآخذ إلى بلغراد[1] .

* **ومن أثر القرآن في سـلوك الملوك والأمراء أيضاً : بسـط رعايتهم لأهل القرآن، وإن كان سرّاً** ؛ إذ جاء في سـيرة محمـد بن النّضر المعروف بابن الأخرم النَّيْسَابوري (المتوفى بعد سنة ٣٤٠هـ) رحمه الله، أنّه قرأ على الأخفش، فقال فيه الشـنبوذي: قرأت عليه فما رأيت شـيخاً أحسن معرفة منه بالقرآن، ولا أحفظ لـه منـه، وكان مع ذلك يحفظ تفسـيراً كثـيراً، ومعاني ، وقـال لي : إنّ الأخفش الدمشقي لقّنه القرآن.

وجاء في سيرته أيضاً: أنّ أباه النّضر بن مرّ بن الحُرّ الرِّبعي كان وسيط خير في إكرام الأخفش عند السلطان، ولاسيما في تخليص رزقه لكلّ سنة؛ إكراماً له عـلى تعليم ولده والناس القرآن والعربيـة، وحفظاً لمكانته بين العلماء والناس، وحجباً له عن سؤال الناس ما في أيديهم .

---

(١) ينظـر سـلك الـدرر في أعيـان القرن الثاني عـشر، للمـرادي، (حرف الـزاي المعجمة)، ص: ٢٥٣.

ولِـما بذلـه الوالد من وسـاطة الإكـرام لأسـاتذة ولده لدى السـلطان ؛ أكـرم الله تعـالى الولد -ابـن الأخـرم- بعلوم القـرآن وبركته، وأطـال عمره، وارتحـل النـاس إليه، ولمّا حضرته الوفـاة صلى الناس عليه بعـد الظهر، في يوم صائـف، وشـهدوا صعود الغمامة عـلى جنازته من المصـلى إلى أن دفن في قبره؛ فكانت شِبْه الآية له يرحمه الله وإيانا [1].

ومن ذلك أيضاً : ما ظهر في سلوك الوزير ابن المسلمة يرحمه الله تجاه أهل القـرآن الكريم، وإطعامه لهـم، وحرصه على إكرامهم ومعلمـي الناس الخير، وإنفاقه في السرِّ عليهم؛ إذ جاء في سيرة الحسن بن الفضل المؤدّب (ت٤٥١هـ) رحمـة الله عليـه، أنّه تحوّل علمـه ومعرفته بالقرآن وقراءاته لـه إلى واقع عريض من الزهد، والفهم لمرحلة الدنيا، فدفعه ذلك إلى الإقـلال منها، وبلغ به الحال إلى الاكتفاء بالمنبوذ من الطعام، وإخفاء ذلك عن الناس، والإيواء إلى المسجد؛ فاتفـق أن ابن العـلاف رآه ذات يوم في وقت مجاعة، وقـد نزل إلى دجلة وأخذ من أوراق الخس ما يرمي به أصحابه، وجعل الحسـن يأكله فشـق ذلك عليه، فأخـبر الوزيـر، فقال له: أرسـل إليه شـيئاً ، فقال ابن العلاف: مـا يقبله، فقال الوزيـر: نتحيّل لذلـك، وأمر غلاماً لـه أن يعمل لذلك المسـجد مفتاحاً آخر، وقـال : احمل إليه كلّ يوم رغيفاً ودجاجة، وقطعة حلاوة، فكان الحسـن يجيء فيفتح، فيجد ذلك فيعجب ، ويقول: لعل هذا من الجنّة، وكتم أمره، فأخصب

---

(١) ينظر معرفة القراء الكبار ٢/ ٢٩٠-٢٩٢، برقم(٢٠٦)، وغاية النهاية ٢/ ٢٧٠، وطبقات المفسريـن، للسـيوطي ٤٠، وطبقـات المفسريـن، للـداوودي ٢/ ٢٦٤، برقـم(٥٩١)، وشذرات الذهب ٢/ ٢٦١.

جسمه وسمن، فقال له ابن العلاف: ما لَكَ قد سمنت؟! فتمثّل المؤدّب بقول الشاعر:

مَـنْ أطلعوهُ عـلى سرٍّ فباحَ بهِ   لَمْ يأمَنُوهُ على الأسرارِ ما عَاشا

ولم يصرّح له بشيء، فما زال به ابن العلاف حتى أخبره الشيخ بالكرامة، فقال له ابن العلاف: ينبغي أن تدعو للوزير ابن المسلمة، ففهم ابن الفضل القضيّة، وأن هذا الطعام والإكرام كان من الوزير؛ وانكسر قلبه، ولم يدم عليه شروق شمس الدنيا بعدها طويلاً رحمه الله[1].

ومما يُلحظ من هذه القصة أن الوزير رحمه الله أراد إدامة الصلة والرعاية لابن الفضل، دون الاكتراث بمعرفته، أو طلب شكره، بل دبّر ذلك ليكون سِرَّاً، فهو أنسب لحال الشيخ ومكانته، رحمهما الله، وأن المبادرة بإفشاء الأمر، ومصارحة ابن الفضل بسبب النّعمة والصِّلات كانت من اجتهاد ابن العلاف وهو اجتهاد له آثاره السلبية التي نزلت بابن الفضل، كما أن إخبار الوزير بحال الشيخ كان من اجتهاد ابن العلاف أيضاً، وهذا من الاجتهاد الذي تحمد عقباه، والله أعلم.

وهذا الأمر والحال متكرر وقوعه لأهل العلم في أزمنة كثيرة؛ فلاشك أن على بطانة الملوك والأمراء والوزراء ومستشاريهم مسؤولية عظيمة في تذكيرهم بواقع احتياجات الناس والعلماء، ولاسيما أهل القرآن وحفظة

---

(١) ينظر تاريخ بغداد ٧/ ٤٠٢، برقم (٣٩٤٦)، والمنتظم ٨/ ٢١٣، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٤١٢، برقم (٣٤٩)، وغاية النهاية ١/ ٢٢٧.

الوحـي والشريعـة، وإعلامهـم بما تعانيـه هذه الثلـة المؤمنة في سـائر أحوالها، ومـا يُعـد مـن متطلبات ديمومـة عطائهم؛ فـإنّ القيام بذلك كلّـه مما يدخل في المسؤولية الشرعية التي يترتب عليها حفظ الدين، وإقامة الشريعة بين الناس. وهنا يصدق قول الشاعر:

إذا نـسي الأمـير قضـاء حـقٍّ ... فـإنَّ الذنـب فيـه للوزيـر
لأنّ عـلى الوزيـر إذا تـولى ... أمـور النّـاس تذكـير الأمـير

وعـلى ولاة الأمر أن يتفقّدوا النـاس، وينظروا في إعانتهم على أمور الدنيا ومعاشـها، وأن يبسـطوا إلى العلماء يد الرعاية، وينفحوهـم بوافر العناية، ولا يحوجوهم إلى الخلق، أو يجعلوهم عالة على غيرهم؛ فهم أهل الله وخاصته.

شَـكَر الله تعالى الوزير ابن الـمَسْـلمة على سـعيه وبذله ورعايته، وسـائر مَـنْ كان على هذه السـمة، ممن سـبقه أو لحق بركبه؛ ولاسـيما مَـنْ تحمّلوا أمانة قيـادة الأمة، وملكوا حق التصرّف في أموالهـا العامّة أو الخاصّة في المجتمعات الـمُسْلمة، وأثاب الله تعالى ابن الفضل على صبره، وحُسن ظنّه بربه عزّ وجلّ، وسـائر مَـنْ صان نفسـه عن سـؤال الناس، وسـار عـلى هذا المنهـج في حياته، ورَحِـم الله تعالى ابن العـلاف على تذكيره الأئمة بعلماء الأُمّـة، وغفر له وأثابه على نواياه، وأثاب أصحاب المبادرات في سائر العصور الذين دأبوا على تذَكير الأمـة وأعيانهـا ورُعاتهـا بواجـب الـشرع والوقت تجـاه أهل الله ودعـاة الحق والفضيلة في الإنسانية، أو أعانتهم على حفظ مكانتهم في حياتهم وبعد مماتهم.

ف) تجدد الأمل بهذه الأُمَّـة وأجيالها ومقدّراتها :

بعـد رصدنا لكثير من الصفحـات المشرقة في سـلوك أبنـاء المجتمعات المسـلمة، وحرصنـا عـلى إظهارشُـععها لتمثّـل بمجموعهـا وموضوعاتهـا ومضامينهـا الأثـر الحقيقـي للقـرآن الكريـم في سـلوك المجتمـع المسـلم مـن حيـث العموم؛ لابـد أن نُذكّر ببقـاء هـذا النور في الأمّـة وأجيالها ومجتمعاتها، وأنّ ذلـك كلّـه إنّما يتأتـى ببـركة تمسّـكها بالعـروة الوثقى - القـرآن الكريم، ومقـدار هـذا التمسّـك وقوّتـه، قـال تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[1]؛ ولا غـرو فـإن الأمل متجـدد في أبنـاء وأحفاد أجيـال هذه الأمة، ولاسيما في مواصلـة المسـيرة في ضـوء المنهـج النبـوي، والتفاعل مـع القـرآن الكريم كما أراد الله تعـالى، وتحكيمـه في حياتهم، وسـائر شـؤونهم، وأن تظهر عليهم بركة أثره، واسـتدامة تعهّده لتحقيـق الهدى، والاعتصام به مـن الضلال والردى ؛ إذ جـاء في الأثـر عن ابـن عبـاس رضي الله عنهما قال: خطب رسـول الله ﷺ في حجـة الـوداع فقـال: « **يا أيهـا الناس: إني قـد تركت فيكم مـا إن اعتصمتم بـه فلن تضلوا أبداً، كتاب الله وسـنتي** »[2]، و كذلك فـإنّ على أبناء هذه الأمة أن يعملـوا عـلى إفـادة الأرواح والأبدان من نـوره المبين، ويحوّلـوا تعاليمه إلى

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ٢/ ٨٩٠، برقم (١٢١٨).

سلوك واتباع، وفي ذلك روي عن الإمام الجدّ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه ، مرفوعاً أنّه قال: « عليكم بكتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبار قصمه الله، ومَنْ اتبع الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرّد، ولا تنقضي عجائبه، مَنْ قال به صدق، ومَنْ حكم به عدل، ومَنْ دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم »[1].

ولا شك أنّ العلم والعمل والتفاعل بينهما في إطار منظومة الفهم الصحيح والتطبيق السليم لتعاليم كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ، والتسليم لما جاء فيهما؛ كلّه مما يرشد إلى سعادتي الدنيا والآخرة، وفي الوقت نفسه يُعد نتاجاً لمخزون اليقين بعظمة الله تعالى، وسعة قدرته في القلوب والأرواح، وعلى قدر هذه الثقة المتجددة بإمداده تعالى لهذه الأمة، وحسن الظن به سبحانه تظهر النتائج المرجوّة في الحاضر والمستقبل، كما ظهرت في العديد من صفحات تاريخ الأُمة وسير رجالها السّابقين يرحمهم الله؛ وكما قال الشيخ أحمد بن

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: ٢/ ٧٠٣ رقم (٧٠٤)، قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف جداً من أجل الحارث . رواه الدارمي في سننه ٢/ ٥٢٦، برقم(٣٣٣١) ، ورواه الترمذي في سننه برقم(٢٩٠٨)، وقال : هذا حديث في إسناده مجهول وفيه الحارث ثم قال: ليس لهذا الحديث إسناد صحيح ، ولكن معناه صحيح .

وقال الإمام ابن كثير في تفسيره ١/ ٢١ : « وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، وقد وَهِم بعضهم في رفعه إلى النبي ﷺ، وهو كلام حسن صحيح ..».

عبـد الحليم(ت٧٢٨هــ) يرحمـه الله: « وكان مـن أعظم ما أنعـم الله به عليهم - أي السّـلف الصالـح - اعتصامهـم بالكتـاب والسـنّة، فكان مـن الأصول المتفـق عليهـا بين الصحابة والتابعين لهم بإحسـان أنه لا يُقبـل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه ولا بذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البيّنات أن الرسول ﷺ جـاء بالهدى وديـن الحق، وأن القرآن يـهدي للتـي هي أقوم »[١].

ولا شَـكّ أيضـاً أنّ الله عزّ وجلّ هـو المتكرّم والمتفضّل عـلى الأُمة الخاتمة بعصمتهـا مـن الخـزي، وبما أفاضـه جلّ جلالـه عليها مـن المِنَح، عـلى تنوّع ظروفهـا وامتداد أزمنتها، واتسـاع أمصارها، واختـلاف أزَمَاتِها ؛ وقد جاء في الأثـر عن الرَّسـول الخاتِم سـيّدنا محمد بن عبد الله ﷺ ، وهـو يبعث الأمل في الأُمّـة ببقائها في سـمو وعـزّ، وأنّها عزيزة بالله تعالى، وبطاعته، وطاعة رسـوله ﷺ ، وأنّ نسبتها إليه ﷺ من أهم هذه الامتيازات عند الله تعالى، أنه ﷺ قال: « .. **ولن يخزي الله أُمّة أنا أوّلها** .. »[٢].

وكذلـك فـإن مـن الأمـل بهـذه الأمـة، وأجيالهـا ومقدّراتها ؛ مـا جاء في الصحيـح مـن تصريـح رسـول الله ﷺ وأملـه في أجيـال أمّتـه المتعاقبـة، إذ حـدّث عـروة أن عائشـة رضي الله عنهـا، حدثتـه: أنهـا قالت للنبـي ﷺ: هل أتـى عليـك يـوم كان أشـدّ من يـوم أحـد؟ قـال: « **لقد لقيـتُ مـن قومك ما**

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٨ .

(٢) قال فيه ابن حجر العسقلاني في الفتح ٧/ ٦، برقم (٣٤٥٠): وقد روى ابن أبي شيبة من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير أحد التابعين بإسناد حسن ؛ وساق الحديث.

لقيت!، وكان أشدّ ما لقيت منهم، يوم العقبة ؛ إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني ؛ فنظرت فإذا فيها جبريل ؛ فناداني فقال: إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم؛ فناداني مَلَكُ الجبال فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد ، فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أي الجبلين المحيطين بمكّة - ؟ ، فقال النبي ﷺ: « **بل أرجو أن يُخرج اللهُ من أصلابهم مَنْ يعبدُ الله وحده لا يشرك به شيئاً** »[1].

ولاشك أنّه ﷺ كان يعيش على أمل الهداية لمجموع هذه الأمة، وسائر مَن انتسب إليها من السابقين واللاحقين، وأنّ أمله هذا قد تحقق، بمَنْ حمل هذه الرسالة منذ عصره إلى يومنا هذا ؛ بل وإلى قيام الساعة، وأنّ دعاة الأمة ومفكريها، وحملة الفضيلة وحماتها فيها على أمله ﷺ في أن يهيئ الله تعالى أسباب الصَّلاح لسائر المجتمعات المسلمة، وأن يمكّن الله تعالى لظهور جيل صالح في الأمّة منهجه القرآن والسُّنّة؛ لا يحيد عنهما بشيء من المناهج الغريبة عن مجتمعاتنا المسلمة.

فالأمل متجدد بهذه الأُمة، ولا سيما بعد توكّلها على الله تعالى، وسعيها الحثيث لتحقيق مراده، وحُسن تدبيرها لأمورها؛ واستمرارها في حمل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١١٨٠ ، برقم (٣٠٥٩) . والإمام مسلم في الصحيح ٣/ ١٤٢٠، برقم (١٧٩٥) .

رايـة التوحيـد والإصـلاح وبثّهما بـين الأمم، والتضحيـة من أجلهـما، وإثراء مخزونهـا بحُسـن الظـنّ بـالله تعـالى، واليقين بصـدق وعـده، وحُسـن الاتباع لرسـوله ﷺ ومحبّتـه، والعيش في ظـلال مناهج الصّالحين من السّـابقين الذين صدقـوا الله في أحوالهـم وأقوالهـم وأفعالهم ما عاهـدوه عليه، وقرنـوا الآمال بالأعـمال، والأقـوال بالأفعـال والأخـلاق، وحُسْـن الظـنّ بحسـن التدبير، والإقـدام والمبـاشرة بالتخطيط المسـبق وإيثـار الآخرة؛ فصـحّ عملهم بصحّة رجائهم، وشـهدت لهم الأمة بحسـن الخواتيم، لسـلامة سـلوكهم، ووضوح منهجهم، وظهور أثرهم بمن حولهم.

ثم إنّ الأخذ بسائر الأسباب المثمِرة، والوقوف على أهبة الاستعداد لإنجاز واجـب الوقت، وفهـم ضرورة المرحلـة، وذبّ العادات السـيئة والرواسـب النفسـية عـن الأسر والمجتمعـات المسـلمة، وانتشـار السـلوكيات المنضبطة، وتشـجيعها، وبعث الأجيال على التخلّق بها، والتحلي ببهائها ؛ كل ذلك مما له الأثر في النهوض الشـامل بالأُمّـة، وعلى سـائر مستويات أبنائها، ودرجاتهم ؛ بل سيظهر أثر توجيه القرآن ومنهجه في السمو بسلوك الأمّة على جميع أفرادها ومؤسسـاتها ومناحـي الحياة فيها، وسـيجنّبها الوقوع في الآمـال الفارغة التي تقود إلى التمني على الله تعالى دون عمل، وسيبعثها على الإقدام لتحقيق طاعته جلّ وعزّ والسعي في سبيل رضوانـه .

ولهـذا ولغيره فـإنّ الأمل بأجيـال الأمة القائمـة واللاحقـة القادمة يبقى مـا بقي الليل والنهار، لاسـيما وهي تشـهد نهضة شـاملة، وإقبالاً عـلى الثقافة بمناهـج القـرآن، وتـزوداً من معارفه، وسـعياً حثيثاً من مؤسسـاتها في سـبيل

إصلاح المنظومة الاجتماعية والحياتية لأفرادها والقائمين على ثغورها؛ وتحقيق الانسجام في إيمانها وسلوكها العقلي والعملي مع مراد الله تعالى لها، وسيكون المجتمع المسلم قرآني المنهج، نبوي السّلوك، وهو سبحانه ولي التوفيق لذلك، والفعال لما يريد.

ومما يُلحظ في التاريخ أن هناك العديد من المآثر التي تبعث الأمّة على التجدد، وتحرّض أجيالها على الإقدام من أجل إصلاح آثار تراكمات الاختلاط بالمجتمعات الأخرى ورواسبه، وتهذّب السلوكيات العامة والخاصة لأبنائها، ولاسيما التي لا تنسجم مع توجيهات ديننا الحنيف، وتوجهات مناهجه؛ وقد تأتى ذلك كلّه من خلال حثّ العلماء وحرصهم على إمداد الأجيال بما يحرر كيانهم من مخلّفات الإخفاق في المسيرة العامة للأمة، ثم بترك الازدراء للذات والقدرات، وإعانتهم على التخلّص من الاستهانة بالمعطيات والمقدّرات التي أودعها الله تعالى في بنية هذه الأمة -حاملة رسالة الإسلام إلى الإنسانية كافّة-؛ إذ التجدد سمة من سمات هذه الأُمة ، بل ميزة خير فيها؛ وكم ترك الأوّل للآخر من طريقة استنباط، أو وسيلة تعليم، وكم نحا المتأخر سبيلاً أكثر شمولية من السّابق، في علاج القضايا الاجتماعية وغيرها؛ لما اجتمع للمتأخرين من ذخائر أعمال المتقدمين ونفائس تجاربهم، وما منَّ الله تعالى به عليهم من وسائل سبر وإحصاء واختصار للأعمال واستثمار للأعمار؛ فأعملوا عقولهم في الجمع بينها واستنباط الصالح منها لبقية الأمة وعموم الإنسانية ومجتمعاتها؛ بوسائل تنسجم مع معطيات العصر ومتطلّباته، وتحفظ للأوائل حقوقهم، وتستحضر أن الـمِنَح الإلهية ليست حكراً على عصر دون عصر، أو

على جيل دون جيل؛ إلا ما كان سـمة اختصاصية كالتفضيل بالرتبة أو القرب والإنابة التي اختص الله تعالى بها مَنْ شاء من عباده، فقررها في القرآن أو صرّح بها رسـول الله ﷺ من خلال سـنته وهديه، فلا بد من المحافظة على اسـتحقاق كل عصر وأهله، لا سيما ما امتازوا به من صبغة خدمة الإسلام، وأداء واجب الدعوة إلى الله، وحماية الأرواح والمقدسـات، ونشر العلم والفضيلة، وفي هذه المعـاني قال ابن مالـك الأندلسي (ت٦٧٢هــ) رحمه الله تعـالى في مقدّمة كتابه التسـهيل: « .. وإذا كانـت العلـوم مِنَحَـاً إلهيـة، ومواهـب اختصاصية، فغير مستَبْعد أن يُدَّخَر لبعض المتأخرين ما عَسُرَ على كثير من المتقدّمين .. » [1] .

ولا شـك أنّ المؤمن الموصـول القلب بالله تعالى، هو مَـنْ يفهم عنه تعالى، ويتمسّـك بتحقيق مـراده جلّ وعزّ، وهو الذي يحفظ لـكل ذي حق حقّه وهو في حالتـه الإيمانية هذه يبقى ندي الرُّوح، شـاعراً بنفحاته تعالى، غير يائس من رَوْحـه، ولـو أحاط الكرب به أو اشـتدّ به الضيق؛ بل ينعم هـو وأُسرته وبيئته

---

(١) وقد جاء عن ابن عابدين (ت١٢٥٢هـ) رحمه الله تعالى في حاشـيته ؛ إشـارة توضيحية لتوظيـف فهـم هذه الـمِنَـح العقلية والتنظيميـة، وهو يقـول: « .. وأنت ترى كتب المتأخرين تفوق كتب المتقدّمين في الضبط، والاختصار، وجزالة الألفاظ وجمع المسائل، لأن المتقدّمين كان مصرف أذهانهم إلى استنباط المسائل وتقويم الدلائل؛ فالعالِم المتأخر يـصرف ذهنـه إلى تنقيح ما قالوه، وتبيين ما أجملوه، وتقييد ما أطلقوه، وجمع ما فرّقوه، واختصـار عباراتهم، وبيان ما اسـتقرّ عليه الأمر من اختلافاتهـم، ..فالفضل للأوائل كما قال الشاعر:

كالبَحْرِ يَسْقيهِ السّحابُ ومَا لَهُ ... فَضْـلٌ عَلَيْهِ لأنّـــهُ مِنْ مَائِهِ

نعـم فضل المتأخرين على أمثالنا من المتعلمين، رحم الله الجميع، وشـكر سـعيهم .. آمين » .

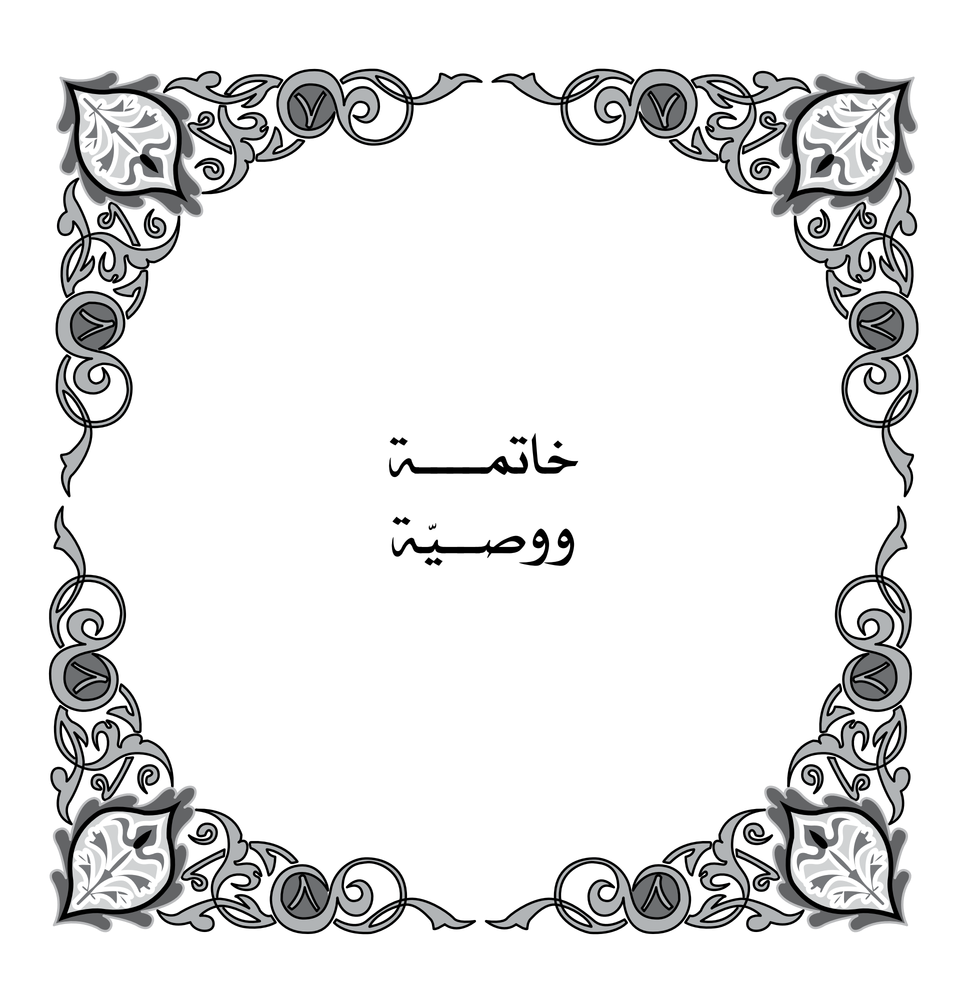
في راحة وأمل وتجدد، لما له من ذخيرة إمداد الله تعالى ونفحاته، مستمداً هذا الخير والفأل الحسن والأمل المتجدد من التوحيد الخالص لله سبحانه، والاستسلام التام له عزَّ وجلّ، والعزة بانتمائه إلى الإسلام الدِّين القيّم، والشعور بالعدالة، والعيش في ظلال حكم القرآن وأحكامه، وحُسن الاتباع لسيّدنا رسول الله ﷺ؛ فالمؤمن منعّم بما لا ينعم به أحد غيره، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (1) .

وقد قال النبي الخاتم ﷺ: « **عجباً لأمر المؤمن، إنّ أمره كلّه خير، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، وكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن** » (2) .

***

(1) سورة آل عمران، الآية ١٣٩ .

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٢٩٥، برقم (٢٩٩٩)، وابن حبان في صحيحه ٧/ ١٥٥، برقم (٢٨٩٦)، واللفظ له .



خاتمة

ووصيّة

خاتمة ووصيّة

الحمد لله على منّه وفيض كرمه، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله خير خلقه، أُنموذج الكمال في العبادة والصلاح والاستقامة، ونبراس الهداية والنور للناس كافة، وشمس إيمان الرأفة والرحمة بالمؤمنين، الهادي إلى صراط العزيز الحميد، وعلى آله وأصحابه ومَنْ اهتدى بقوله وفعله وحاله، واتبع منهجه، وتحلى بشمائله، وتزوّد بفضائله، وتأسى بسلوكه وأخلاقه إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فقد تَشَعْشَعَت صفحات الكتاب، وما فيه من إشراقات منيرة، وصفحات مضيئة، ولاسيما في بيان أثر القرآن في سلوك المجتمع المسلم، والتنبيه على ما كان عليه رجال الأمة المسلمة من مناهج صحيحة أسست لبناء علاقة سليمة مع الله تعالى من خلال القرآن الكريم، وكيفية التعامل معه، وتقعيد معانيه وإرشاداته وإشاراته وتقريراته على واقع الأمة؛ ليتمكّن أبناؤها من الفهم الصحيح لمضامينه، والانتفاع بحِكْمَته، وتحويله إلى نظام حياة، مع كونه الدليل المُعْتَمَد للآخرة وعوالمها، والسبيل الرئيس لتحقيق سعادتها.

وكذلك أتت على بيان ما رسموه للأجيال المسلمة من مناهج فكرية، وميدانيّة عملية توضّح معالم الطريق إلى معرفة الله تعالى، والتعرّف على مراده، وحُسْن عبادته، ومحاولاتهم إصلاح منظومة الأمة المسْلمة، والإنسانية بشكل

متكامـل، وظهور أثر هـذا الإصلاح على الفـرد والأُسرة والمجتمع من خلال كتاب الله عزّ وجلّ، وسنّة رسوله ﷺ .

ولا شـك أن قراطيـس تاريـخ الإسـلام وسِـيَر المسـلمين، وخصوصـاً العلـماء، الذيـن هم ورثـة الأنبياء، الذيـن جعلهـم الله تعالى بمنزلـة النجوم يُهتـدى بهـم في ظلمات الـبرّ والبحـر، مليئة بالأخبـار والوقائـع والآثار التي تحيـي هذه المعاني العظيمـة في الأمة، وتوقد العزيمـة في أبنائها، وتبعثهم على السّـعي الحثيث من أجـل تحقيق ما أراده الله تعالى منهم لأنفسـهم ولغيرهـم، واسـتثمار تعاليم القـرآن الكريم، الذي يمثّل الجامع لأُصول رسـائل الحبّ، والتزكيـة، والتعريف بذاته جلّ جلاله، وبعظيم قدرته، وتوصلهم إلى حقيقة أن سـائر مـا فيـه من معارف وعلوم ووسـائل ورسـائل وضوابـط في التربية والأخلاق وسـمو الأرواح وتنزيه الأبدان وسلامة الأفكار إنما جاءت لتعين الإنسان على تحقيق السّلامة والنجاة، وتحصيل النجاح والفلاح والفوز المبين برضوان الله تعالى ونعيمي الدنيا والآخرة.

ويتأتى ذلك أيضاً من خلال اتباع أنموذج السّـلوك الحق؛ القائم في الأمة المتمثـل بشـخص الرّسـول الخاتـم سـيّدنا محمد ﷺ، ومَـنْ كان عـلى أثره من آل بيتـه الأطهار، وصحابته الأخيار، وسـائر مَنْ جاء بعـده ممن تبعه وحرص على ضبط السّلوك، والفكر، ودوافعهما ونتاجهما في ضوء منهجه ﷺ، وربطهما بما حضّ عليه الأمّة، في سنته القولية أو الفعلية أو التقريرية وهو يقودها نحو مرضاة الله جلّ جلاله، والجنة التي فيها النعيم المقيم.

وتناولـت صفحات هذا الكتاب محاور مهمّـة في حياة الأُمة، وعالجت مـن خـلال ما ورد فيها مـن الوقائع والأقـوال والتعامل مع القـرآن الكريم وعلاقـة أبناء الأُمة به كيفية اسـتثمار الوقت، والإفـادة من الحياة على نحو ما أراده الله عزّ وجلّ، وعالجت في سـطورها قضايا رئيسة؛ لبعث النفوس على التحقـق في رضوان الله الملك القُدُّوس، وتحقيـق آثار ذلك في العلم والعمل والسّلوك والأخلاق.

وتبيّن للقارىء كيف كان تمسّك الأمة بكتاب الله تعالى وتعهّده وقراءته، وانبثـاق المـدارس لتعليم القـرآن وحُسـن تفهيمـه، وتنوّع مناهج السَّـلف يرحمهـم الله في فهـم القرآن والتعامل معـه، وتهيئة الأجيـال وتأهيلها للفهم عن الله عزّ وجلّ.

ثم ظهور أثر الفهم الصحيح لتعاليم القرآن في سـلوك الأمة تجاه سيّدنا رسول الله الخاتم ﷺ من خلال الالتزام بما جاء عنه، واعتبار الكتاب والسنّة المرجع الرئيس في الحياة، وفي حل مشـكلاتها، في سـبيل الوصول إلى الآخرة بنجـاح ونجـاة وبلـوغ درجاتهـا، وكيف نبتـت ثقافة النّصـح والتناصح في الأُمّـة، وتبنّتهـا أجيالها المتلاحقـة في العديد من المجتمعات المسـلمة، وظهر فيها أثر الفهـم الصحيح للقرآن وتعاليمه من خلال الالتزام بالاسـتقامة على ما تقدّمت الإشـارة إليه، وموافقة ظاهرها لباطنها، وحفظ الأدب مع الخلق بعـد أن حفظتـه مع الحـق جلّ جلاله، والاسـتعانة بالصبر عـلى سراء الحياة وضرائها، وسائر مراحلها.

ثم ظهر للقارىء أثر القرآن في سلوك الفرد والأُسرة والمجتمع من حيث معرفة النفس وتقصيرها، وعدم الركون إليها، وإعمال الحذر منها، ومعرفة علامات السعادة والشقاء، واجتناب ما يعد من أعظم الذنوب، والمحافظة على تذكير قراء القرآن بواجبهم، ومكانة السّابقين من أئمة المسلمين، الذين هم خلفاء الرّسول ﷺ في أُمّته، والمحيون لما مات من سنّته، بهم عُلِم الكتاب وبه علموا، وتحقيق السلوك السويّ الذي نُقل عنهم بناءً على تعاليم الكتاب والسنّة، والحرص على الدعاء، وحُسن الظنّ بإجابته، والاستغفار للنفس والولد، ومحافظة أهل القرآن على العقل، وتعلّم التعامل مع أشد الأعمال، وظهور البركة على مَنْ عاش في ظلال القرآن وتعاليمه في حياته، وشفاعة القرآن لقارئه، وعودة بركته على المشتغل به بعد مماته، وأثر القرآن في إصلاح منظومة الأُسرة حضارياً، وبعث المجتمع المسلم إلى السّعي من أجل الكسب الحلال، والزّهد بما سواه، وتنمية ثقافة فهم القرآن بلغة القرآن، وظهور التأثر بمناهجه التربوية والحضارية والسلوكية، وظهور تفاعل أبناء المجتمع من الملوك والأُمراء والوزراء والأعيان مع القرآن وأهله، وتجدد الأمل بهذه الأُمة ومقدّراتها وأجيالها؛ كلّ ذلك النفح مما يندرج في الأثر، ويُسجّل له الحضور، ويتسلّق مسك عبيره ليمتزج بمداد ما جاء في صفحات الكتاب من سطور، فيخطّ لسائر الأُمم والمجتمعات عنواناً مشرقاً يرشد إلى أمّة القرآن، أمّة الأخلاق والسّلوك، أمّة العلم والعمل، أمّة الحضارة والإنسانية السويّة.

ثم **أوصي جيل المجتمع المسلم** - الحاضر والقادم- فأقول ما قاله ويقوله أهل البصيرة والحكمة عليهم رحمة الله تعالى : همّتك فاحفظها، فإنَّ الهمَّة مقدّمة

الأشياء، ومَنْ صَلحت له همَّته، وصدق فيها، صلح له ما وراءها من الأعمال والأحوال، ولا شك أن قيمة الإنسان بقدر همّته ؛ فإن كانت همَّته الدنيا مفرّطاً بالآخرة، فلا قيمة له، ومَنْ كانت همّته رضاء الله تعالى، فلا يمكن استدراك غاية قيمته، ولا الوقوف عليها . والزم طريق التزكية فهو طريق التآلف والتعاطف، وضبط الحواسّ، ومراعاة الأنْفَاس. واستحضر أنّ صحبة أهل الصلاح، تورث في القلب الصَّلاح، وصحبة أهل الفساد تورث فيه الفساد، وأنّ أسعد الأصحاب؛ أعظمهم لحرمات الله تعالى رعاية، وألهَجهم بذكر الله عزّ وجلّ، وأقومهم بحقِّ الله تبارك اسمه، وأسرعُهم مبادرة في مرضاة الله جلّ شأنه، وأعرفهم بنقصان نفسه، وأكثرهُم تعظيماً لما عظَّم الله من حُرْمة عباده. وأنّ أفقههم مَنْ كان على هدي رسول الله الخاتم سيّدنا محمد ﷺ في العلم والعمل والأخلاق ؛ فقد كان خُلُقُه القرآن كما تُحدِّث أم المؤمنين عائشة بنت الصّدّيق أبي بكر رضي الله عنهما [1] . وإيّاك والسّكون للأسباب ؛ فإنّ السّكون

(١) لما أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ١١٥، برقم (٣٠٨) بسنده إلى يزيد بن بابنوس، قال دخلنا على عائشة رضي الله عنها، فقلنا: يا أم المؤمنين ؛ ما كان خُلُق رسول الله ﷺ ؟ قالت: « **كان خلقه القرآن** ». والخُلُق: الطبع و الدين و المروءة ؛ بمعنى أنّه ﷺ كان متمسكاً بآداب القرآن وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والأوصاف، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، وكان أجود الناس وأرأفهم وأرحمهم، وأحسنهم خَلْقاً وخُلُقاً، وألينهم كفّاً، وأطيبهم ريحاً، وأحسنهم عشرة، وأعلمهم بالله وأشدهم لله خشية، ولا يغضب لنفسه ولا ينتقم لها، وإنما يغضب إذا انتُهكت حرمات الله عز وجل فحينئذ يغضب ولا يقوم لغضبه شيء حتى ينتصر للحق، وإذا غضب أعرض وأشاح، وكان أكثر الناس تواضعاً، يقضي حاجة أهله، ويخفض جناحه للضَّعَفة، وما سُئل شيئاً قط فقال لا، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها، والقريب والبعيد والقوي والضعيف عنده في الحق سواء . وهو بهذا التمسك =

إلى الأسـباب يقطع القلوب عن الاعتماد على الـمُسَـبِّب الحقيقي الذي هو الله سبحانه.

وعليـك أن تعـرف الله تعـالى بكمـــال الربوبية، وتعـرف نفْسَـكَ بالفقر والعبوديـة، وتعلم أنَّ الله تعـالى الأوَّلُ قبل كلِّ شيء، وبه يقوم كلّ شيء، وإليه مصـير كلِّ شيء، وعليـه رزق كل شيء، فـلا بـد مـن توحيده تعـالى بالمعرفة، وتوحيـده بالعبـادة، وتوحيده بالرجـوع إليه في كلّ ما لَـكَ وعليك، وتعلمَ أنّ أوصافـه مباينة لأوصاف خلقه، باينهم بصفاته قِدَماً كما باينوه بصفاتهم حدثاً، وأن الصَّادق هو الذي يَسْـكن إلى مضمون الله تعالى له، وعلامة ركون القلب وسـكونه إلى الله تعـالى أن يكـون قويَّاً عنـد زوال الدنيا وإدبارهـا عنه، وفقده إياهـا، ويكـون بـما في يـد الله أقوى وأوثـق منه بـما في يده، وإذا سـكن الخوفُ من الله تعالى في القلب لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه. وأنّ المعجب بعمله مستدرَج، والمستحسِن لشيء من أحواله مَمْكور به، والذي يظن أنّه موصول فهو مغرور، وأنَّ أحســن العبيد حالاً مَنْ كان محمولاً في أفعاله وأحواله؛ لا يثق إلا بواحد، ولا يأنس إلا به، ولا يشـتاق إلا إليه، فسـبحان الله الملك القدُّوس ذي الجلال والإكرام رب العرش العظيم.

= يوضّح أن جميع ما قصّ الله تعالى في كتابه من مكارم الأخلاق – مما قصّه من أخبار نبـيّ أو ولي، أو حـثّ عليـه أو ندب إليه– ؛ كان ﷺ متخلّقاً بـه . وإن كلّ ما نهى الله تعـالى عنـه في القرآن ، ونزّه أوليـاءه عنه كان ﷺ لا يحوم حوله . فلا شيء أحســن من آداب القـرآن الكريم التي دعانا الله تعالى إليهـا، وقد كان ﷺ أنموذجاً جامعاً لها غير خارج عنها إلى ما سواها في شيء ؛ فصلى الله عليه في الأولين، وصلى عليه في الآخرين، وصلى عليه في الملأ الأعلى إلى يوم الدين .

وعلينا جميعاً : أن نستذكر ونحفظ فضل من مضى من السَّابقين باستحضار جهودهـم، وجهادهم في سبيل الله عزّ وجلّ، واجتهادهـم في إيصال المعرفة والعلـم والدّيـن إلى سـائر أجيـال الأمـة المتعاقبـة عـلى أكمل وجـه، وكذلك شكرهم، والدعاء لهم بالمثوبات والرَّحَمات، كدعائنا لأنفسنا بالثبات على الدين وحسن الخاتمة، وأن نحذر من الوقوع في قبح التقصير معهم ؛ بتضييع ما أفنوا أعمارهـم من أجـل توضيحه أو إيصاله إلينـا جيلاً بعد جيـل، أو بترك الدعاء لهـم أو عدم الترحّـم عليهم؛ يقول الإمـام رزق الله بن عبد الوهـاب التميمي الحنبلي البغدادي(ت ٤٨٨هـ) رحمة الله عليه: « يَقبُحُ بكم أن تستفيدوا منّا، ثم تَذكُرُونا ولا تترحَّموا علينا »[١].

فرحمة الله تعالى على السّابقين، والأولين والآخرين، ونفحنا من بركات ما نفحهم به، وألحقنا بركبهم ثابتين على الحق، غير خزايا ولا مفتونين.

فرحمة الله على من مضى   وبارك الله على من بقي

وغفر الله لنّا ولهم، ورفع مقامهم في عليين؛

فـ (أولئك قومٌ شَيَّد اللهُ فَخْرَهُـــمُ   فما فوقَه فَخْرٌ وإن عَظُمَ الفخرُ)

﴿ .. رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

(١) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، ص ٩ .

(٢) سورة الحشر ، من الآية ١٠ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] . ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[2].

هـــذا .. وصلَّى الله على نبيِّنا مُحَمَّدٍ كلَّما ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ، وغَفَل عن ذِكْرِهِ الغافِلُـونَ . وصلَّى الله عليه في الأوَّلين والآخرين، أفضلَ وأكثرَ وأزكى ما صلَّى عـلى أَحَدٍ من خَلْقِـهِ . وزكَّانا وإيَّاكم بالصَّلاة عليه، أفضـلَ ما زكَّى أحدًا من أُمَّتِهِ بصلاته عليه . والسَّلام عليه ورحمةُ الله وبركاته . وجزاه الله عنَّـا أفْضَلَ ما جزى مُرْسَـلاً عن مَنْ أُرْسِـلَ إليه ؛ فإنَّه أنقَذَنا به من الهَلَكَة، وجعلنا في خير أُمَّةٍ أخرجـت للنّاس، دائنينَ بدينـه الذي ارتضى، واصطفى بـه ملائكتَه ومَنْ أنعم عليـه مِنْ خلقـه، فلم تُمْسِ بنـا نعمةٌ ظهـرتْ ولا بطنتْ، نلنا بهـا حظًّا في دِينٍ ودُنْيـا، أو دُفِـعَ بها عنَّا مكروهٌ فيهما، أو في واحدٍ منهما : إلا ومحمَّدٌ صلى الله عليه سببُها، القائدُ إلى خيرها، والهادي إلى رُشْدِها، الذَّائدُ عن الهَلَكَة وموارد السَّوْءِ في خلاف الرُّشْـدِ، المُنَبِّـهُ للأسـباب التـي تُورد الهَلَكَة، القائـمُ بالنصيحـةِ في الإرشـاد والإنـذار فيهـا . فصَـلَّى الله على محمَّدٍ وعـلى آل محمَّدٍ، كمـا صَلَّى على إبراهيم وآل إبراهيم، إنَّـه حميدٌ مجيدٌ [3] . والحمد لله رب العالمين .

***

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٥٣ .

(٣) هذه الصيغة من الصلاة ذكرها الإمام الشافعي في كتابه الرسالة، ص ١٦ – ١٧ .



أهـــم
المراجـع والمصـادر

أهم المراجع والمصادر

- القرآن الكريم
- الآداب الشرعية والمنح المرعية، لأبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عمر القيام، الناشر مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، بيروت .
- إتحاف الأمجاد في ما يصح به الاستشهاد ، للآلوسي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٨٢م .
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، دار ابن كثير، دمشق .
- إحياء علوم الدين ، للغزالي، دار المعرفة ، بيروت.
- الأدب المفرد ، للبخاري ، دار البشائر، بيروت، ١٩٨٩م .
- الإصابة في معرفة الصحابة ، لابن حجر العسقلاني ، دار الجيل، بيروت.
- إصلاح المال ، لأبي بكر القرشي، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٤هـ .
- بصائر ذوي التمييز ، للفيروزآبادي ،القاهرة ، ١٣٨٥هـ.
- البيان والتعريف ، لإبراهيم الحسيني ،دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠١ هـ.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ،دار الكتب العلمية ، بيروت .
- تاريخ مدينة دمشق، لأبي القاسم ابن عساكر الشافعي ،دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- التبيان في بيان آداب حملة القرآن، للنووي ، دار الكتاب العربي، ١٩٩٥م.
- تخريج الأحاديث والآثار ، للزيلعي،دار ابن خزيمة ، ١٤١٤هـ .
- الترغيب والترهيب ، للمنذري ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، للخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ٢٠٠٦م.
- تفسير ابن كثير الدمشقي، دار الفكر ، ١٤٠١هـ .
- تفسير أبي سعود العمادي ، دار إحياء التراث، بيروت .
- التفسير والمفسرون، للذهبي، دار الكتب الحديثة، القاهرة .
- الحث على طلب العلم، لأبي هلال العسكري ، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ .
- الدر المنثور ، للسيوطي ، دار الفكر ، بيروت .
- الرسالة، للإمام الشافعي، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الزهد لابن المبارك ، أبي عبد الله المروزي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- السنن الصغرى، للبيهقي، مكتبة الدار ، المدينة المنورة، ١٤١٠هـ .
- العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني ، دار الجيل، بيروت.
- العمر والشيب، لابن أبي الدنيا ، مكتبة الرشد ، الرياض، ١٤١٢هـ .
- العيال ، لابن أبي الدنيا ، دار ابن القيم، الدمام، ١٤١٠هـ .
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطي، مطبعة البابي، مصر .
- المستدرك على الصحيحين، للحاكم القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
- المطالب العالية، لابن حجر العسقلاني، دار العاصمة ، السعودية، ١٤١٩هـ.
- المعجم الكبير ، للطبراني، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٩٨٣م .

- النهاية في غريب الأثر ، لابن الأثير ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٣٩٩هـ .
- تفسير الرازي ، دار الكتب العلمية ، ١٤٢١هـ .
- تفسير السمعاني ، دار الوطن ، الرياض ، ١٩٩٧م .
- تفسير الطبري ، دار الفكر ، ١٤٠٥هـ .
- تفسير القرطبي ، دار الشعب، القاهرة .
- تفسير الكشاف، للزمخشري ، دار إحياء التراث، بيروت .
- تفسير روح المعاني ، للآلوسي ، دار إحياء التراث، بيروت .
- جامع العلوم الحكم ، لعبد الرحمن ابن رجب البغدادي ، مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ .
- حاشية ابن عابدين، محمد أمين،دار البشائر، ٢٠٠٠م.
- حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني ، مطبعة السعادة، ١٣٥٧هـ .
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر البغدادي ، مطبعة بولاق ، القاهرة.
- سبل السلام ، لمحمد الصنعاني ، دار إحياء التراث، بيروت، ١٣٧٩هـ .
- سنن ابن ماجه، القزويني، دار الفكر ، بيروت .
- سنن أبي داود السجستاني ، دار الفكر ، بيروت .
- سنن الترمذي السلمي، دار إحياء التراث، بيروت .
- سنن الدارمي ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧هـ .
- سنن النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م .
- سنن سعيد بن منصور ، دار العصيمي ، الرياض، ١٤١٤هـ .

- سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ .

- شعب الإيمان، للبيهقي، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- صحيح ابن حبان ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م .

- صحيح البخاري ، دار ابن كثير، ١٩٨٧م .

- صحيح مسلم ، دار إحياء التراث، بيروت .

- صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، لأبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٩٢م .

- طبقات ابن سعد ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- طبقات الأولياء ، لابن الملقن ، القاهرة ، ١٩٩٤م.

- طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة ، عالم الكتب، بيروت.

- طبقات الشعراء، لابن المعتز، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.

- طبقات المفسرين، للداوودي ، مصر، ١٩٧٢م.

- طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، القاهرة،١٩٧٤م.

- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت .

- فضائل القرآن ، للنسائي، دار إحياء العلوم،بيروت – الدار البيضاء ١٤١٣هـ .

- فضائل القرآن وتلاوته، للرازي (ت٤٥٤هـ)، تحـ أ. د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية ، بيروت، ط١، ١٩٩٤م .

- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت .

- فيض القدير ، للمناوي، المكتبة التجارية، مصر، ١٣٥٦هـ.

- قواعد التحديث، للقاسمي، دار الكتب العلمية ، ١٣٩٩هـ .

- قيمة الزمن عند العلماء ، لأبي غدّة ، دار البشائر الإسلامية، بيروت،١٩٩٥م.
- لسان العرب، لابن منظور المصري ، دار صادر ، بيروت.
- مجمع الزوائد ، للهيثمي ، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ .
- مسند أبي عوانة الإسفرائيني ، دار المعرفة بيروت.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة ، مصر .
- مسند الشاميين ، للطبراني ،مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م .
- مصنف ابن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ .
- مصنف عبد الرزاق الصنعاني ، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ .
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م.
- مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٢م .
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لابن الأنباري، القاهرة، ١٩٦٧م .

* * *

الفهرس

***


www.iacad.gov.ae
04 6087777
الـرؤية ثقافة إسلامية وسطية